منشورات وزارة الإعلام والثقافة
الجمهورية العربية اليمنية

حياة الأدب اليمني

في

عصر بني رسول

عبدالله محمد الحبشي

منشورات وزارة الإعلام والثقافة
الجمهورية العربية اليمنية

حياة الأدب اليمني

في

عصر بني رسول

عبد الله محمد الحبشي

الطبعة الاولى سنة ١٩٧٧ م

الطبعة الثانية سنة ١٩٨٠ م

الإهداء

إلى صديقي العلامة علي أحمد أبو الرجال

عرفته باحثاً ومشجعاً للبحث العلمي

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

حظي تاريخ الادب العربي في البلاد العربية بالعناية الكبيرة ، فكتبت فيه عشرات المؤلفات وقامت عليه أسماء كبيرة من أدبائنا الكبار كالاديب طه حسين والعقاد وشوقي ضيف وغيرهم . وكان جل اهتمامهم بتاريخ البلاد المعروفة لهم كمصر والشام والعراق ، وقليل منهم من أولى عنايته لما عدا هذه البلدان ،وعلى الاخص اليمن التي كادت تختفي من كل تلك الكتب وغيرها .

وقد رأيت من واجبي أن أسد هذا النقص في تلك الدراسات وقمت بكتابة هذه الدراسة الادبية التي تتناول فترة من أهم فتراتنا الثقافية في اليمن. وقد تبين لي أهمية عصر بني رسول في تاريخنا الأدبي منذ فراغي مباشرة من كتابي (الصوفية والفقهاء في اليمن) سنة ١٣٩٥ هـ .

فقمت بوضع هذا الكتاب : (حياة الادب في عصر بني رسول) منذ سنة ١٣٩٧ هـ ، وقدر له أن يطبع في تلك المدة إلا أنه ويا لسوء الحظ أتت طباعته من أسوأ ما يطبع به كتاب في العصر الحديث . ويكفي لتبيّن مساوىء تلك الطبعة ما كتبه الاستاذ عبد العزيز المقالح في صحيفة (١٣ يونيو) ونشره بعد ذلك في كتاب له غاب عني اسمه الآن .

فما كان من وزارة الإعلام إلا أن تحمّست لاعادة طبعه ، وكان على رأسها الأديب النابه الأستاذ يحيى بن علي الارياني الذي شجعني في مواصلة مراجعته

ونقيحه ، فشمرت الهمة في ذلك على الرغم من مشقة الرجوع الى كتاب سبق لي أن جهدت القريحة فيه .

وفي الختـــام لايسعني إلا أن أحيي أولئك الذيـــن كرموني باقتراحاتهم وإرشاداتهم وعلى الاخص أولئك الذين كرموني بتقاريظهم وثنـــائهم الذي لا أستحقه لا في قليل ولا كثير ، فقد أبت سجاياهم الكريمة وأعراقهم الطيبة إلا أن تجود بنفثات من الشعر والنثر ..

فإليهم أقدم تحيني وثنائي وعلى رأسهم أستاذنا الشاعر الاديب يحيى بن علي البساري والاديب الشاعر عبد الرحمن بن محمد قاضي والاديب الشاعرأحمد يحيى بلبل والاستاذ عبد الوهاب المؤيد وشيخنا العلامة بقيـــة السلف الصالح القاضي أحمد بن محمد الواسعي والاستاذ المحقق أحمد عبد الرزاق الرقيحي ... فهؤلاء هم أصحاب الفضل الاكبر في ظهور هذه الدراسة المتواضعة وإليهم أقدم جزيل شكري وتقديري .

عبد الله الحبشي

* * *

مجد الرسوليين

للشاعر أحمد يحيى بلبل

أرياض جادها غيثُ السما   أم ضياء الصبح شق الظلما
لا ولكني أرى سفرا به   أفرغ الفن البيان الملهما
فاض عذباً وجرى سلسله   يمنح الافكار خصبا ونما
ترك الأرواح تشدو طرباً   ومضى ينفث فيها الهمما
أيهذا « الرائد » الفذّ الذي   ما حوى في الملك إلاّ القلما
أنت شمس أشرقت ساطعة   ترسل الضوء وتسدي النعما
لك فكر صاغ في تاريخنا   كتباً غرّاء تحيي القيَما
نشرت مجد « الرسوليين » أبـ   ـناء « غسّان » الملوك العظما
من بهم يفتخر الدهر ومن   خدموا العلم وسنوا الشيَما
ينتمي المجد الى دولتهم   ويناغي في ذراها القمما
فهي في « مأرب » رمز المجد قد   خلدت سدا يفوق الهرما
وبأرض « الشام » سادت دولة   لم تزل للباحثين العلما
وأقاموا في « تعز » دولة   تحفظ العهد وترعى الذمما
فاذا هم حيث صاروا قوة   تنبت العز وتحمي الحرما

* * *

هـــذه جائزتي

من قصيدة

للشاعر يحيى علي البشاري

بكـت الكأس بدمـع العنـب ... فاهتفـوا يا سـلوة المكتئـب
هاجها الرمّـان مزجـا فنشـت ... نفـح ورد ألـق ملتهـبِ
ذكرتنـي وهـي ترمـي شـرراً ... بسـيوف حـدها مـن لهـب
بشـموس من بنـي غسان لـم ... يكتحـل مشـرقها بالمغـربِ
هذه الكأس شـعاع النصـر في ... جبهـة الفـارس بعـد الغلـب
انهـا بنـت العناقيـد التـي ... عرشـت عنهـا « حياة الادب »
روضـة يمنحنـا ريّانهـا ... سَكَراً يجلو همـوم المتعب
ولقـد تـبعـثُ كـأس" حملت ... دم عنقـود شـجون الحقـب
كم حبيـب نكهـت عن نخـوة ... منـه كانـت مطـر المسـتوهب
حجبـت عنـا النـوى عرفانـه ... وأرانـا عنـه خلـف الحجـب
إنّ ذا البسـتان فـي طيـاته ... عجـب ينبئنـا عـن عجـب
بسمة أو دمعـة من ضـاحك ... جـذل أو نائـح مكتـرب
رب روض حـدرت أجفـانه ... غيمـة من دمعهـا المنسكب
فـرنا نحـوك فارتاح جـوى ... بـك أو عـدت بدمـع سـرب
تلك أجفـان حكـت أمّاً بكت ... ولـدا فـارق أو ضحـك أب
لك « عبد الله » شكري ما سرى ... لامـح البـرق برعـد السـحب
هـذه جائزتـي ضمنهـا ... نسـق الـدر قـريض الذهـب
فاجتل الخـود عروسـا بـرزت ... في سـفور القمـر المرتقـبِ
حـرة بكـراً اذا اسـتنطقتها ... نطقـت بالسـائغ المستعذب
واعف عن بـاك شـكت عبرته ... بـين أهـل غصـة المغتـرب
كم أرانـي أرقـب النسمس كمـا ... يرقـب العذراء شـوق الاعزب
كيف غابـت من دمـي مشـتعل ... بعـدها لا ... انها لـم تغـب

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

للاستاذ القاضي العلامة
احمد عبد الواسع الواسعي لكتاب
(حياة الادب اليمني في عصر بني
رسول) كان نقله من خطه حرفيا.

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه أستعين

وانه لما اطلعت على ما ألفه الاديب العبقري العلامة البحاثة مفخرة العلماء قاطبة عبد الله بن محمد الحبشي[1] أبقاه الله ذخراً للادب وأهله وسرحت ناظري في حدائق ما سماه (حياة الادب اليمني في حياة بني رسول) علمت صحة مايقال إن في الزوايا لخبايا وإن في رجال أهل الكمال لبقايا . ولقد كان الحظ ساعدني قبل ذلك بالاطلاع على موسوعته الادبية الضخمة التي سماها بـ (مصادر الفكر الاسلامي في اليمن) وهي الموسوعة التي أبان فيها عن ذكاء نادر وألمعية فذة . لا ، بل أسفر عن ثروة ثقافية خامة . لا ، بل عن طاقة هائلة مخزونة في قلبه النابض وعقله الكبير . ولقد أراد أن يجعله متمما لتلك الموسوعة المذكورة آنفا أو ملحقا به . ومن يدري فان ما أودعه في هذا الملحق بالنسبة الى الملحق به ليس الا قطرة من وابل أو ومضة من نور باهر وتيقنت آن ذلك على حداثة سنه من فضل الله عليه الذي يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم فاني كثيرا ما ألقاه صدفة إما في الطريق الى محل عمله أو الى المسجد أو في الدورة على عرفنا فأنتهز الفرصة بأن أفاتحه كمذاكرة علمية وأتعرض لذكر علامة أو أديب أو مؤلف قديما أو حديثا أو مؤرخ أو حادثة تاريخية أو دولة منقرضة فاذا به يتدفق من

(١) بكسر الحاء وسكون الباء نسبه الى حبش بوزن حبر .

معين لسانه بما يبهر السامع اذ يذكر عن ظهر قلب اسمه ومولـده وتاريخ وفاته ثم حياته كاملة ومؤلفاته ومراسلاته وما قاله وما قيل فيه من الاوصاف ثم يستطرد ذكر زملائه في عصره فأرى والله فيه العجب العجاب حتى يخيل اليّ أن عقله الكبير يحمل دائرة معارف أو مكتبة ضخمة الامر الذي جعلني أتمثل فيحقه بقول صاحب المقصورة المشهورة : (والناس ألف" منهمو كواحد●وواحد كالألف إن أمر عنى) وأذكر أني زرته مرة في منزل له بالأجرة أو بعبارة أصح في كوخه المتواضع فوجدته منغمسا بين عشرات المجلدات المخطوطة وغيرها واقفا على مافيها (وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه) لاتشذ عنه شاردة ولاتفوته شاذة إلا كتبها في كنّاشه[1]) ووعاها هناك وفي اعتقادي انه ينطبق عليه تماما ما قاله ذلك الاعرابي للاصمعي بكلمته المشهورة وقد رآه يتنقل في أحياء العرب الخلَّص وبين خيامهم وقت التدوين الأول فما إن ينطق أي أعرابي أو أعرابية بكلمة (إلا كتبها للتدوين فعجب منه الأعرابي وقال للاصمعي مخاطبا إياه (أنت شبيه الحفَظَة • تكتب لفظ اللفَظَة) فقال الأصمعي وهذا أيضا منما يُكتب فكتبه • ولقد قال لي قائل من المعجبين به لو كان هذا الرجل في قطر آخر لحُمِل على الاكتاف • ومن كريم طباعه مادكر له أحد المتوجعين له بسبب تجاهل أهل زمانه له فأجابه قائلا : حسبي خدمة وطني وخدمة أبناء جنسي • ولقد جرى قلمي عند تحريري هذه السطور بديهة مسليّاً له ومنزلا له منزلة المخاطَب وان كان غائبا بهذين البيتين :

(يا أديباً من فاق[2] كل أديـب وسـما قـدره على الأقـران)
(غيظ من رام جحد فضلك عمداً انك اليـوم لا يُرى لك ثاني)

وشكرا للاخ الأديب علي بن أحمد أبي الرجال على اهتمامه بالادب اليمني حيث اصبح مشجعا لأبنائه كما هو المعروف عنه • أضف الى هذا أيها القارىء

---

(١) كنّاش جمع كنّاشة على وزن رمانة دفتر أو ملـف يدرج فيه الشـوارد والفوائد عربي فصيح . انظر كتب اللغة •

(٢) يقال فاق الشيء ولا يقال فاق على الشيء فهو فعل متعد فجعله لازما كما يكتبه بعض الكتاب غلط •

الكريم ما يمتاز به أديبنا النابغة بالصراحة الطاهرة والعمل بأمانة النقل كنموذج من العمل بقوله تعالى (إنّا عرضنا الأمانة على السموات والارض والجبال) الى آخر الآية[1] ..

وفي كتابه هذا خير شاهد على ما نقول ، ولقد أبان فيه عن علم واسع ومعرفة تامة بشواهد التواريخ العلمية والادبية .

ولانطيل عليك ، أيها القارىء الكريم ، فإليك هذا المنهل الصافي والموضوع الذي لم تسبقه فيه الأقلام شأنه فيه شأن كل أبحاثه ومؤلفاته . فكم أبان عن جديد واكتشف من مجهول حتى أصبحت كل الأبحاث التي أتت بعده ما هي إلا ترديد لصداه أو متممة لما ابتداه .. فتحية لهذا الأديب النابه وشكراً له على جهوده وأعماله .

أحمد بن عبد الواسع الواسعي

* * *

(١) بآخر سورة الاحزاب .

حياة الأدب اليمني

في

عصر بني رسول

عبد الله محمد الحبشي

تمهيد

يكثر في التاريخ اليمني اندحار الدول الكبيرة على أيدي دول ناشئة يكون أفرادها في الغالب من رجال تلك الدولة المندحرة ، وهذا ماحدث فعلا في القرن الثالث الهجري عندما انتهى حكم العباسبين في اليمن على أيدي عمالهم من بني زياد وعنـدما انتهت هـده الدولة على أيدي خدمهم من بني نجاح في القرن الخامس الهجري .

ونفس الامر وقع عندما استأثر بالحكم بنو رسول وتأسيس دولة ضخمة في اليمن على انقاض دولة الايوبيين وقد كانوا في بداية ولايتهم عمالا لهم في بعض المناطق اليمنية ، على أن سقوط الدولة الايوبية قد مهد له عدة عوامل داخلية وخارجية بل إن هذا السقوط كان أول العلامات لموت هذهالدولةالكبيرة واندثارها من مسرح الاحداث نهائيا وذلك بعد خروجهم من اليمن بنحو عشرين سـنة فقط .

ومن أكثر الاسباب التي دعت الى دحرهم من اليمن تنافس أفراد البيـت المالك من بني أيوب على مركز الزعامة في مصر وعدم انسجامهم مع طبيعة البلاد وهي اليمن التي يحكمونها . وقد صاحبهم نفور عام من أول حاكم لهم وهو نوران شاه حتى آخر ملك منهم وهو السلطان المسعود . هذا مع بعد المسافة بين الدولة المركزية الحاكمة في مصر وبلاد اليمن التي تختلف عن أرض مصـر من حيث السكان والمناخ . ويرى الباحث المعاصر الدكتور محمد زغلول سلام أن من أسباب سقوط الدولة الايوبية بصفة عامة « تكالب الاعداء من الخارج في صورة الصليبيين وعناصر داخلية أسرعت في القضاء عليهـا ، منها : تورط

الأيوبيين أنفسهم في نزاع فيما بينهم وإهمالهم لسؤون الرعية وسـوء معاملة مسالبكهم الناس » الى غير ذلك[1] ٠

وكل دلك أتاح الفرصة للامير الشاب عمر بن علي الرسـولي بالاستيثار بالحكم واعلان مملكته في اليمن ودولة الايوبيين لاتزال قائمة في مصر والحجاز والشام ٠ وكان الامير عمر بن علي الرسولي قبل اعلان تأسيس دولته قد تولى اليمن للملك المسعود واستخلفه هذا على سائر بلاد اليمن بعد رحلته الى الحجاز ثم صادف أن توفي الملك المسعود سنة ٦٢٦ هـ ، ولم يكن هناك من يخلفه من أفراد بيت آل أيوب في اليمن فأعلن الامير عمر بن علي الرسولي الحكم لنفسه فكان هذا التاريخ بداية ظهور الدولة الرسولية في اليسن ومكت بزبيد مدة من الوقت وطد فيها دعائم ملكه ، ثم رحل الى صنعاء وغيرها من البلاد اليمنيـة ودانت له سائر البلاد ٠

أما الدولة الايوبية المحتضرة فى مصر فإنها لم تقم بأي عمل معاد ضدهذا الثائر عليها وكل مافامت به هو ارسال جيش هزيل الى اليمن بقيادة أسد الدين بن جبريل ، سرعان ما انهزم في وجـه الجبتس اليمني ، وتحول أكثر أفراده الى القائد الرسولي ٠

وبالملك المنصور عمر بن علي الرسولي تبتدي أشهر دولة عرفها تاريخ اليمن في عصوره القديمة والحديثة ، وقد اكتسبت شهرتهامنحيث الفترةالطويلة التي حكمت فيها وبتشجيعها للعلم والعلماء والاستقرار النسبي الذي شهدته البلاد في عهدها ٠ أما نهاية الملك المنصور فقد كانت محزنة ، حيث كان قتله بأيدي جماعة من غلمانه وخدامه الموالين لمنافسه على الحكم الامير أسد الدين حسن بن رسول وذلك سنة ٦٤٧ وعندما وصل الخبر الى ولده المظفر يوسف بن عمر الرسولي وكان بالمهجم ، تأهب لقتال ابن عمه واستطاع أن يستميل المماليك الى جانبه

---

(١) محمد زغلول سلام : الادب العربي في العصر الايوبي ص ٤٧ ٠

والقبض على ابن عمه وزجه في سجن زبيد . وهذا أول انقلاب عسكري شهدته الدولة الرسولية . وسيكرر في تاريخها بعد ذلك وقوع التمردات الطارئة من قبل الطامعين في الحكم من أفراد بيت آل رسول ، وسيكون هـذا سبب فتن كثيرة وقلاقل للامن كما سنذكره فيما بعد . الا أن حكم المظفر قد استمر فترة لم تعرف عن حاكم رسولي قبله ولابعده . فقد مكث في الحكم نحو نصف قرن من سنة ٦٤٧ الى سنة ٦٩٤ وازدهر عهده بالعمران الثقافي والمدني، وتوحدت البلاد اليمنية قاطبة تحت لوائه حتى وصلت أطراف مملكته الى عمان ودخل تحت حكمه قطر الحجاز ومكة . والملك المظفر هو أول من سنّ مِن ملوك الدولة الرسولية نظام ولاية العهد . وقد أعلن ذلك في حفل بهيج قال فيه : « أما بعد فقد ملكنا عليكم من لايؤثر فيه دواعي التقرب على باعث التجريب ولا عاجل التخصيص على آجل التمحيص ولا ملازمة الهوى والإيثار على مداومة البلوى والاختبار .. » الخ[1] .

وقد توسع الخزرجي في أخبار دولة الملك المظفر وماحدث فيها من حوادث عسكرية واجتماعية .

وتوفي الملك المظفر سنة ٦٩٤ فخلفه في الحكم ابنه الملك الاشرف عمر بن يوسف وكان هادىء البال سليم النية ، وعندما علم أن أخاه المؤيد قد عارضه في الحكم جهز له ابنه الناصر فقضى على ثورته وهي في المهد ، ويقال انه لما بلغه القبض على أخيه بكى بكاء شديداً ثم أمر به الى حصن تعز وأجرى عليه نفقة جيدة . ولم يستمر حكم الاشرف سوى سنتين ، وسرعان ما باغته الحمام سنة ٦٩٦ فتولى الحكم بعده أخوه الملك المؤيد داود بن يوسف عمر بطلب من ابن الاشرف الناصر والعادل ، وكان المؤيد مودعا في السجن في ذلك الوقت فأخرج وبويع له بالحكم بمحضر كبير من أعيان الدولة والعلماء ، وقد شهدت سنوات حكمه الاولى قيام أخيه الامير المظفر بن يوسف بالخلاف عليه ومنازعته فأودعه

(١) العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٢٧٤ .

السجن ثم أفرج عنه . ولايخلو حكم المؤيد من بعض الاصلاح العمراني والرفي حيث إنه تم بناء القصور الفخمة والمتنزهات الكبيرة[1] .. وساد حكمه فترة هدوء تــامل .

وبعد وفاته سنة ٧٢٠ كان قيام ابنه المجاهد علي بن داود ليجد النفوس من أقاربه طامحة في الحكم مشرئبة اليه ولم تمض سوى سنة واحدة حتى يقوم أحد الثوار وهو ابن عمه المنصور أيوب بن يوسف بن عمر بالاستيلاء على الحكم وايداع المجاهد السجن لمدة ثلاثة أشهر ثم قام أحد مماليكه الموالين له باعادة الملك المجاهد الى كرسيه وطرد منافسه المنصور .

ومن المؤسف له حقا أن يكثر التنافس بين الامراء على الملك ويكون هذا سببا في إزهاق أرواح العديد من الناس بل إن الملك المجاهد قد قام بعد ذلك بعمل أهوج في سبيل الحفاظ على حكمه فاتصل بجماعة من العسكر المصريين من بقايا المماليك وطلب حضورهم الى اليمن سنة ٧٢٥ فدخلوا بعد أن عاثوا في البلاد فسادا وأشاعوا الخوف والنهب والسلب وكانوا يستولون على حاجاتهم بالنهب والاغتصاب حتى اضطر التجار الى اغلاق متاجرهم واخفاء بضائعهم . وفي عهد المجاهد كثرت ثورات القبائل التهامية على الدولة فقامت قبيلة المعازبة بانتفاضتها سنة ٧٣٠ . وفي سنة ٧٥١ خرج المجاهد الى مكة للمرة الثالثة وصادف في مكة العسكر المصري التابع لسلطان المماليك فحدث أن أشاعوا بينهم أن الملك المجاهد ينوي التمرد على صاحب مصر فأخذه العسكر المصري مقيدا الى مصر ومكث فيها عشرة أشهر ثم أفرج عنه وعاد الى اليمن وذلك سنة ٧٥٤ وحدثت بعد ذلك ثورة الامير محمد بن ميكائيل سنة ٧٦٣ قبل وفاة المجاهد بسنة واحدة ثم توفي المجاهد سنة ٧٦٤ بعدن فخلفه في الحكم ابنه الملك الافضل عباس بن علي ابن داود فكان أول ماقام به هو مطاردة فلول الثائر ابن ميكائيل حتى اضطره الى أن يتحصن بمدينة ذمار ، ثم تجددت ثورات القبائل ووقعت معارك بين الدولة

(١) العمري : مسالك الأبصار (ص ٥٧) .

وقبيلتـــي الفرسين والمعازبة وغيرهما ، وقام الامام بمحاصرة زبيد مدة أيام ثم انفصل عنها ، وفي عهد المجاهد سادت فوضى القبائل وتوفي المجاهد بقصره بمدينة زبيــد سنة ٧٧٨ فخلفه ولده الملك الاشرف الثاني اسماعيل ، وقد تجددت بينه وبين الامام معارك حدثت تحت صنعاء ، ثم قامت قبيلة المعازب بتمرداتهـا المعتادة حتى كادت أن تأسر الملك الاشرف نفسه عند مدخل زبيد وتوجه الامام سنة ٧٩١ لغزو زبيد فحط في (رمع) وحاصر زبيد مدة من الزمن ولم يدخلهـا وكانت وفاة الاشرف بذي عدينه سنة ٨٠٣ فتولى بعده الناصرأحمد بن اسماعيل وقد عرف عهده بالاضطراب وكثرة الفتن • وفي عهده حدث النزاع الشهير بـين الفقهاء والصوفية كما فصلناه في كتابنا (الصوفية والفقهاء في اليمن) • وقام الناصر بعدة حملات عسكرية لتوطيد الامن ، فغزا المقاطرة سنة ٨٠٨ وغيرهمـا وقام حسين بن اسماعيل أحد اخوته بالتمرد عليه سنة ٨٢٢ فأودع السجن وكذلك أودع أخاه الآخر يحيى بن اسماعيل ، وكانت وفاة الناصر سنة ٨٢٧ في حصن قوارير فحمل الى تعز ، ومنذ وفاة الناصر يبتدي نجم الدولة الرسولية بالافول فيخلفه في الحكم جماعة من الخلفاء الذين لاتستقر لهم الاوضاع ، فبعد وفاة الناصر خلف في الحكم ولده عبد الله بن أحمد وتلقب بالمنصور ، فلم يلبث في الحكم سوى سنة واحدة •

ثم مات فتولى بعده اخوه اسماعيل بن أحمد وتلقب بالاشرف وكان صغير السن فلم يثبت لزعزعات السياسة وأزيح عن كرسيه بعد أشـــهر قلائل وتولى الحكم بعده يحيى بن اسماعيل وتلقب بالظاهر ، وقد قام بالامر أتم قيام وساس الناس بحكمة الا أن شأن العبيد قد قوي في الدولة فقام بحملة تطهيرية ضدهم ونكل بجماعة من أعيانهم • وحدث في عهد الظاهر تمرد من قبل أخ له هـــو عباس بن اسماعيل انتهى بالفشل وفي سنة ٨٣٩ اجتاح اليمن طاعون رهيب مات فيه خلق كثير وأبيدت قرى بأكملها ، ثم مات الظاهر في سنة ٨٤٢ فقام بعده ولده اسماعيل بن يحيى وتلقب بالاشرف ، وقد تكالب عليه رؤساء القبائل وخاصة

عرب تهامة فوقعت بينه وبينهم عدة معارك حتى دبر الملك الاشرف حيلة للتخلص منهم أشبه ماتكون بتلك التي دبرها محمد علي للتخلص من المماليك ، فقد استدعى رؤساء القبائل سنة ٨٤٤ الى وليمة كبيرة فلما أخذوا مجالسهم ليأكلوا انهال عليهم جنده بالسيوف فضرب في السماط من رؤسائهم نحو أربعين شيخا ثم توفي الاشرف سنة ٨٤٥ فخلفه أخوه المظفر يوسف بن المنصور ، وقد استفحل شأن العبيد وأصبحوا يتحكمون في الدولة فولَّوا الحكم شخصا يدعى محمد بن اسماعيل بن عثمان من آل رسول وقوي شأنه بهم حتى استدعى الملك المظفر عامله الامير علي بن طاهر للتخلص من منافسه فاستطاع القبض عليه وأودعه سجن تعز • وما زال العبيد في تمرداتهم ومالوا الى نهب أموال زبيد وغلاتها ثم انحدروا الى (حيس) وكان فيها أحد أمراء آل رسول مسجونا وهو أحمد بن العباس فأفرجوا عنه وولوه الملك فعاد الى زبيد وأمر العبيد بنهب المدينة وازداد الهرج والفوضى حتى لقب بعد ذلك بالامير الجائر ، ثم مال عنه الجند الى شخص آخر من آل رسول هو المسعود الذي ختمت به الدولة الرسولية وولوه الحكم سنة ٨٤٧ والدولة الرسولية تحتضر فلم يمكث في الملك سوى سنوات قليلة حتى قام عمال الدولة الرسولية بنو طاهر بالانتفاضة على سادتهم وتمكنوا من القضاء على الدولة الرسولية سنة ٨٥٨ •

وكما كان انقضاء الدولة الايوبية على أيدي عمالهم بني رسول كذلك ماتت هذه الدولة على أيدي عمالهم بني طاهر ومن المصادفات العجيبة أن آخر ملك في الدولة الرسولية يسمى المسعود وكذلك آخر ملك من ملوك الدولة الأيوبية يسمى المسعود أيضا •• فلست أدري اذا كان هذا السعد هو نحس عليهم وسعد لخصومهم أم الأمر بالعكس •

* * *

الدولة الرسولية بين يدي التاريخ

أسس ملوك بني رسول دولة وراثية تعتمد على ولاية العهد ، فكان هذا أحد العوامل التي ساعدت على اندحارها حيث ورطت الناس في معارك طاحنة أتت من قبل المتنافسين على الحكم في حين كان الاستكثار من المماليك واستقدامهم من خارج البلاد عاملا آخر في الفت في عضد الدولة واضفاء الصبغة الاجنبية لدولة بني رسول .

وقد كان على الدولة الرسولية أن تستفيد من الدرس الذي تركته الدولة الايوبية في اليمن . حيث تلاشى شأنهم بسبب الاعتماد على قوى أجنبية . الا أن مؤسس الدولة الرسولية عمر بن علي الرسولي كان لايزال مشبعا بالفكرة الايوبية اذ كان هو نفسه أحد القادمين الى اليمن ، وقد كان على منهج أسلافه في الاعتماد على غير القوى الوطنية . وعلى هذا السنن سار كل من أتى من بعده من الملوك حتى أصبح استقدام الغرباء الى اليمن علامة خاصة بالدولة الرسولية . وفي هذا الصدد يقول العمري إن : « صاحب اليمن أبدا يرغب في الغرباء ويحسن تلقيهم غاية الاحسان ويستخدمهم فيما يناسب كلا منهم »[1] . وأفرطت الدولة في ذلك حتى أصبح أعداؤها يطلقون عليهم دولة التركمان ولم يغن عنهم قولهم في الانتساب الى الغساسنة اليمنيين . ولو أنهم ركنوا الى الشعب في تأييد حكمهم لمكثت دولتهم أكبر قدر ممكن من الزمن .

وقد حملت أخلاق ملوك بني رسول جانبا آخر من العادات والتقاليد المستوردة كان لها أثرها الفعال في تطعيم الدولة الرسولية بعادات وأخلاق جديدة لم يكن للبلاد عهد بها من قبل فقد تشبه أولا ملوك الدولة الرسولية بملوك مصر من

---

(١) العمري . مسالك الابصار ص ٤٧ .

المماليك المعاصرين لهم وحرصوا — كما هي العاده عند أولئك الملوك — على شهوانهم وملاذهم حتى أصبحت « أوقاتهم مقصورة على لذاتهم والخلوة مع حظاياهم وخاصتهم من الندماء والمطربين ولا يكاد السلطان يرى بل ولايسمع أحدا من أهل اليمن له على الحقيقة خبرا »[1] • في حين ولع أكثر ملوكهم بشرب الخمر وتجاهروا به منذ ملكهم الاول المنصور بن علي الذي « جاهر بشرب الخمر والسكر في ديوانه حتى كان يعقد لمجلس الشراب يوما معلوما »[2] وهذا أمر كبير في اليمن لم يكن لأهله عهد به من قبل •

أما خلفاؤه فهم نماذج مختلفة من جدهم في حين أصبح شأن الدولة متوقفا على أهوائهم فيعزلون من أرادوا ، ويولون من أرادوا ، وقد كثرت الوشايات والمصادرات بسبب ذلك وعمت الدسيسة بين الوزراء والرؤساء حتى حمل الهوى بعض ملوكهم الى أن يصادر أحد وزرائه ليحظى بزوجته[3] •

على أن الفرص كانت مواتية للدولة الرسولية في تأسيس دوله نظامية ضخمة ترفع من شأن اليمن بين الاقطار المجاورة وتطل برأسها على العالم الخارجي بعد ان كانت مغلقة على نفسها ردحا من الزمن ، وقد نشطت السياسة الخارجية في ذلك الوقت وتوالت الوفود من قبل الحكومات القريبة والبعيدة تطلب ود المملكة اليمنية فجاءت رسل ملك الحجاز ومصر وبغداد والهند حتى انتهى الامر إلى أن يبعث ملك الصين بسفرائه إلى ملك اليمن يوصيه بالرفق في رعيته[4]•

وكانت مصر من أكثر الدول صلة باليمن ومنذ انفصال اليمن عن الدولة المركزية في مصر في عهد بني أيوب توترت العلاقات بينهما في أول الامر الا أنها سرعان ما عادت الامور الى مجاريها بعد ذلك ويزعم العمري أن ملك اليمن يتقرب الى

(١) المصدر السابق ص ٥٦ •
(٢) يحيى بن الحسين • أنباء الزمن (مخطوط) •
(٣) ابن الديبع قرة العيون . ج ٢ ص ١٢٩ •
(٤) يحيى بن الحسين • غاية الاماني ص ٥٦٥ •

صاحب مصر بالمهاداه خشية التسلط عليه من جهة البر والبحر [1] وهذا بعيد عن الواقع لأن في مصر في ذلك الوقت مايجعلها تحجم عن التفكير في غزو اليمن. وغالبا ما التجأت اليمن الى مصـــر للاستعانه بها في بعــض الشؤون الاداريه والعسكرية وكتب ملك اليمن المظفر الى السلطان بيبرس يطلب منه أن يســده بجماعة من الاطباء وربما بعث الملك المؤيد الى مصر من يبحث له عن المخطوطات النفيسة فيكافىء عليها بمئات الدنانير[2] . وكانت أغلب هدايا ملك اليمن الى صاحب مصر من التحف الثمينة من المضبات على اختلاف أنواعها كالطشوت والاباريق والمجامر وسوارى العود والصندل والقطع الكبار من العنبر والمسك والفخار الصيني والزبادي الى غير ذلك[3] وقد احتفلت مدينة زبيـــد احتفـــالا كبيرا عندما علمت بانتصار المصريين سنة ٧٠٣ على التتار بمرج دابق « ودقت الطبول وأعلن السرور والبشائر وخرج أعيان الدولة الرسولية بأسرهم مـــن الوزراء المتقدمين يتلقون السفير المصري »[4] . وقال الاديب اليمنى ادريس ابن علي مشيرا الى هذه المناسبة :

لم تأتك الرسل من مصر وساكنها الا مؤدبـــة حقـــاً لكم يجـــب

اما الهند فتأتي في الدرجة الثانية بعد مصر فى علاقتها مع اليمن ، وكان ملك الهند يجل اليمن ويعبر عن ذلك الاجلال بالعديد من الرسل والهدايا ، ففي سنة ٧٧٠ هـ بعث صاحب « كالكوت » بهدية فخمة عبارة عن طيور غريبة وأشجار لم تكن توجد في اليمن وفي سنة ٧٩٥ بعث برسالة الى ملك اليمن يشرح فيهـــا تقديره واحترامه ويعلمه بذكر اسمه على منابر الهند فى خطبة الجمعة .

وهكذا كانت العلاقات حسنة للغاية بين اليمن وجاراتها ، وقد زادها توثقاً التجارة الجارية بين الهند ومصر واليمن وانفتاح موانىء اليمن لاستقبال التجار

(١) العمرى مسالك الابصار ص ٤٧ .
(٢) ابن حجر العسقلاني . الدرر الكامنة ج ٢ ص ١٠٠ .
(٣) العقود اللؤلؤيه ج ١ ص
(٤) المصدر السابق ج ١ ص ٣٤٨ .

على مختلف أجناسهم حتى أصبحت البلاد مقصدا لكل مرتاد ورحالة.

وعلى المستوى الداخلي فقد شهدت البلاد نهضة عمرانية ضخمة لم تعرفها اليمن في عصر من عصورها السابقة حيث أسست المرافق العامة والمدارس الكبيرة والقصور الضخمة التي يقف عند عظمتها ملوك مصر وغيرهم من الملوك المعاصرين للدولة الرسولية ومن أهم هذه القصور التي أنشأتها الدولة الرسولية قصر « المعقلى » الذي يقول في وصفه أحد من شاهده « أجمع أرباب الاسفار في الآفاق انه لا مثيل له في شام ولا عراق وانهم لم يشاهدوا مثله أبدا وهو مجلس طوله خمسة وعشرون ذراعا بسقفين مذهبين بغير أعمدة وله أربعة مناظر بأربعة رواشن ليس فيه الا رخام وذهب وأمامه بركة طولها مائة ذراع في عرض خمسين ذراعا على حافتها تماثيل طور ووحوش من نحاس ترمي الماء من أفواهها .. الخ .» وصف الخزرجي[1] .

وهذا القصر واحد من عدة قصور كبيره اعتنت الدولة الرسولية باشادتها حتى بلغ مجموع ما أنشأته من العمائر نحو مائتين وثلاثين موضعا[2] .

أما السبل الخيرية والصدقات فهي كثيرة جدا وقد أفردت الدولة لضيافة الغرباء وغيرهم بيوتا خاصة تعنى باستقبال الضيوف كالدار الذي أنشأها المظفر لاطعام الواردين ، وكان مجموع مايطبخ فيه كل يوم قدر حمل جمل من الطعام هذا عدا اللحم والتمر[3] .

* * *

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٣٧٧ .
(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٤٤ .
(٣) المصدر السابق ج ١ ص ٢٧٦ .

الادارة الحكومية

كانت حكومة بني رسول تقتفي في أسلوبها النمط المملوكي في مصر ، ولا يزال ملك اليمن ينحو في أموره منحى صاحب مصر يتسمع أخباره ويحاول اقتفاء آثاره في أحواله وأوضاع دوله[1] » وتلك عبارة العمري نستشف منها مغزى تاريخيا كبيرا حيث يظهر لنا جليا أن ملوك بني رسول قد حملوا معهم أنماطا جديدة جلبوها معهم من مجتمعاتهم الاولى مصر والشام والعراق فهم دائما يحنون الى تلك العادات ويستظهرون ماجد منها في مناطقها الرئيسية ، وقد اعتمدوا في أول أمرهم على الخبرات العربية القادمة من خارج اليمن وقد وصل اليهم جمع كبير من كتاب الدواوين والخبراء في الشؤون الادارية والعسكرية ومن هؤلاء الذين كان لقدومهم أثر فعال الخبير العسكري علاء الدين كشتغدي القادم الى اليمن سنة ٧٢٨ ذكر عنه ابن عبد المجيد انه « رتب الجيش اليمني على قاعدة الجيوش المصرية »[2] . وهذا نموذج واحد من عدة نماذج .

وقد أدخلت طرق جديدة على الادارة الحكومية وخصصت لها الوظائف والمكاتب العديدة التي لم تكن معروفة من قبل ، وقد قارن المؤرخ العمري في القرن الثامن الهجري بين الادارة المملوكية في مصر والادارة الرسولية في اليمن فلم يجد هناك اختلافا كبيرا .

ومن الوظائف التي عرفتها الحكومة الرسولية وظيفة كاتب الانشاء وهي وظيفة هامة تقلدها جماعة من كبار الأدباء والكتاب كالأديب تاج الدين عبد

(١) العمري . مسالك الابصار ص ٤٧ .

(٢) ابن عبد المجيد اليماني : بهجة الزمن ص ١٣١ .

الباقي بن عبد المجيد اليماني وابن فليته وغيرهما وكان الملك الرسولي اذا عناه أمر للكتابة طلب الكتاب وأملى عليهم مضامين مايحتاجه ثم يقوم الكاتب بصياغته انشائيا وليس بأيدينا نموذج مما كان يدونه كتاب الانشاء في ذلك الوقت سوى نص واحد ذكره صاحب صبح الأعشى وسننشره فيما بعد .

وقد احتفظت لنا كتب التاريخ بتراجم العديد من أولئك الكتاب فكان أغلبهم من القادمين الى اليمن كالكاتب الاديب أبو مظفر موسى بن الحسين المصلي المتوفى في سنة ٦٩٩ يصفه الجندي[١] بأنه « من كرام الناس بحيث لم يكن فيمن وصل من مصر يشابهه في الغالب علما وأدبا . وجاء معه من مصر كاتب الانشاء الاديب ناصح الدين المنتجي وهو كسابقه من حيث الخبرة في حسن الانشاء وقد ترك مصنفا حافلا ضمنه .. قواعد الدواوين السنية ونظام الضرائب والرسوم ومن الكتاب في ذلك العصر الاديب تاج الدين بن عبد الباقي اليماني الآتي ذكره ان شاء الله ، ومعاصره أبو محمد الحسن بن نصر بن مختار الدولة القادم الى اليمن في عهد المجاهد وغيره كثيرون تركناهم لأجل الاختصار وأغلبهم من مصر وقد رسخوا في اليمن قواعد كتابة الانشاء وقوانينها حتى أصبح يتعاطاها جماعة من أساطين الادب في اليمن ومن طريف مايروى عن كتابة الانشاء في العصر الرسولي ان الملك المظفر بعث برسالة الى الحبوظي سلطان ظفار يهدده بالغزو واستشهد في آخر الرسالة بقوله تعالى : (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب) الآية ، فجاء كتاب الحبوظي بجواب شاف وفي آخرها قوله تعالى (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا فيذرها قاعا صفصفا لاترى فيها عوجا ولا أمتا) [٢]. وهذه الوظيفة قدمنا ذكرها لصلتها بما نحن بصدده من تاريخ الادب اليمني .

ويعدد العمري الوظائف الحكومية في عصر بني رسول فيحصرها في سبع

---

(١) الجندي : السلوك ص ٣٦٣ (مخطوطة كوبرلى) .
(٢) بامخرمة . تاريخ ثغر عدن ص ٢١٠ .

وظائف هي : وظيفة النائب والوزير والحاجب وكاتب السر وكاتب الجيش ووظيفة ديوان المال وشاد الولاية[1] وهي وظائف مختلفة • فأما وظيفة النائب فهي درجة كبيرة وغالبا ما يتولاها أحد كبار القادةالعسكريين أو بعض أقارب السلطان وعمله يتعدى كل اختصاصات السلطان الرسمية كالتوقيع على الاحكام وغيرها وكان يتولى هذا المنصب الهام في عهد المؤيد جمال الدين يوسف بن يعقوب بن الجواد وفي عهد المجاهد تولاه الامير عز الدين هبة بن محمد بن منصور • وتليها في الدرجة مباشرة وظيفة الوزارة وبعضهم يخلط بينها وبين النيابة الا أنهم في اليمن قد جمعوا بينها وبين منصب القضاء العام فخلطوا بين الحكم المدني والحكم الشرعي كما حدث في مصر عندما ولي القاضي عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن بنت الاعز منصب القضاء والوزارة في وقت واحد خلال القرن السابع الهجري وأول من جمع بين هذين المنصبين في اليمن الوزير القاضي بهاء الدين محمد بن أسعد العمراني المتوفى سنة ٦٩٥ • يقول الخزرجي : « هو أول من جمع له الوزارة والقضاء باليمن في الدولة المظفرية وبعده القاضي موفق الدين علي بن محمد اليحيوي في الدولة المؤيدية والمجاهدية ثم القاضي وجيه الدين عبدالرحمن ابن علي بن عباس في الدولة الاشرفية »[2] ويذكر الجندي أن الناس كانوا يمقتون القاضي بهاء الدين العمراني لجمعه بين هذين المنصبين[3] وما ترتب عليه من مفاسد وهذا الامر لم يحدث إلا في زمن المظفر وذلك لاقتناعه بكفاءة وزيره أو لأنه أراد أن يقلد حكومة مصر في ذلك الوقت بتولية قاضيها ابن الأعز الوزارة وكان هذا الوزير معاصرا للمظفر حيث توفي قبله بسنة واحدة[4] • أما في عهد والده المنصور فقد كانت الوزارة مستقلة عن القضاء وكان يتولى الوزارة في عهده القاضي الرشيد ذو النون المصري المتوفي سنة ٦٦٣ هـ وهو من بقايا رجال الدولة الايوبية

---

(١) مسالك الابصار ص ٤٩ •

(٢) الخزرجي · طراز أعلام الزمن ج ص ١٧٩ مكتبة كنج كولبج بلندن •

(٣) الجندي : السلوك ص ٤٦٢ •

(٤) الاعلام للزركلي ج ٤ ص ٨٨

في اليمن وقد وصلها بصحبة الملك المسعود[1] • ثم انفصلت الوزارة عن القضاء في أوائل القرن السابع بعد نكبة القضاة بني العمراني الشهيرة في كتب التاريخ اليمني وهي حادثة تذكرنا بتلك التي وقعت للبرامكة في عهد الرشيد وسببها أن الوزير حسان بن أسعد العمراني اتهم بدس السم للملك المؤيد بواسطة أحدعبيده فأمر المؤيد بسجنه مع أفراد جماعته من بني العمراني بعد أن طالبهم بحساب أموال اليتامى وغلل الموقوفات خلال نظرهم في القضاء ولما لم يجيبوه بشيء أمر بهم الى عدن وبنى لهم سجنا على باب دار الولاية • وكان القاضي حسان قد صودر بتعز مصادرة شديدة وضرب ضربا مبرحاهووابن أخيهعمران بنعبد الله ابن أسعد حتى شفعت فيهم بنت أسد الدين زوجة المؤيد فأقاموا بتعز أياما ثم سكنوا اسهفنة بعد أن رهن عبد الله بن أسعد ابنه عمران ورهن حسان بن أسعد ابنه محمد وبعد وفاة بنت أسد الدين قام المؤيد المجاهد بمصادرتهم مرة أخرى وقبض عليهم وهم في سهفنه وانزلوا الى عدن فطرحوا في سجن ضيق قد أحدثه لأجلهم ليس فيه نفس أبدا فأقاموا فيه ثلاثسنين وأربعة أشهر توفي خلالها القاضي حسان بن أسعد العمراني سنة ٧٠٨ هـ حتى قدمت أخت المؤيد من ظفار وشفعت لهم عنده فأمر باطلاقهم من السجن على أن لايخرجوا من عدن[2] • فهذا خبر مصادرة القضاة لبني العمراني ذكرناه لصلته بموضوع الوزارة الذي نتحدث عنه هنا •

والوزارة منصب هام في الدولة الرسولية له تقاليده الخاصة كرفع الدولة وعقد الطيلسان وركوب البغلة ذات الزنار[3] الى غير ذلك • ولا يكون توليها إلا بمنشور رسمي يقرى في (دار الضيف) أحد الدوائر الرسمية للدولة وهذا يدل

---

(١) تاريخ ثغر عدن ص ٧٧

(٢) أنظر تفاصيل نكبة القضاة بني العمراني في السلوك ص ٤٤٢ وبهجة الزمن، ص ١٠٤ •

(٣) العقود اللؤلؤية ج ٢ ص ٤٢٥ •

على أهسيه هذا المنصب كما أسلفنا[1] • وهناك وظائف حكومية أخرى لا تقل خطوره عن درجة النيابة والوزارة كأتابكيه العسكر وكان يتولاها في عهد المجاهد النرف بن حياحر الى غير دلك من مناصب حكومية حملت بها الدولةالرسولية[2] •

أما الوظائف الادارية فقد مر بنا منصب كتابة الانشاء ويعده يأتي في الاهمية مناصب العمال وولاة المجابي ويطلق عليهم الشداد وهؤلاء السداد هم أكثر رجال الدولة اتصالا بالشعب وربما قسا بعضهم على المزارعين وتأذت منهم الرعية فيكتب أحدهم الى السلطان في أمر ذلك الوالى • وقد حدثنا الجندي في أكثر من موضع من تاريخه عن قسوة أولئك الشداد وأذيتهم وقد أرسل أحد الشداد عسكره الى الفقيه الصوفي بدر بن أحمد الغبثي لأخذ ما عليه من ضرائب

---

(١) وقد حدثنا صاحب تاريخ الدوله الرسوليه المجهول. الكثير عن هؤلاء الوزراء وذكر منهم جمال الدين محمد بن حسان • تولى الوزارة سنة ٧٦٤ وتوفي سنه ٧٧٣ (انظر تاريخ الدولة الرسولية ص ٢٨) •

ومنهم وجيه الدين النظاري وزير الدولة الاشرفيه (المصدر نفسه ص ٤٠) •

ومنهم وجيه الدين عبد الرحمن بن عباس تولى الوزارة سنه ٧٨٧ ووفاته سنه ٧٩٠ (أنظر المصدر السابق ص ٤٣ و ٤٧) •

ومنهم أحمد بن عمر بن معيبد (المصدر نفسه ص ٩٩) •

ومنهم جمال الدين بن محمد بن أبي بكر بن اسحاق توفي سنة ٨٣٢ •

ومنهم وجيه الدين عبد الرحمن بن على بن جميع (المصدر نفسه ص ١٤٢) •

ومنهم أحمد بن ابراهيم المحالبي توفي سنه ٨٣٥ (ص١٧٨) •

ومنهم يوسف بن أحمد العراف تولى الوزاره سنة ٨٣٨ (ص ١٧٦) •

وقد أخضع الظاهر الملك كافة موظفي الدولة لهذا الوزير بمنشور أصدره سنة ٨٣٨ يقول صاحب التاريخ المجهول ص ١٧٦ : «ورد المرسوم العالى على كافة القضاة والعمال والمشدين والكتاب وسائر الجند المنصور بالباب الشريف بأن يمسوا في خدمة مولانا سيد الوزراء شمس الدين يوسف بن أحمد العراف من الباب الشريف الى سنه ثم أمر مولانا السلطان أن يكتب منشورا ويقرى على سائر المنابر بأنه وزير الوزراء والمقلد لأمر الدولة والدواوين جميعا في أعمال اليمن وأن يرفع الناس حوائجهم اليه وكساه السلطان نصره الله وأنعم عليه وذلك نهار الخميس ١٢ ذي القعدة سنة ٨٣٨ » •

فنفهم من هذا النص القيم كافة سلطات الوزير في الدولة الرسولية •

(٢) ومنها أنهم قسموا الجند الى عده أقسام كقسم سمي عبيد السلاح (انظر المصدر السابق ص ٨٧) • وقسم سمي عبيد الحنكة (نفسه ص ٨٤) وعبيد اللوى (نفسه ص ٨٧) والنيفاليين ص ٩٢ • وأغلب هؤلاء طوائف متمردة من الجند يكون أفرادهم من الاجانب •

فوجدوه في مزرعته يحرث أرضه فجرى بينه وبينهم منازعة انتهت بقتله[1] .

ونادرا مايتفقد السلاطين أحوال الشعب ويبعدون عنهم حيف الولاة والعمال وربما تحكم عامل صغير في رقاب مجموعة من الفلاحين وفرض عليهم ضرائب لم تأمر بها الدولة . وكان الملك المظفر « اذا اشتكى اليه أهل جهة عاملا من العمال أو كاتب من الكتاب عزله عنهم ولايعيده . وهذا الملك نادرا مايتكرر وجوده في الدولة الرسولية وقد بلغ من تحريه انه اذا وجد خراج جهة من الجهات زاد عن المعتاد سأل عن سبب ذلك فاذا كانت الزيادة من وسيلة ابتدعها العامل أدبه أدبا بليغا وصرفه عن ولايته »[2] .

وربما طلب عمال الدولة الرسولية من الفلاح المسكين أن يدفع في أوقات الغلاء وارتفاع الاسعار نفس المقرر الذي كان يدفعه في أيام الرخاء وهذا ماحدث سنة ٧٣٦ حتى تركت الرعية وادي زبيد وتفرقوا في أنحاء اليمن ووصل الخبر الى الملك المجاهد فطلب حضور جماعة من أعيان المزارعين وسألهم عن سبب هروبهم فقالوا : « انّا نشكو من سعر ذي الحجة فقال السلطان وما سعر ذي الحجة قالوا صرنا نطالب بما يتوجب علينا للدولة من كل محصول في وقت الضرائب ووقت رخص الاسعار ولكنهم يطلبون سعر السنة الماضية وقت ارتفاع الاسعار وقلة الطعام فلا يأتي المد الا بعدة أمداد كثيرة والذي يجب علينا للدولة انما هو طعام من نفس مازرعناه أو ثمنه فهذا الامر الذي أضر بنا . فقال السلطان هذا

---

(١) الشرجي طبقات الخواص ص ٤٤ والاهدل تحفة الزمن ج ٢ ص ٨٥ (مخطوط) . وما دمنا بصدد الحديث عن الشداد فلا بد أن نشير الى بعض أسماء هذا المنصب واسماء ولاتهم فقد ذكر صاحب التاريخ المجهول أسماء عده منهم :
منشد الجلال السعيد تولاه عبد الرحمن العلام سنه ٧٩٣ (نفسه ص ٥٣) .
وتولاه القاضي رضي الدين أبو بكر أحمد بن معيبد (نفسه ص ٦٩) .
ومنهم منشد الشدين تولاه شرف الدين اسماعيل بن عبد الرحمن العلوي سنه ٨٠٨ .
ومنهم منشد زبيد . تولاه احمد بن ابراهيم المحالبي سنة ٨٣٢ (نفسه ١٢١) .
ومنهم مسد المهجم تولاه جماعة منهم جما ل الدين الطيب بن مكاوش (ص١٢٦) .
ومنهم مسد لحج تولاه وجيه الدين عبد الرحمن بن اسحاق سنة ٨٣٧ .
(٢) العقود اللؤلؤيه ج ١ ص ٢٧٨ .

والله ظلم بيّن ولا لوم عليكم إذا هربتم »(١) ثم أمر بكتابة منشور يلزم إنصاف الفلاحين • على أن الضرائب على الفلاحين في العصر الرسولي لاتخضع لقاعدة واحدة وربما ألغى الحاكم الجديد ما سنه الحاكم السابق • ففي عهد السلطان الافضل سن ضريبة خاصة على « العطب » القطـن فيأتي الاشرف ويبطلها(٢) وربما تزيد بعض الضرائب على أهل منطقة معينة وتسـقط عن منطقة أخرى حسب هوى الملك كما فعل الاشرف سنة ٧٨٤ عنـدما خفف الضرائب على أهل جهات « المأوى والبقربين والريان ونابط ومبرح والنقض والبداني »(٣) وهي جهات في وادي زبيد وكذلك فعل مع أهل صبر

وقد وضع أحد علماء الدولة الرسولية(٤) كتابا مستقلا في ضرائب الدولة الرسولية والاماكن التي تؤخذ منها الجبايات ومن خلال فصوله يتضح لنا أن الدولة الرسولية كانت تقسم المناطق التي تؤخذ منها الضرائب الى أقسام هي:

١ ــ قسم البلاد الجبلية وتحتوي على جهتين :

أ ــ الجهة الاولى وهي الجبل الاعلى وتسمى البلاد العليا وهي طولا من شرقي حضرموت الى بلاد الطويلة وشرق ملحان غربان وعرضا من حقل قتاب جنوبا الى بلد بينه • وفي هذا الكتاب مبلغ ما يأتي من خراجها •

ب ــ الجهة الثانية وهي المعروفة باليمن الاخضر وهي مدورة الشكل ولها من الاعمال الجهة اليحصبية وريمان وبني سيف وبني شرجة الخ ••

٢ ــ القسم الثاني البلاد السهلية وهي تهامة وتوابعها •

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٦٦ •
(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ١٧٢ •
(٣) المصدر السابق ج ٢ ١٧٤ •
(٤) هو الحسن بن علي الحسني أحد كتاب الدولة الرسولية وكتابه سمي (ملخص الفطن والألباب ومصباح الهدى للكتاب) يبحث حول نظام الضرائب والادارة في الدولة الرسولية وقد عثر على مخطوطته الوحيدة في اليمن وهي محفوظة بمكتبة ميلانو بايطاليا •

٣ ـ القسم الثالث البلاد الساحلية والتي توجد فيها الموانىء .

وقد استعان الشداد في أخذ الجبايات بنظام الاحصاء بغية الحصول على ضرائب شاملة دقيقة وقد سنّ هذا النظام الملك الاشرف فكان يبعث كل سنة جماعة من الفقهاء يقومون بعد النخل بزبيد ومن بعده سار على هذه الطريقة كل من تلاه من الملوك ففي سنة ٧٧٩ أرسل الملك الاشرف الثاني من يقوم باحصاء النخل وكانوا في الغالب يقتصرون على احصاء النخل لان هذا النوع من الاشجار يتجدد من حين لآخر زد على ذلك أن النخل كان هو السلعة الجيدة في مجتمع زبيد وقد حمل تقصي العداد للنخل ومضايقاتهم الزراع الى أن يتلف بعضهم نخله تجنبا لشرهم .

وقد حمل لنا الادب اليمني صورا متعددة من تذمر الناس من أولئك الشداد فهذا الصوفي الكبير أحمد بن علوان يبعث برسالة حامبة الى الملك المظفر يستنكر فيها استحداثه تلك الضرائب التي لم يأمر بها ديننا الحنيف ويقول في آخرها شعراً :

هذي تهامة لا دينار عندهم ... ولحج أبين بل صنعاء بل عدن
فما ذنوب مساكين الجبال وهم ... جيران بيتك في الاخلاق والسكن
والأضعفون فما يقتات أجزلهم ... الا بما جرت المسحاة والحجن
فانظر اليهم فعين الله ناظرة ... هم الامانة والسلطان مؤتمن
عار عليك عمارات متسيدة ... وللرعبة دور كلها دمن
لا تفخرن بجمع المال كيف أتى ... حاشاه عقلك عقل راجح زمن

أما ابن المقري فانه يبعث بقصيدة الى الملك الناصر أحمد بن اسماعيل يسكو على لسان أهل زبيد مشداً قال له ابن الزنبول :

هم الرعايا العبيد الطائعون هم ... وأنت أنت المطاع السيد الملك
فلا تكلهم الى من ليس يرحمهم ... ولا يرى هلكهم أمرا به درك

وكسب مرة أخرى على لسان أهل لحج يشكو فيها من أحد العمال :

رعية لـك في لحـج بصرت بهم ... لهم وجـوه تقاها ظاهر فيهـا
تندى حيـاء وتحميها سكينتها ... عن التكلثم فيمـا ليس يعنيهـا
يشكون من كاتب يغري بسلبهم ... نعمـاء أنت بحمـد الله كاسيها

وما دمنا بصدد الحديث عن وظائف الدولة فلا بد أن نقف عند القضاء وهو درجة عالية من الوظائف الحكومية تأتي في الاهمية بعد الوزارة وقد جمع بعضهم بينهما لعظم المنصبين • وقد كان القضاء في اليمن هو الواسطة الوحيـدة بين جماعة الفقهـاء ورجال الدولة وغالبـا ما كانوا يتورعون عن مخالطة الحكام والامراء لأسباب تعود الى سلوك أولئك الناس من التهاون في أمور الدين وظلم الناس حتى أن الجندي مع انخراطه في سلك وظائف الدولة نجده يحرص كل الحرص على عدم مخالطة الامراء واصحاب الدواوين وربما وصمهم بشـرب المسكر وعدم المبالاة بحقوق الناس وهذا عام في سائر الفقهاء والعلماء المعاصرين للجندي في القرن السابع •

ولما كان القضاء له صلة وثيقة بالدولة كان من الصعوبة بمكان أن تحصل الدولة على فقهاء يتـولون هـذا المنصـب الهام إذ الصـفوة منهم لاتكـاد تستجيب لمطالب الدولة في تولي هذا المنصب الهام حتى ان كثـيرا من الفقهاء أكره على تولي هذا المنصب والبعض منهم هرب من البلاد خوفا من تكليفه بهذا العمل • • بل بلغ التورع ببعضهم أن آثر السجن على تولي القضـاء[1] والذين تولوا القضاء كانوا على حذر كبير حتى انهم اعتبروا هذا المنصب من المحـن الكبيرة التي أصيبوا بها ولهذا نجد الكثير منهم قد وقعوا تحـت أعباء ديون باهضة نتيجة التحـري في ارجاع الاموال لأصحابها والتدقيـق في القضـايا الوراثية[2] • وكان من أكبر الفقهاء الذين تولوا هذا المنصـب الخطير الفقيه

(١) العقود اللؤلؤيه ج ١ ص ٧٠ •
(٢) السلوك ص ٢٨٠ •

العلامة اسماعيل بن محمد الحضرمي وكان الملك المظفر قد ولاه القضاء العام فقام بذلك أتم قيام وكان لابولي أحدا القضاء في المناطق الا من تحقق صلاحه وورعه • ويقال أنه عزل نفسه عن القضاء لما رأى الملك المظفر تساهل في إبطال الخمور وكان دائما مايكتب الى المظفر في خزف شقف (يا يوسف كثر شاكوك فقل شاكروك فإما عدلت وإلا انفصلت)[1] • ومن شدة تحـريه أنه وجد عند أحد من ولاة القضاء ثيابا فاخرة وأشياء لم يكن يعهدها عنه من قبل فسأله عن ذلك فقال هذا من بركاتك يا أبا الذيح فقال ذبحني الله ان لم أعزلك • فعـزله واعتزل عن القضاء خلافا للرواية السابقة •

وقد قام القضاء في اليمن كهيئة مستقلة ليس للدولة دخل فيها الا من خلال تطبيق الاحكام • وربما حدثت بعض المصادمة بين صغار الامراء والقضاة فتتدخل الدولة لصالح القضاء كما هو الحال في الحادثة التي ذكرها الخزرجي في حوادث سنة ٨٠٠ يقول : وفيها اختصم رجلان عند والي زبيد فطلب أحدهم حكم الشريعة المطهرة فمنعه الوالي من ذلك فاستغاث بحاكم الشريعة فعجز عن استنقاذه فكتب القاضي الى السلطان يشكو من الوالي تعديه على حكم الشريعة فأمر السلطان حينئذ من تقدم الى الوالي وأخرجه من سه الى بب حاكم الشريعة ثم تقدم السلطان الأشرف وشتم الوالي ووبخه توبيخا شديدا[2] • وهذا يدل على إعزاز السلطان للقضاء والشريعة •

ويقوم القضاء في الغالب على نظام تسلسلي يبتدي من القاضـي العام أو قاضي القضاه وهو بدرجة وزير العدل الآن الى صغار القضاه الموزعين في سائر المناطق اليمنية على مختلف انحائها وقد تولى ولاية القضـاء العام في الدولة الرسولية جماعة من المسؤولين وهم :

١ ــ أبو الذبيح اسماعيل بن محمد الحضرمي المتوفى سنة ٦٧٥ •

(١) الشرجي طبقات الخواص ص ٧٤ •
(٢) العقود اللؤلؤية ج ٢ ص ٣٠٢ •

٢ ـ بهاء الدين محمد بن أسعد العمراني المتوفى ٦٩٥ .

٣ ـ محمد بن أحمد بن محمد اليحيوي المتوفى ٧١٢ .

٤ ـ رضي الدين ابو بكر محمد بن أحمد بن عمر بن الادبب المتوفى ٧٢٥ .

٥ ـ محمد بن احمد اليحبوي المتوفى سنة ٧٢٧ .

٦ ـ علي بن أحمد الجنيد المنوفى سنة ٧٥٣ .

٧ ـ عبد الاكبر بن أحمد الجنيد المتوفى سنة ٧٥٤ .

٨ ـ محمد بن أحمد بن صقر الدمشقي المتوفى سنة ٧٨٥ وهو أول من تولى منصب القضاء العام من العلماء الوافدين الى اليمن .

٩ ـ جمال الدين محمد بن عبد الله الريمي المنوفى ٧٩٢ .

١٠ ـ ثم ظل منصب القضاء العام شاغرا حتى قدم الى اليمن العلامة اللغوي مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي سنة ٧٩٦ فأعطي منصب القضاء واستمر فيه حتى وفاته سنة ٨١٧ .

١١ ـ أحمد بن أبي بكر الرداد المتوفى سنة ٨٢١ وولي القضاء نحو سنة. وكان يطمع في تولي هذا المنصب اسماعيل بن أبي بكر المقري فلم يتم له ذلك.

فهؤلاء مجموع من تولى منصب قضاء الاقضية في الدولة الرسولية ويتلوهم جماعة من صغار القضاة تولوا الحكم في بعض المدن اليمنية ويكون توليتهم في الغالب باشراف قاضي القضاة وفي بعض الاماكن النائية التي يقل فيها العلماء وحكام الشرع يكون البت في قضاياها بالتصالح لعدم وجود من يحكم بينهم وهذا ما يسميه الجندي الحكم بالتراضي[1] وله أصل من العادات والتقاليد السائدة بين القبائل حتى ان ابن المجاور في القرن السابع يعمم هذه القاعدة على

(١) السلوك ٣٤٦ .

سائر أهل اليمن والحجاز[١] ويطلق عليها اسم (المنع) وهو نظام يكون حسب الاعراف السائدة بين الناس وقد بقي من آثار هـذا النظام بقية حتى زمن الشوكاني المتوفى سنة ١٢٥٠ وقد حمل عليه في كتابه (العدو الصائل) وأطلق عليه اسم (حكم الطاغوت) .

وقد خصصت الدولة لمرتبات القضاة والمدرسين الجزية المأخوذة من اليهود وقدرها نحو ١٥ دينار[٢] على كل فرد لكن هذا المرتب عير كاف لسد حاجات القضاة مما اضطر بعضهم الى أن يشتغل بالزراعة بجانب القضاء وبعضهم تورط في الديون الكبيرة . أما صغار الكتبة فقد لجأ بعضهم الى أخذ الهدايا من المتحاكمين فيأخذ الموظف على كتابة السجل نحو خمسة دنانير وعشرة اخرى باسم القاضي[٣] وهذا يكون في زمن انتشار الفوضى وتخاذل الدولة ، والا فالقضاء في اليمن قد احتفظ لنفسه بصفحات بيضاء خالدة فهذا الفقيه عمر بن أبي بكر الهزاز المتوفى سنة ٦٤٤ كان قد ضرب للناس المثل الاعلى في ورعه ونزاهته وكان من عادته اذا مات أحد من الناس أعلن عن تركته ومخلفاته في جامع تعز زيادة في التحري والورع وكان الفقيه محمد بن علي بن أبي الخل لما ولي قضاء الاقضية باليمن في عهد المظفر رفض أن يقبل مرتبه الشهري وانما كان يصرفه في الانفاق على المصادرين وصغار الكتاب . ومن القضاة في ذلك الوقت من حكم على السلطان في قضية مشهورة[٤] .

* * *

(١) ابن المجاور : المستبصر ٩٩ .

(٢) السلوك ص ٢٩٣ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) تاريخ البريهي حيث يذكر قضية مشرفة للفقيه محمد بن أبي الخياط قاضي تعز .

حياة المجتمع

يذكر ابن المجاور في القرن السابع عن أخلاق زبيد أنها أقرب الى الرقة واللطف فهم يميلون الى الملابس النظاف والمراكب الوطيئة وشم الطيب ويقول ان معظم رجالهم يتغانجون في حديثهم ويتمايلون الى غير ذلك[١] وقد اكتمل في مدينة زبيد كل مقومات المجتمع الكامل وهم يشبهون في ذلك أهل مصر كما وصفهم المقريزي .

وقليل من المؤرخين من رصد أخلاق المجتمع اليمني في ذلك الوقت وعاداتهم . وفي النتف القليلة التي ذكرها ابن المجاور ـ على الرغم من مبالغاته ـ نستطيع أن نتعرف على كثير من العادات والتقاليد التي جهلها التاريخ فقد حدثنا عن عاداتهم في الزواج وطريقة بيعهم وشرائهم وعاداتهم في المأكل والاسماء والالقاب وغير ذلك وفي القرن الثامن رصد المؤرخ عبد الرحمن ابن محمد الحبيشي أخلاق أهل بلدة وصاب فحدثنا كثيرا عن المجتمع في ذلك الوقت وقد تميز أهل وصاب بإكرام الضيف حتى « الفقير منهم فانه يحب الضيف ولا يتضرر من اكرامه مع فقره بل يرهن من عقاره أو يبيع من ماله مايقري به ضيفه ويأنف من تقريب القليل ويؤنس الضيف بكثرة الترحيب»[٢]. ومن جملة أخلاقهم حرصهم على المروءة والشرف فان الرجل يفضل أن يقتل ولا أن يضرب أمام باب السلاطين وربما قدم للسلطان كل ما يملك على أن لايهان

(١) المستبصر ص ٧٠ .

(٢) الحبيشي . الاعتبار في التاريخ والمآثر (مخطوط) .

أمام الناس وكان الرجل منهم اذا خلف وعدا ونكث عهدا أسموه أعيب ويصاح عليه في الاسواق بذلك ويعم عاره كل أقاربه فلايجبر ذلك العار الا آن يجمع كل مامعه من الانعام ويذبحها أمام منزل الشخص الذي نكث عهده ويسمون ذلك « إنصافا »[١] • وحتى في زمن الحبيشي في القرن الثامن لا يوجد من يشرب الخمر في وصاب « فلا يعرف الخمر بها ولا أعلمُ أحدا منهم شربه بل لايوجد بها مخمارة واحدة »[٢] •

وربما أورثت وصاب من يسكنها الرقة « فأهلها رقاق القلوب ومن أقام بها من غير أهلها وجد في قلبه حالة لم يعهدها قبل اقامته فيها من الخشوع ورقة القلب »[٣] كما نسيزأهل مدينة عتمة بالذكاء المفرط وبخلافهم أهل السبانه من مدن وصاب حتى بلغ الأمر بأحدهم أن يصعد الجبل ويسدد بسهمه الى القمر لبصيده ويحكى عنهم أنهم رأوا القمر في بئر فظنوا أنه في أسفلها بين الماء[٤] الى غير ذلك من النوادر الكثيرة التي تروى عنهم •

وكان أعتى ما يصاب به المجتمع في ذلك الوقت هو ثورات القبائل والتنافس بينها وربما دخلت بعض القبائل المدن المسالمة وعملت فيها النهب والسلب حتى كاد يضمحل الامن والاستقرار ويحتمي الناس في بيوتهم[٥] • واذا كانت الدولة قوية فالامر على خلاف ذلك فحين كانت الدولة قوية في حضرموت كان ملكها السلطان عبد الله بن راشد الحميري يفتخر على سواه من ملوك اليمن بأن في مدينته تريم (ثلاث خصال تتميز بها : لا يوجد بها حرام ولا يوجد فيها سارق ولايوجد فيها محتاج)[٦] • ولكن سرعان مايختفي ذلك الحاكم الحازم فتضيع البلاد تحت تنازع القبائل وربما قامت بعض القبائل بالغزو المسلح لبعض القرى الآمنة وتخويف أهلها •

(١ و٢ و٣ و٤) • الاعتبار في التاريخ والمآثر (خ) •
(٥) طراز أعلام الزمن ص ١٦٢ والسلوك ص ٢٩٦ والمستبصر ص ٦٢ •
(٦) انباء الزمن ص ٣٢٠ •

واذا خرجنا من دائرة الحروب سنجد المجتمع اليمني في المدينة قد شهد تقدما ملموسا في التجارة والحياة المعيشية حتى زاحم الاغنياء بقصورهم قصور السلاطين والامراء ويكون في قصر الواحد منهم (حاشية من العبيد وعدد صالح من الاماء وعلى بابه جملة من الخدم والعبيد والخصيان من الهند والحبشة)[1].

كما أنهم تفننوا في صناعه الأطعمة حتى إنه يطبخ في منزل الرجل منهم عدة ألوان من الطعام «ويعمل فيها بالسكر والقلوب وتطيب أوانيها بالعطروالبخور[1]

وقد عدد الخزرجي من أنواع الحلوى المصنوعة في وقته عدة أصناف[2] .

كما كثرت الاعيـــاد الرسمية والنزه وكان الناس يرتادون في النزه بستان (ثعبات) وبستان (الراحة) في زبيد والبستان الشرقي وغيرها من النزه ويقول من شاهد بستان ثعبات : إنه يحتوي على قبة ضخمة فرشت بالرخام الملون وبه عدة أعمدة يجري فيها الماء » الخ.

وكانت تسلية الصيد هي النزهة المفضلة عند ملوك بنى رســـول وربما شارك بعض ملوكهم فيها كالملك الاشرف الذي قام برحلة صيد سنة ٧٩٧ وصاد مجموعة من حمر الوحش[3] . وقد اشتهر في هذا التاريخ نزهة « السبوت » حيث كان يخرج أهل زبيد الى ناحية النخل ويشاركهم في ذلك .. (الصغار والكبار بالطبل والزمر . بعدما يلبسون جملا عدة تامة من الاجراس والقلاقل ويشد على رقبته بالخيوط المزركشة)[4] ويخرج في هذه النزهة النساء وهم في

---

(١) العمري · مسالك الابصار ص ٥٥ ·

(٢) العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٢٣٢ ·

(٣) المصدر السابق ص ٢٧٢ وانظر السمط الغالي الثمن ففيه الكثير من ذكر رحلاتهم الى الصيد · بل بلغ الامر بملوك الدولة الرسولية في حبهم للصيد أن يضع أحد العلماء القادمين الى اليمن وهو الفقيه يعقوب بن اسماعيل المطماطي كتابا للملك المؤيد في الصيد بعنوان (نزهه الملوك الاخيار في الاقتناص بأنــواع الاطيار) انظـر كتاب انتهاز الفرص في الصيد والقنص لحمزة بن علي الناشري الذي سنقوم بنشــره في القريب العاجل ·

(٤) المستبصر ص ٨٠ ·

شُرب ولعب وقصف ورقص • ولقد استنكرها جماعة من العلماء المتمسكين ودعا ففهم الى تركها بقوله :

تجنب عن زبيد ولا تطاها ولا تغررك يا ابن أخي زبيد
ففي يوم السبوت نَرى مساوي أتتها يوم سبتهم اليهود

بل زعم المؤرخ يحيى بن الحسين أنه خرج بسبب هذه النزهة من زبيد وحدها نحو سبعمائة بيت من الفقهاء وأهل النجدة والحمية ، وكان المجدد لهذه النزهة بعد اندثارها الملك المؤيد داود بن علي بن يوسف المتوفى سنة ٧٢١ وقد عدت من مساوئه وأنها (أعظم بدعة في الاسلام وحقيقتها على مايذكره المؤرخون أنه كان يخرج الملك بعسكره من زبيد الى النخل في يوم السبت ويأمر أهل زبيد بالخروج معه بنسائهم فتقع هناك مفاسد عظيمة واختلاط فاحش وسماع وطرب)[١] •

ولس بأيدينا تحديداً لبداية هذه النزهة في اليمن الا أن أقدم من ذكرها من المؤرخين هو ابن المجاور في القرن السابع الهجري ويذكر يحيى بن الحسين ان ابتداءها كان في زمن الأشرف سنة ٦٩٤ وأنه سبت في احدى السنوات فخرج معه نحو ثلثمائة محمل في كل محمل سرية[٢] •

وبجانب هذه النزهة الشهيرة تأتي عدة احتفالات رسمية واخرى دينية وقد ساهم فيها الادب والادباء مساهمة فعالة فقد شارك الادباء بصفة رسمية في بعض الاحتفالات التي تكون لمناسبات خاصة بالدولة كالانتهاء من بناء أحد القصور السلطانية أو الاحتفال ببعض المناسبات الدولية •

ومن أشهر الاحتفالات الرسمية التي عنيت الدولة بها ذلك الاحتفال الذي أقامه الملك الأشرف بمناسبة طهور بعض أولاده[٣] •

---

(١) غاية الاماني ص ٤٩٤ •
(٢) العقود اللؤلؤيه ج ١ ص ٢٩١ •
(٣) وقد أطنب الخزرجي في وصف ما بذل فيه من أموال واستعدادات من ذلك =

ومن الاحتفالات الكبيرة الاحتفال بالاعياد الدينية كعيد الاضحى وعيد الفطر والاحتفال بأيام النشفيع في رمضان وهو عبارة عن اجتماع علمي يقيمه الملك الرسولي بعد الانتهاء من الافطار ويحضره جماعة من الاعيان والعلماءوربما جرت في هذا الاجتماع مناقشات علمية وأدبية بين الحاضرين فينقسم الادباء فيما بينهم الى قسمين وتكون الملك في موقف المحايد وقد ذكر الخزرجي صورة مما كان يدور في تلك المجالس من مناقشات من ذلك أن الادباء انقسموا فيما بينهم الىقسمين في تفضل العنب والنخل (أيهما أفضل من صاحبه فحصل الاجماع بنفضيل الرطب على العنب من فقهاء تهامة وأمرائها وكان القائلون بتفضيل العنب على الرطب فقهاء الجبال وأمراءها وفد أسند أهل الجبال أمرهم الى الفقيه صفي الدين احمد بن موسى التعزي وأسند أهل تهامة أمرهم الى الفقيه شرف الدين اسماعيل بن أبي بكر المقري[1] .

وهناك احتفال آخر له صلة بالمناسبات الدينية وهو الاحتفال بعودة الحاج والابتهاج بقدومه باقامة المداره والتغني بفضله فيقيم أصحاب الثـراء أعوادا كبيرة على شكل مراجيح فيتوسطها الحاج ويقوم الشعراء بـين يديه بالمدائح والقصائد فيكافئهم صاحب الحفل بجوائز جزيلة[2] .

وفي بعض الأحيان تقام المداره لغير المناسبات الدينية ويشاركها في ذلك آلة أخرى تسمى (الطلعات) أشبه ما نكون بعربة تجرها عجلات من الخشب[3]

=

أنه بعث الى بعض الجزر لشراء ماتدعو اليه الحاجه من الطير والحيوان والحنطـة والسمون والعسل والارز ومن الرمان والعدس الى غير ذلك وفي شهر شوال مـن سنه ٧٩٣ طلب الاشرف صناع الحلوى فاشتـغلوا منها أنواع كثيره منها المشبك والقرعة والقاهرية والسيرزيه والخسخاشية والفابيذ الى غير ذلك ، وقد حضر كل أعيان الدولة والفقهاء وعامه الناس وشارك فيه بعض الادباء (العمري ج مسـالك الابصار ص ٥٦) . وتلك صوره مما كان يقام في بعض الحفلات الرسمية من ذبح ومظاهر وهي كثيرة جدا .

(١) المصدر السابق ج ص ٢٦٣ .

(٢) تاريخ ثغر عدن ج ٢ ص ٢٤٥ وانظر السلوك .

(٣) العقود اللؤلؤية ج ٢ ص ٧٣ و ٧٤ و ٢٤٠ .

واحتفل الناس في ذلك الوقت بالرجبية وكان الملك المصور يأتي بنفسه الى الجند لأداء صلاة هذه المناسبة العظيمه عند أهل اليمن[1] •

وعلى العموم فان الدولة الرسولية قد تفننت في اقامة النزه والحفلات وشارك في ذلك ملوكها حتى ان الملك منهم كان (يشتي بزبيد ويصيف بتعز) ، في حين كانت أوقاتهم (مقصورة على لذاتهم والخلوة من خطاياهم وخاصتهم من الندماء والمطربين)[2]•

أما الناس فلهم شأن آخر وتتفاوت حياتهم بين اليسر والعسر وان كنا نجد في المجتمع في ذلك الوقت ما يشبه التكافؤ الاجتماعي لاعتمادهم على الزراعة في أغلب الاحيان حتى انغمس في العمل بالزراعة سائر فئات المجتمع بما فيهم العلماء وبعض الامراء الا أن هؤلاء انحصر نفوذهم في الزراعة من خلال السيطرة على مناطق شاسعة من الاراضي الزراعية حصلوا عليها من الدولة الرسولية •

وقد أرادوا أن ينشئوا في أول الأمر نظاما إقطاعيا يشبه ذلك النظام الذيأحدثه المماليك في مصر والذي يعتمد على تسخير جماعة من الفلاحين لزراعة الارض لصالح الامير لكن هذا النظام سرعان ما انتهى بالفشل لأن أكثر الفلاحين كانوا من أفراد القبائل المسلحين فلم يستطع الامير فرض سيطرته عليهم ، وفشل نظام الاقطاع في اليمن فشلا تاما بخلاف ما هو مطبق عند معاصريهم في مصر وبعض بلاد الشام • ويبقى كل نفوذ الدولة على الفلاحين في أخذ الجبايات السنوية فقط • وحتى هذا الامر لم يتأت تماما للدولة فقد ذكر المؤرخ الحبيشي في تاريخه أن عرب « حصن نقذ » من بلاد وصاب « لايسلمون لواليهم مالا وليسعليهم خراج فيأرضهمإلافيموضعينمنهاولم تجر عليهميد السلطان إلافيمدةقصيرة»[3]•

---

(١) السمط الغالي الثمن ص ٢٣٣ •

(٢) العمري : مسالك الابصار ص ٥٦ •

(٣) الحبيشي : الاعتبار (مخطوط) •

أما في البلاد المسالمة فالامر بخلاف ذلك ، ففي وصاب نفسها كان الرجل من أهل ظفران غالبا مايموت فقيرا «وذلك لكثرة مايجور عليهم الولاة والظلمة»(١).

ولهذا السبب وغيره كان الناس كثيرا مايثورون على الدولة وربما قام أحد الثوار من بينهم ودعا الى أخذ حقــوق الشعب من الدولة فقد حدثنــا المؤرخ الحبيشي عن واحد من أولئك الثوار وهو شخص عرف باسم الشريف كان قد ظهر في قرية « هــروره » من أعمال حصن النسرف بوصاب ودعا النــاس الى الوقوف ضد عمال الملك المنصور بعد أن جاروا فوقف معه سانون رجلا وتمكن بهم على الرغم من فقره من أخذ قرية الحمرا والسدة ووقف معه الناس « لمــا كان قد نالهم من الظلم والجور من الوالي »(٢) ثم أخذ المصنعةوالجبجبوعبرها من قرى وصاب وقام ببناء دور صغير للرعية حتى« ولوه عليهم فلم يأخذ منهم شيئا الا مايقوم بكفاية العسكر لاغير »(٣) . ومن أمثلة هذا الرجل كثير من الثوار لعل آخرهم حسب علمي الفقيه سعيد ياسين في القرن الثالث عشر الهجري.

ومع ذلك فربما قام أفراد القبائل بالثورات المتتابعة على الحكــومة وقد حدثنا صاحب تاريخ الدولة الرسولية المجهــول عن ثورات كثــير من القبائل التهامية كقبيلة الاشاعر والمعازبة والقرشيين والجحافل وغيرهم وكانت الدولة تقوم بتجريدهم من السلاح والخيل(٤) في أوقات هدوئهم .

أما المماليك وهم مانسميهم بالامراء ــ فقد جاؤوا مع أول ملوك الدولة الرسولية الذي يقال :انه استكثر منهم حتى بلغت مماليكه البحرية ألف فارس يحسنون من الفروسية والرمي ما لايحسنه مماليك مصر(٥) . واغلب الظن أن

(١) المصدر السابق .
(٢) المصدر السابق .
(٣) المصدر السابق .
(٤) مجهول : تاريخ الدولة الرسولية ص ٥٧ و ٧١ و ٧٨ و ٧٣ و ٨٣ و ٩٢ . الى غير ذلك طبع اليابان سنة ١٩٧٦ م .
(٥) العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٨٢ .

الملك الرسولي قد أراد من الاستكثار بهم أن تكون له عصبية قوية يقارع بها العصبيات المحيطة به في اليمن من قبل تكتلات القبائل حوله وكأنه في هذا المسلك ينهج أسلوب حكام مصر المعاصرين له على أن حتف هذا الملك سيكون على أيدي هؤلاء المماليك كما مر بنا • وهؤلاء المماليك من أشرس خلق الله وقد أرادوا أن يسخروا الشعب لأهوائهم لولا أنهم وجدوا مجتمعا صلب المراس لايخضع للضيم وهم دائما لايزالون في حروب معهم حتى أخمد العرب شوكتهم ونادرا ما يخرج مملوك من أبواب زبيد دون أن تتعرض حياته للخطر(١) ••• الا أنهم في المدن قد شكلوا طبقة ثانية بعد طبقة الحكام لها نفوذها الكبير في البلاد ولم يحد من شأنهم الا سقوط الدولة الرسولية في القرن التاسع وقيام دولة عربية تعتمد في حميتها على الشوكة العربية فتلاشى شأن المماليك وهرب أكثرهم الى الحجاز •

وفي المدن يتباين الناس وتتعدد طبقاتهم فأولهم بعد طبقة الملوك طبقة الامراء ولم يكن هؤلاء الامراء جميعهم من بيت الملك وانما يدخل فيهم جماعة من المماليك والرؤساء المقربين للسلطان ويحمل للامير في الغالب شعارات التعظيم والسيادة كدق الطبل والمرافقة له بالحرس وقد كرمت الدولة كثيراً منهم بواسطة الاقطاعات الهائلة التي تعطى لهم وربما بلغت هذه الاقطاعات قرى بأكملها(٢) ويأتي بعدهم في المرتبة طبقة المشايخ أو رؤساء القبائل ونفوذهم يكون خارج المدن الكبيرة ويتحكمون في أفراد القبائل التابعة لهم ويغلب عليهم البساطة والسذاجة لذا فان الدولة كثيرا ما أوقعت بهم بواسطة الحيلة(٣) ومن رؤسائهم

---

(١) والى ذلك يشير ابن المقري فيقول مخاطبا الظاهر :

يوصي بقتلهم القبائل بعضهم ... بعضا لكي يجدوا لديك منالا

(٢) انظر على سبيل المثال العقود اللؤلؤيه ج ١ ص ٢٦٨ و ٣٠١ و ٣١٨وغيرها•

(٣) العقود اللؤلؤيه ج ٢ ص ١٠٩ •

في ذلك الوقت من أرسل أتباعه لإخافة السبل وظلم الرعية انتقاما من الدولة .

وبجانب تلك الطبقات العسكرية يأتي سائر أفراد الشعب وأغلبهم من الفلاحين والحرفيين والعلماء ولكل من هؤلاء الناس أزياء خاصة بهم فعامة أهل الارياف يلبسون قمصانا كبيرة الجيوب ونعالا عربية ضخمة ومنهم من يحرص على إطالة شعره ولايغطي رأسه إلا نادرا[١]. وأما الامراء والعسكر فانهم يلبسون أقبية اسلامية ضيقة الاكمام مزندة اليدين وأحزمة وعلى رؤوسهم أغطبة تسمى تخافيف تكون على شكل عصابة (لفائف) وليست بعمامة وفي أرجلهم دلاكسات وهي أخفاف من القماش والحرير الاطلس[٢] أما العلماء فغالب ملابسهم العمائم والشاش والملاحف[٣] .

وللنساء زي خاص بهن فعند الخروج تستعمل المرأة في الغالب نوعا من الملابس يسمى جوخه وتضع على رأسها طرطورا ثم تتغطى بملاءة[٤] ومن أزيائهن نوع من الاغطية يوضع على الرأس يسمى مصون[٥] .

ويوجد باليمن في ذلك الوقت أقلية دينية من اليهود الذين كانوا يستوطنون قرى بجانب قرى المسلمين وكان أكثر وجودهم في مناطق الجبال المحاذية لتعز وعدن .. أما في المدن الكبيرة فقد كانت لهم أحياء خاصة وقد اندمج بعضهم بأفراد الشعب من المسلمين وتولى وظائف حكومية هامة كالنظر في أموال المينا بعدن وغيره ومنهم من احترف مهنا كالطب وبعض الصناعات اليدوية حتى كان للواحد منهم المراكب الفارهة والغلمان الحسان مما لايحظى به سائر أعيان البلاد[٦] وكانت عدن وتعز تغص بالعديد من كنائس اليهود فيسمع لأصوات

---

(١) السلوك ٣٢٠ .
(٢) العمري مسالك الابصار ٥٢ .
(٣) السلوك ٣٢٠ .
(٤) السمط الغالي التمن ص ٢٩٥ .
(٥) تاريخ البريهي ص ٣١٤ .
(٦) تاريخ البريهي ١٢٦ .

المصلين بها زجل عظيم يؤذي المسلمين وربما قام اليهود ببناء كنائس جديدة في تعز فيقوم بهدمها بعض العلماء والانكار عليهم[1] .

أما النساء فلهن شأن كبير في العصر الرسولى ويكفي أن تعلم أن المرأة قد تولت الزعامة بأقصى درجاتها حتى ندرك أهميتها وقد ساست المـرأة الرجال وتصدرت المحافل حتى أن قبيلة المعازبة المعروفة بشكيمتها قد ولت عليها مرأة عرفت ببنت العواطف أحلوها محل الشيخ لهم فكانت (تركب دابة أو ناقـة ونقود المعازبة في المعارك بأسرهم فكان السلطان يكسوها كما يكسو مشايخ القبائل)[2] وقد حفظت الدار الشمس ابنة الملك المنصور ملك اليمن بعد مقتل والدها لمدة أيام حتى قدم أخوها المظفر .

وقد اشتهر منهن في ذلك العصر جماعة من عقيلات النساء عرفن بخدمتهن الاجتماعية ــ والاصلاحية نذكر منهن :

١ ــ الدار الشمس ابنة المنصور عمر بن علي الرسولي وكانت من النساء الحازمات ولما قتل والدها ولم يكن أحد من أقاربها موجوداً شمرت وبذلت الأموال للرجال وحفظت زبيد حتى وصل أخوها المظفر من المهجم وكانت هي السبب في الاستيلاء على الدولة ولها من المآثر الخيرية المدرسة المعروفة بالشمسية بذي عدينة مـن تعز ومدرسة بزبيد وغيرها . توفيت سنة ٦٩٥ .

٢ ــ آمنة بنت اسماعيل النقاش من الحازمات حفظت الملك بعد غيـاب ابنها المجاهد في مصر وأخمدت الأمور بعد أن أوشكت أن تقوم ثورة ولها من المآثر الخيرية مدرسة في المحالب وأخرى بقرية السلامة وأنشأت خانقاه بزبيد الى غير ذلك توفيت سنة ٧٦٢ .

٣ ــ أم الملوك جهة الطواشي جمال الدين فرحان لها من المآثر الخـيرية مدرسة في زبيد وأخرى في تعز ولحج توفيت سنة ٨٣٦ .

---

(١) السلوك ص ٣٣١ .

(٢) العقود اللؤلؤية ج ٢ ص ٦٩ .

٤ ــ بنت أسد الدين محمد بن الحسن الرسولي زوجة الملك المؤيد وكانت تتوسط في الشفاعة لعامة الناس ولها محاسن متعددة توفيت سنة ٧٠٤ ٠

٥ ــ الجهة المعتبية وكانت امرأة حليمة عفيفة لها مدرسة بتعز توفيت سنة ٧٩٦ ٠

٦ ــ الدار الفاسي نسبة الى الطواشي كمال الدين فاتن بن عبد اللهالطواشي كانت من النساء الكاملات وكان المجاهد يجلها ولها من المآثر مسجد كبير في زبيد توفيت سنة ٧٦٨ ٠

٧ ــ الدار النجمي كانت من الصالحات وكانت تهتم بتفقد أحوال الطلبة لها مآثر كبيرة استقصيناها في كتابنا معجم المرأة اليمنية ٠ توفيت فيالقرنالثامن٠

٨ ــ دهماء بنت يحيى المرتضى لها مؤلفات علمية في الفقه توفيت سنة٨٣٧

٩ ــ صفية بنت المرتضى من العالمات لها بحث في الفقه توفيت سنة ٧٧١ ٠

١٠ ــ ماء السماء بنت الملك المظفر كانت من النساء الفاضلات لها المدرسة الواثقية بزبيد توفيت سنة ٧٢٤ ٠

١١ ــ مريم بنت العفيف زوج الملك المظفر الرسولي كانت من العاقلات لها عدة مدارس أنشأتها في زبيد وتعز وتعرف بمدارس مريم توفيتسنة ٧١٣ ٠

١٢ ــ نبيلة ابنة الملك المظفر أنشأت عدة مدارس علمية توفيت سنة ٧١٨ ٠

وأخريات استقصيناهن في كتابنا (معجم المرأة اليمنية) فتراجع هناك ٠

* * *

الحياة الدينية

عاش أهل اليمن حياة دينية كاملة ، ومن يتأمل ماكتبه الجندي عن صوفية اليمن يجد القوم قد اندمجوا في عبادات ورياضات شاقة تقف عندها الهمم الكبيرة فالواحد منهم ربما صلى صلاة الصبح بوضوء العشاء لم يرقد خلالهما(١) ومنهم من كان يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة ، ويصوم كل أيام السنة ، سوى الايام المكروهة(٢) ومنهم من كان يختم القرآن كله في يوم واحد . وهكذا تكثر عبادات أهل اليمن في ذلك الوقت . وكان الشيخ الصالح طلحة الهتار قد مكث خمس عشرة سنة لا يفطر الا أيام العيدين ولا يخرج من البيت الا لصلاة الجمعة(٣) . ولو توسعنا في ذكر عباداتهم لخرج بنا المقام ، ونكتفي بما ذكرنا للتدليل على انهماكهم في طاعة ربهم ومع ذلك لم تكن كل حياتهم في العبادة وحدها ، فقد تحسس الصوفية مشاكل الناس حولهم وحاولوا التعبير عنها بشجاعة أمام الحكام من ملوك بني رسول ومن يتأمل ما كتبه الصوفي الكبير أحمد بن علوان الى الملك المظفر يجد مصداقا لما قلناه ففي هذه الرسالة يشكو ابن علوان على لسان عامة الناس ما أحدثه من ضرائب وجبايات فيقول :

« أما بعد أصلحك الله أيها الملك وأصلح بك وجعل أسباب الفضل مقصودة بسببك . إن الملك عاريته المستعارة بالقهر وحكمته المستفادة بالفكر ونعمته المستزادة بالشكر لواؤها العدل ويدها البذل وخليلها العقل وعدوها الجهل فان كان في الملك هذه الاوصاف فليس بهين وهذه نصيحة أجراها الله على لسان بعض رعيتك وقد آتاك الله من الحلم والعلم فأمره على تذكيرك» الخ(٤) .

وغالبا ما تقبل الحكام ادلال الصوفية عليهم برحابة صدر وتسامح حتى ان أحدهم كتب الى الملك المظفر يقول : « يا يوسف كثر شاكوك وقل شاكروك

(١و٢و٣) طبقات الخواص ٤٧ والاهدل: تحفة الزمن ص ١٠٨ وص١٦٧ .
(٤) أنظر مجلة الحكمة (الجديدة) العدد ٣٢ ص ٣٨ .

فإما عدلت وإلا انفصلت[1] فدل ذلك على مكانتهم التامة عند ملوك بني رسول ولعل هذا التسامح معهم من قبل هؤلاء الملوك لم يكن بدافع ديني وانما كان لأسباب سياسية تقتضي ذلك حيث أن لهؤلاء الصــوفية مكانة كبيرة في نفوس الناس فكان الميل اليهم ليس إلا تقربا للشعب وقد ترجموا ذلك في أكثر من مناسبة فهذا السلطان المظفر يسامح جماعة من الصوفية في الضرائب على أراضيهم[2] وقد رفض الصوفي أحمد بن موسى بن عجيل مسامحة المظفر لأرضه الا أن يكون هذا السماح عاما في سائر أفراد الشعب[3] ومع ذلك فقد كانت مكانة الصوفية عند ملوك بني رسول تزداد كل يوم حتى بلغ بهم الامر الى أن كل من احتمى بتربية الفقيه (ابن عجيل) لم يستطع السلطان أن يمسه بأذى واصبحت مدينة بيت الفقيه من الاماكن المقدسة التي لا يدخلها جند السلطان[4] .

ولم يؤثر هذا التكريم في مجاهرة الصوفية بالحق وربما قام أحدهم بالهجوم على أماكن الخمر وإراق الخمر دون أن يمسه أحد من العسكر[5] وكان الصوفية أقرب في ذلك الى رأي العامة فأحبهم الناس لذلك واعتبروا مزاراتهم من الاماكن الجليلة حتى ان الصوفي الكبير الشيخ طلحة الهتار اذا خرج من بيته لا يكاد يصل الى الجامع إلا بمشقة كبيرة لكثرة ازدحام الناس عليه[6] وربما تضايق بعض الصوفية من تلك الزيارات المتكررة فيحتال أحد أصحابه بحيلة طريفة يتخلص بهـــا منهـــم[7] .

---

(١) أنظر كتابنا الصوفية والفقهاء في اليمن ص ٤٧ .
(٢) طبقات الخواص ص ٨ .
(٣) العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٢٥٨ .
(٤) الصوفية والفقهاء ص ١٥٠ وطبقات الخواص ص ٦٢ .
(٥) طبقات الخواص ص ٧٣ .
(٦) المصدر السابق ص ٦٤ .
(٧) العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٣٢١ ، ويذكر في ذلك حكاية طريفة . يقول . ان الصوفي عبد الله بن أبي بكر الخطيب لما دخل عدن تسامع الناس به ، وكثر الزحام عليه حتى شغلوه عن عبادته فشكا الى بعض خواصه فقال له : اطلب منهم قرضا فلما فعل ذلك مع أول زائر انتشر هذا الخبر بين زواره وعرفوا أنهم متى وصلوا الى عنده سألهم كما سأل الاول فلم يأت أحد بعد ذلك الى النسخ .

على أن الصوفية ليسوا هم جميع أصحاب الوجاهة الدينية في المجتمع فقد زاحمهم في ذلك جمهور الفقهاء ، وربما حدث بينهما نزاع كبير فصلناه في كتابنا (الفقهاء والصوفية في اليمن) فلا نعود الى ذكره هنا ٠

وكانت المذاهب الفقهية السائدة في ذلك الوقت قبل انتشار مذهب الشافعي في اليمن هما مذهب الامام (مالك) والمذهب (الحنفي) واستمر الكثير من الفقهاء على مذهب الامام أبي حنيفة حتى بعد ظهور المذهب الشافعي وكانت مدينة زبيد قد ضمت جماعة كبيرة من أصحاب المذهب الحنفي والشافعي والمالكي ٠ أما مذهب الامام زيد بن علي فقد انتشر في نواحي (صعدة) و (نجران) وما يليها وتمركزت (الاسماعيلية) في نواحي (صنعاء) والبلدان المحيطة بها وكانت صنعاء تضم في ذلك الوقت مجموعة من أتباع المذهب السني كالشافعية والحنفية ٠٠

ويقول المؤرخ (ابن سمرة) واصفا الوضع المذهبي في اليمن قبل انتشار المذهب الشافعي كان الغالب على اليمن مذهب مالك وأبي حيفة ولم يكن علم السنة مأخوذاً في هذا المخلاف الا من جامع معمر بن راشد البصري وهو مصنف في صنعاء وجامع سفيان بن عيينه وجامع أبي قره موسى بن طارق اللحجي ومن المرويات عن مالك وغيره[١] ٠

ومن المؤرخين من يحدد ظهور المذهب (الشافعي) في اليمن بالقرن الثالث[٢] ثم تقوى شأنه في القرن الرابع وكان المجدد له بعد اندثاره الفقيه اليمني القاسم بن محمد بن عبد الله الجمحي القرشي المتوفى سنة ٤٣٧ هـ[٣] ٠

وقد حظي مذهب (الشافعي) بقبول تام على أثر تحول السلطان المنصور

---

(١) ابن سمرة ٠ طبقات فقهاء اليمن ص ٧٤ ٠

(٢) يحيى بن الحسين : غاية الاماني ص ٢٠٣ ٠

(٣) طبقات فقهاء اليمن ص ٨٠ و ٨٧ ٠ ٠

عمر بن علي الرسولي عن المذهب (الحنفي) الى المذهب (الشافعي)[1] ومساندة الدولة لهذا المذهب حتى إن أول مدرسة أنشأتها كانت لدراسة المذهب (الشافعي)[2] وما كان هذا الاهتمام أن يتقوى لولا أن الدولة الرسولية وجدت ترحيبا كاملا في تقبل المذهب (الشافعي) وانتشار كتبه الفقهية منذ مرحلة مبكرة فان أقدم كتاب عرفه اليمن للمذهب الشافعي هو كتاب (مختصر المزني) تلميذ الامام الشافعي وهو أول كتاب وضع في مذهب الشافعي وقد اشتهر شهرة واسعة في اليمن وأول من أدخله الشيخ حسين بن جعفر المراغي المتوفى سنة ٣٢٤ قرأه بمدرسة سهفنة سنة ٣٢٠ وقد درس في هذا الكتاب بعد المراغي جماعة من علماء اليمن أمثال أبي الفتح بن ملامس المتوفى في القرن الخامس والفقيه جعفر بن عبد الرحيم المخائي المتوفى سنة ٥٠٠ وأسعد بن الهيثم المتوفى سنة ٤٦٨ وغيرهم . وظل كتاب المزني مستعملا في الدراسة حتى حل محله كتاب المهذب لأبي اسحاق الشيرازي في القرن الخامس فمال الناس اليه حتى كاد أن يُنسى كتاب المزني ولم يعد له ذكر بعد هذا التاريخ يقول ابن سمرة واصفاً كتب (الشافعية) في اليمن قبل وصول (المهذب) كان أهل اليمن في المائة الخامسة وما قبلها يتفقهون بكتاب المزني وفي أصول الفقه بكتاب (الرسالة) للشافعي ومصنفات الغزالي وكتاب أبي علي الطبري وكتاب ابن القطان ومصنف المحاملي وشروح كتاب المزني المشهورة لأن المهذب لم يصل الى اليمن الا في آخر المائة الخامسة[3].

وانما كان تأخر وصوله الى اليمن بتأخر مصنفه فقد كان الامام الشيرازي من أهل القرن الخامس (توفي سنة ٤٧٦) فلا غرابة اذا كان مجيء كتاب المهذب في اليمن في القرن الخامس وأوائل السادس فما كاد يصل الى اليمن حتى انهال

---

(١) العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٨٧ .

(٢) طبقات الخواص ص ١٣٧ .

(٣) طبقات فقهاء اليمن ص ١١٨ .

عليه الفقهــاء بالدراسة واعتمده الطلبة والمدرسون وأقدم من درس فيه الفقيــه زيد بن عبد الله اليفاعي في القرن الخامس ولم يحد من شأن كتاب المهذب سوى كتاب (البيان) الذي صنفه في اليمن على مذهب الشافعي الفقيه يحيى بن أبي الخير العمراني المتوفى سنة ٥٥٨ ومع ذلك لم يترك الطلبة الدراسة فيه نهائيــا وزاحم كتاب (البيان) في بعض الاحيان حتى كان القرن السابع وظهور كتب الامام النووي (المنهاج) و (المجموع) و (روض الطالبين) فيقبل الفقهاء عليها ويستغنون بها عما سواها ..

وقد ورث الشافعية في اليمن في ذلك الوقت تزمت الحنابلة وتشددهم في العقائد اذ لم يكن للشافعي مذهب خاص في العقيدة فمال الناس في هذا الصدد الى عقيدة أحمد بن حنبل لتلمذته على الامام الشافعي واعتماده على الحديــث كشيخه حتى كان هذا دافعا لإنكار الشافعية على أتباع المذهب الحنفي القائل بالرأي وربما تسبب بعض الشافعية في متابعة كتب الحنفية واتلافها[1] على أن فقهاء الشافعية في اليمن وان مالوا في عقيدتهم الى مذهب أحمد بن حنبل الا أنهم لم يوافقوا الحنابلة في جميع معتقداتهم من الصفات وغــيرها وقد وافقوهم في القول بالصوت والحرف[2] . وكان الناس في اليمن حتى زمن الجندي يأخذون بعقيدة أحمد بن حنبل اذ الغالب على فقهاء اليمن ذلك الاعتقاد أما في القــرن الثامن فقد انتقل اعتقاد بعض العلماء الى مذهب الاشعري لكنهم لا يتظاهرون بذلك خوفا على أنفسهم من جهلة بلادهم[3] وقد جرى أول احتكاك مباشر بين علماء الحنابلة والاشاعرة في اليمن عندما خرج الفقيه طاهر بن يحيى العمراني عن مذهب والده فتحزب العلماء ضده ومن بينهم والده حتى اضــطروه الى الهجرة الى مكة والمكوث بها مدة طويلة ولما عاد الى بلده أجبروه على الرجوع عن مذهبه واعلان ذلك على منبر المدينة[4] وكان من أكبر القائمين ضده الفقيه

---

(١) السلوك ص ٨٥ .
(٢ و ٣) تاريخ ثغر عدن ص ٨٢ .
(٤) طبقات فقهاء اليمن ص ١٨٨ .

سيف السنة أحمد بن محمد البريهي ثم أجمع الفقهاء على هجره والانكار عليه منافهة ومراسلة[1] وكان فقهاء الحنابلة في أول أمرهم من أكثر الناس محاربة لعقيدة أبي الحسن الاشعري حتى وصل الامر ببعضهم الى أن يحرم مطالعة كتبه واعارتها لفقهاء الاشاعرة ويوصي بذلك في وصيته فيكتب على ظهر كتاب هذين البيتين :

هذا الكتاب لوجه الله موقوف   نبا الى الطالب السني مصروف
ما للاشاعرة الضلال في حسبي   حق ولا للذي في الربع معروف[2]

وكذلك ناظر الحنابلة الزيدية عندما دخل الفقيه جعفر بن عبد السلام مدينة إب ولم يتم له ما أراد من افحامهم[3] وقد وقعت مناظرة أخرى بين فقهاء الحنابلة والتبيعة في مدينة وصاب تحت اشراف الامير الرسولي حسن بن علي الملقب ببدر الدين فدل هذا على تشجيع الدولة الرسولية لعقد تلك المناقشات[4] ومع ذلك فان الفقهاء في اليمن على مختلف مذاهبهم كانوا هم الشعلة المتقدة في المناقشات العلمية والجدال الفقهي وكثيراً ما ملؤوا فراغهم في البحث في مسائل فقهية مختلف فيها كالبحث حول مسألة تكفير تارك الصلاة وطلاق التنافي وبراءة الزوج من المهر الى غير ذلك وكان من أكبر الفقهاء المجادلين في ذلك الوقت الفقيه سيف السنة البريهي والفقيه يحيى بن أحمد الهمداني ومحمد بن ابي بكر الخياط وابن المقري وغيرهم وقد وصفهم الاخير بقوله[5] :

كنتم اذا عرضت في الدرس مشكلة   تطايرت نحوها أفهامكم شررا

---

(١) السلوك ص ١٢٦ .
(٢) السلوك ص ١٢٤ .
(٣) السلوك ص ١٤١ .
(٤) السلوك ص ٣٥٠ .
(٥) ديوان أبي المقري ص ١٥٠ .

أما الاحناف فقد اسفر أكثرهم بمدبنة زبيد حى كونوا مجموعة كبيرة بعد المذهب التنافعي وكانت الاعلبية منهم فبيل قيام الدولة الرسولية كما يقول ابن المجاور[١] واشتهر من ففهائهم القاضي أحمد بن أبي عوف والقاضي أبو بكر ابن عسى بن حنكاس ومحمد بن علي الصريفي والفقهاء بنو العلوي وغيرهم وتوارث الاحناف إمامة جامع الاشاعر بزبيد حتى أوائل القرن التاسع فتولاه أحد فقهاء الشافعبة وهو الفقيه علي بن محمد بن قحر المتوفى سنة ٨٤٥[٢] ويقول الجندي اعلم أن وادي زبيد الغالب على أهله مذهب أبي حنيفة وكذلك وادي حيس ولكن رمع وحيس يغلب على أهلها العامية ولم أكد أسمع لهم بفقيه.

وبقيت أسر قليلة بمدينة زبيد تحتفظ بمذهب الامام مالك بن أنس وهو أقدم المذاهب الفقهية باليمن الا أنه كاد ينقرض بعد دخول مذهب الامام الشافعي وظلت اسرة بني المزجاجي تحتفظ بمذهب الامام مالك حتى أواخر القرن الثالث عتر الهجري ..

وحسب قول الجندي نجد العلم بالفقه قد ارتبط بالدين وهو العلم المحمود وقد خضع الفقهاء للمناصب الدينية التي يفرضها عليهم تخصصهم الفقهي واشتغل الاغلب منهم بالمهام القضائية وقليل منهم من تولى الاشراف على المساجد والقيام بإمامة المصلين والأذان ومما يدخل في هذا الجانب تولي الخطابة بالناس يوم الجمعة وغيرها من المناسبات الدينية وأصبح يتعاطاها كل من هب ودب من سائر الوعاظ حتى كادت أن تفقد صبغتها الادبية وهي صنعة قديمة في اليمن فقد ذكر الهمداني من قدماء الخطباء في صنعاء مطرف بن مازن المتوفى سنة ١٩١[٣] وغيره . أما في العصر الرسولي فقد أصبحت الخطابة مهنة دينية خالصة تتوارثها أسر معينة كأسرة آل الدملوي التي اشتهرت بجمال الصوت وحسن الالقاء وكان من أشهر خطبائهم الفقيه عبد الرحمن عبد الله الدملوي المتوفى سنة

(١) المستبصر ص ٨٨ .
(٢) العقود اللؤلؤية ج ٢ ص ٢٩٠ .
(٣) صفه جزيرة العرب ص ٨٣ .

٧٤٩ ولّي الخطابه مده طويلة بجامع ربيد وبعد وفاته خلفه ولده محمد وكان كوالده حسن الصوت نم نوفي سنه ٧٥٢ يقول الخزرجي : « كان أفصح مـن خطب وأحسن من قرأ في عصره » تم ولى الخطابه بعده أخوه عمر بن عبد الرحمن وبلغ النهاية فيها وشاع ذكره وطال عمره ولم يزل خطيب المدينه وقارىء الحديث بجامع الاشاعر نحو خمسين سنة الى أن توفي سنه ٨٠٠ هـ واشتهرت أسرة آل الدملوي بالخطابة حتى قال بعض الناس من المبالغين « ان لهم بقرة صوتها أحسن من سائر أصوات البقر»(١) • وكان قد تولى خطابه جامع الاشاعر قبل عبـد الرحمن الدملوي الخطيب عمر المقدسي وآخرون ومن متأخري الخطباء في العصر الرسولي الخطيب أبو بكر بن يوسف ابن المستأذن يصفه البريهي بقوله رتب بجامع عدن فكان خطيبا مصقعا حسن الصوت سريع الدمعة تختشع له القلوب وكان يبكي من خشية الله وعمره سبعون سنه وبعد وفاته سنة ٨١٥ تولى الخطابه بعده ولده عبد الرحمن • وربما شارك في الخطابة بعض العلماء الوافدين الى اليمن • ويغلب على هؤلاء جانب التكلف والمحاباة للسلطان فقد حدث أن دخل أحد هؤلاء جامع ذي عدينة فكان يخطب على البديهه ويتوسع في الكلام ويطول لسانه بذكر ما لاينبغي ويقول في خطبه الحمد لله الناصر الملك يشير الى الملك الناصر أحمد بن اسماعيل الرسولي فلما سمع ذلك أحد علماء اليمن وهو الفقيه رضي الدين الشنيني قام على باب المنبر وقال للخطيب اتق الله عما أنت بصدده واقصر خطبتك(٢) •

أما المؤذنون فليس بأيدينا شيء من أخبارهم سوى ما ذكره البريهي عن واحد من مؤذني مدينة إب وهو الفقيه أبو بكر حسين وكان حسن الصوت حلو القراءة (رتب للأذان في جامع إب فكان يرقى المنارة في آخر الليل ويسبح بحمد الله ويكبر باخلاص وحضور قلب وينشد القصائد الوعظية وغيرها في المنارة في

(١) طراز اعلام الزمن (مخطوط) •
(٢) تاريخ البريهي ص ٢٥

جنح الليل فيكون لكلامه وقع في القلوب ويسمع صوته على مسافة ثلاثة أميال ومكث بجامع إب نحو ثلاثين سنة يعتكف في كل فرض من وقت الأذان الى فراغ الصلاة فلايخرج أثناء ذلك مهمادعت الضرورة)[1] توفي رحمه الله في سنة ٨٢٢هـ .

وكان الليل في ذلك الوقت مسرحا لتلاوة المقرئين وانشاد المنشدين وتسبيح المسبحين وأذان المؤذنين ويشاركهم في ذلك أصوات أهل العبادة والقائمين بالاسحار وجماعة الصوفية فيحيون الليل بأذكارهم وتهليلهم وربما قام أحدهم بالسماع والرقص في جوف الليل (فيفزعون الاطفال ويزعجون النوّام بأصواتهم العالية)[2] حتى أفتى بعض الفقهاء بعدم جواز ذلك وطلب من شيخ بلد (بني سيف) أن يمنع هؤلاء الصوفية من القيام بسماعهم في الليل فأجابه الى ذلك ومكثوا مدة لا يقومون بسماعهم حتى توفي ذلك الفقيه الساعي في اسكاتهم وهو الفقيه عبد الله الكاهلي المتوفى سنة ٨٣٥ فعاد الصوفية الى عادتهم القديمة[3] . وهذا نموذج مما كان يقام في قرية صغيرة من قرى (معشار حصن ريمان الجاح) أمافي مدينة تعز وزبيد وغيرهما من المدن الكبيرة فالحياة مليئة بالاذكار والعبادات وكان الشيخ اسماعيل بن أبي بكر الجبرتي المتوفى سنة ٨٠٦ يقوم بحفلة السماع في مسجده بزبيد طبلة الليل الى أذان الفجر وربما وصلت أصواتهم الى قصر الملك المجاهد فلا يرى بأسا في ذلك[4] .

* * *

---

(١) المصدر السابق ص ٥٠
(٢) المصدر السابق ص ٣٥
(٣) المصدر السابق ص ٣٥
(٤) المزحاحي : هدية السالك (مخطوط)

الحياة العلمية

انتشر العلم في عصر بني رسول وعم أكثر المدن والقرى اليمنية • ومع ذلك نجد المؤرخ الجندي كعادته في وصفه للاحداث ودقته يتسكو من علبة الجهل على بعض المدن والقرى ويصف مدناً بأكملها بالجهل كمدينتي حيس ورمع على الرغم من قربهما لمدينة زبيد مدينة العلم والنور • وفي رحلانه العديدة الى القرى اليمنية لا يموته أن يعلق على الحالة العلمية لتلك البلدان فعندما دخل مدينة المخادر سنة ٦٧٢ نجده يقول (لم أجد فيها من العلماء سوى فقيه واحد) وأما القرى الصغيرة فحدث عن جهل أهلها ولاحرج حتى بلغ بهم الامر أنهم اذا حدثت لهم حادثة فقهية انفقوا عليها بالمصالحة والتراضي ، وقد وصف الجندي أيضا (قرية الداية) من جبل سورق بالعامية وهذه حضرموت بأكملها يصف الجندي أهلها بالبداوة الشديدة والجهل •

أما عدن فسبب قلة العلماء بها اشتغال أهلها بالتجارة وهي مع ذلك ، أول ما يقابل الزائر اذا دخل اليمن فيعتقد كثير من الزوار أن جهل أهل عدن شامل لكثير من المدن اليمنية ولذلك قال أحدهم لما دخل عدن[1] :

لما دخلت اليمنا   رأيت وجهي حسنا
أفّ لها من بلدة   أفقه من فيها أنا

لكن العلم قد قوي شأنه بعد ذلك وأصبح له مراكز علمية كبيرة يؤمها الطلبة من كل صوب بل أصبحت مدينة زبيد ثالثة المدن العلمية في جزيرة العرب بعد مكة والمدينة يفد اليها العلماء بعد فراغهم من الاخذ عن علماء مكة والمدينة وكان لتشجيع ملوك الدولة الرسولية للعلماء أثر في إحياء تلك النهضة الفكرية الكبيرة في اليمن ومنهم من تشرب بحب العلم وساهم فيه بالعديد من المصنفات

---

(١) السلوك (محطوط)ص ٣٤٦ •

كالملك المظفر يوسف المتوفى سنة ٦٩٤ هـ الذي صنف في علم الفلك والطب كتباً كثيرة منها كتاب (تيسير المطالب في تسيير الكواكب) و (المخترع في فنون الصنع) و (العقد النفيس في مفاكهة الجليس) وغيره من الكتب ٠ وصنّف ابنه الملك الاشرف عمر بن يوسف المتوفى سنة ٦٩٦ كتابا في الاسطرلاب وكتاب التبصرة في علم النجوم وكتاب الجامع في الطب والمعتمد في الادوية المفرد وكتاب المغني في البيطرة ، وفي علم الزراعة كتاب التفاحة في علم الفلاحة،وفي الأنساب كتاب طرفة الاصحاب وتحفة الآداب في الانساب وغير ذلك من الكتب ٠ أما أخوه الملك المؤيد فله عدة كتب أكثرها في علم الادب وكتاب في (البيزرة)٠ والملك المجاهد علي بن داود المتوفى سنة ٧٦٤ اهتم بوجه خاص بطب الحيوان فألف كتاب (الأقوال الكافية والفصول الشافية) بحث في آخره الوباء العام الذي وقع في اليمن في عصره وأهلك الكثير من خيول الدولة ٠ وألف الملك الأفضل عباس بن علي المتوفى سنة ٧٧٨ مصنفات في عدة علوم كعلم السياسة صنف فيه كتابه (نزهة الظرفاء وتحفة الخلفاء) وهو مبوب على فصول٠وفي علم الزراعة وضع كتابا بعنوان (بغية الفلاحين في الاشجار المثمرة والرياحين) ووضع في علم التاريخ عدة كتب جيدة ككتابه (العطايا السنية والمواهب الهنية في المناقب اليمنية) وكتاب (نزهة العيون في طوائف القرون) ، وفي الانساب كتاب (بغية ذوي الهمم في معرفة أنساب العرب والعجم) وغيره ٠

ومن المؤرخين من يشكك في نسبة تلك الكتب الى الملك الأفضل ويزعم أنها من تأليف قاضي تعز الفقيه أبي بكر بن محمد بن يوسف الصبري وضعها على لسان الملك الأفضل[1] ٠ ولايخلو هذا القول من الصحة ، حيث إن من عادة ملوك الدولة الرسولية المباهاة بتلك المصنفات وان لم تكن من تأليفهم ٠ وكان الملك المظفر يفاخر في رسالة بعثها الى الظاهر بيبرس أن لابنه مصنفا في علم الطب[2] وآخر من اشتغل بالتأليف من ملوك الدولة الرسولية هو الملك الاشرف

(١) الفاسي ٠ العقد الثمين في تاريخ البلد الامين ج ٥ ص ٩٦
(٢) العقود اللؤلؤية ج١ ص ٢٧٨ ٠

اسماعيل بن عباس المتوفى سنة٨٠٣وكان من عادته في التأليف أن يشرع في أبواب الكتاب الرئيسية ثم يأمر من يتمها بعد ذلك[1] • وقد وضع المؤرخ الخزرجي عدة كتب على لسانه ككتاب (العسجد المسبوك) وكتاب (فاكهة الزمن في أخبار من ملك اليمن) •

وعلى العموم فان اشتغال ملوك الدولة الرسولية بالتأليف يدل على اقبالهم على العلم وحرصهم على الانتساب اليه • وقد تميزت مصنفاتهم بظاهرة فريدة قد لاتتكرر في تاريخ الفكر اليمني قاطبة وهي الاهتمام بالجانب العلمي من البحث فكتبوا في علم الفلك والطب والزراعة والبيطرة وغيرها من المواضيع العلمية التطبيقية في حين كان معاصروهم من ملوك الدول الاسلامية منشغلين بقضاياهم الخاصة والعامة ولم يعيروا الجانب العلمي أدنى اهتمام ، أما معاصروهم من الأئمة الزيدية في اليمن فقد ساهموا بدورهم في التأليف وربما فاقوا ملوك الدولة الرسولية في هذا الجانب إلا أن كتبهم ظلت محصورة بينهم •

وقد بلغ من حرص ملوك الدولة الرسولية على العلم أن يتفرغوا للدراسة على فقهاء اليمن • فهذا الملك المظفر يقرأ على الفقيه محمد بن إسماعيل الحضرمي وعلى الفقيه محمد بن ابراهيم الفشلي في علم الحديث وعلى الفقيه محب الدين الطبري في علم الحديث أيضا وعلى الفقيه ابن العمك في علم النحو وكان الفقيه محمد بن عبد الله الريمي يقول طالعت كتب الملك المظفر فوجدتها كلها مضبوطة بخطه حتى من رآها يقول لم يكن له شغل طول عمره الا بالعلم بل بلغ الامر بالملك المظفر أن يبعث برسالة الى خراسان للبحث عن النسخة الأم من تفسير القرآن للامام للرازي لوجود نقص في نسخته فيظفر بها بعد جهد ويجد النقص كما هو عنده في نسخته • وكان الملك المؤيد يحفظ عدة كتب من أمهات الفنون ككتاب مقدمة طاهر في النحو وكتاب كفاية المتحفظ في اللغة والجمل للزجاجي والتنبيه للشيرازي وغيره •

---

(١) السخاوي : الضوء اللامع ج ٢ ص ٢٩٩ •

وكانوا يحرصون على مجالس العلم والمشاركة فيها وقد جعلوا شهر رمضان خاصا بمقابلات العلماء والاجتماع بهم ويصف ابن المقري مجالسهم في شعره فيقول مخاطبا الملك الاشرف :

وحلقة علم يسقط الطير فوقها منزهة الأرجا عن اللغو والهجر
بها ظل أهل العلم حولك عكّفا كما عكفت زهر النجوم على البدر[1]

وهذا يجرنا الى الحديث عن تكريم الدولة الرسولية للعلماء وتشجيعها للبحث العلمي . وقد كرمت الدولة الرسولية العلماء في شخص الفقيه العلامة محمد بن عبد الله الريمي عندما انتهى من كتابة موسوعته الفقهية (التفقيه شرح التنبيه) بأن حمل كتابه على رؤوس الطلبة الى قصر الملك وكافأه عليه بثمانية وأربعين ألف درهم . ويقال إنه أول مادخل على الملك المجاهد أعطاه أربعة شخوص ذهبية وزن كل واحد منها مائة مثقال وكتب على كل واحد منها شعرا :

اذا جادت الدنيا عليك فجد بها على الناس طرّاً قبل أن تتفلّت
فلا الجود يفنيها اذا هي أقبلت ولا الشحّ يبقيها اذا ما تولّت[2]

وعندما حمل كتاب (الاصعاد في الاجتهاد) للفيرزابادي الى باب السلطان الاشرف احتفل بالفراغ منه بالطبول والاغاني وكافأه عليه بثلاثة آلاف دينار ، وكان ملوك الدولة الرسولية يرغبون في العلماء ونادرا ما يسمحون لهم بالرحلة من اليمن[3] . ومن طريف ما يذكر أن الفيروزابادي طلب من الملك الاشرف السماح له بالعودة الى مكة فكتب اليه الملك الاشرف يقول : (ان هذا شيء لاينطق به لساني ولايجري به قلبي فقد كانت اليمن عمياء فاستنارت فكيف يمكن أن تعزموأنت تعلم أن الله قد أحيا بك ما كان ميتا من البلد فبالله عليك الا ماوهبت لنا بقية هذا العمر والله يا مجد الدين يميناً بارة اني أرى فراق الدنيا ونعيمها ولا فراقك أنت اليمن وأهله)[4] . وهذا يدل على إعزاز الملك الأشرف للعلماء وتكريمه لهم . وربما سامح الكثير منهم في ضرائب أراضيهم ومزروعاتهم .

(١) ديوان المقري ص ٨٣
(٢) قرة العيون ج ٢ ص٩٢ وتاريخ اليمن في عصر الدولة الرسولية لمجهول ص٤٥
(٣) العقود اللؤلؤية ج ٢ ص ٢٩٧
(٤) الضوء اللامع ج ١ ص ٨٤

وأعفى جماعة كالفقيه علي بن أحمد الاصبحي المتوفى سنة ٧٠٣ والفقيه عبد اللطيف بن أبي بكر الشرجي المتوفى سنة ٨٠٢ والمؤرخ علي بن حسن الخزرجي المتوفى سنة ٨١٢ وغيرهم كثير من الصوفية وأهل الدين • ويقول الحبيشي إنه جرت العادة أن جميع الفقهاء في وصاب وغيرها لايدفعون نسبئا للدولة على مزروعاتهم •

وكان تقرب ملوك الدولة الرسولية الى العلماء صورة واضحة من صور محبتهم للعلم • وقد علت الهمة ببعضهم الى أن يراسل مشاهير العلماء خارج اليمن ويستكتبهم في القدوم الى البلاد كما سنرى في فصل لاحق(١) ولذلك يقول العمري إن صاحب اليمن برغب دائما في استقدام الغرباء(٢) وربما استوفد الى اليمن جماعة من ذوي الاختصاصات المختلفه كالصناعة وعلم الفلك والموسيقا فقد ذكر الخزرجي أن الملك المؤيد استقدم الى البمن سنة ٧٢٠ عالم الهيئة والهندسة الأمير بدر الدين حسن بن أحمد بن المختار وكان حسب تعبير الخزرجي « عارفا بعلوم الأوائل ولم يكن في الديار المصرية والسامية من يناسبه في معرفة علم الهيئة والهندسة والمنطق وقد فرح السلطان بوصوله فرحا شديدا »(٣) وبين يدي الملك المظفر وضع العلامة محمد بن أبي بكر الفارسي المتوفى سنة ٦٧٥ كتبه في علم الموسيقا ككتاب (دارة الطرب) وكتاب (الالحان) وغيرهما • وكذلك وضع هذا العالم كتابه (الزيج) في علم الفلك وأسماه باسم الملك المظفر والذي يهمنا هنا هو الاشارة الى رغبة ملوك الدولة الرسولية في نشر العلوم على مختلف أنواعها ، وقد مر بنا مساهمة ملوكهم في بعض العلوم المجردة كالفلك والطب والهندسة والزراعة وغير ذلك وهو أمر جديد على اليمن لم تعهده من قبل •

---

(١) ألغينا هذا الفصل بعد تضخم الكتاب ونحيل القارىء الكريم الى مقالنا المنشور في مجلة اليمن بعنوان : العلماء القادمون الى اليمن في العصر الرسولي ، انظر اليمن الجديد العدد الاول محرم سنة ١٣٩٤ هـ •

(٢) مسالك الابصار

(٣) العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٤٣٥

وكانت العلوم الاسلامية مصدر رواج كبير في ذلك الوقت أقبل عليها العلماء في زبيد وغيرها حتى أصبح الفقهاء بمكانة عالية في الدولة • قصدهم الملوك وطلبوا ودّهم ، وربما رحل الملك المظفر وهو في إبان ملكه الى منزل الفقيه أحمد بن محمد الزبراني في (سهفنة) وأكل معه في بيته كسرات خبز يابسة[1]، وعندما علم بعلو سند الفقيه عبد الله بن يحيى الهمداني في (كتاب البيان) طلب حضوره من قريته وقرأ عليه الكتاب بأكمله وكذلك كان ينزل المظفر عند الفقيه محمد بن اسماعيل الحضرمي بقرأ عليه في (صحيح البخاري) مع شدة انكاره عليه وولاه القضاء على كراهة منه ••

ونستخلص من كل هذا أن الدولة الرسولية كرمت العلماء واعتنت بالبحث العلمي حتى تفرغ العلماء لدروسهم وكتاباتهم وهم في هدوء تام وراحة بال •• وقد خصصت الدولة للعلماء أوقافاً كبيرة وجعلت جزية اليهود خاصة بمرتباتهم• ومن العلماء من يحصل على مرتبات إضافية غير المقرر الرسمي كالفقيه عبداللطيف ابن أبي بكر الشرجي الذي كان يحصل في كل شهر على مرتب قدره ثمانمائة درهم مع جماعة من العلماء وذلك بعد أن أتم السلطان الملك الاشرف على الفقيه قراءة كتب النحو وأمره بتصنيف شرح (ملحة الاعراب) وشرح (مختصر ابن عباد) ولما ختم الكتاب أجازه السلطان بجائزة سنية وكساه كسوة فاخرة وأركبه بغلة حسنة وجعل له أرزاقا من جملة المرتزقين في كل شهر ثمان مئة درهم وسامحه في خراج أرضه ونخله • وهذا غاية التكريم ••

ومع ذلك لم يكن كل العلماء في حالة متساوية من الرخاء المادي ومنهم من استلم مرتبات سنوية مقابل قيامه بالتدريس في مدارس الدولة الرسولية • ونادراً ما كانت هذه المرتبات تسد كل حاجات العلماء الشخصية ، فيعوض ذلك النقص بالاشتغال في بعض الاعمال التجارية وقد مارس التجارة كثير من علماء

---

(١) السلوك (مخطوط)

الدولة الرسولية كالفقيه حسين بن علي العدني المتوفى سنة ٦٣٠ الذي اشتغل بجانب التدريس بالتجارة في الموة ، وكالفقيه محمد بن أحمد الغيثي المتوفى ٦٥٩ . كان أثناء تدريسه يتعاطى بيع العطر في مدينة عدن . ومنهم من بُلِيَ بالفقر نتيجة الورع الشديد بل نجد منهم من حرص كل الحرص على عدم أخذ شيء من أموال الدولة مع شدة الفقر وكثرة العيال ، وهذا هو الفقيه أبو بكر بن علي الحداد المتوفى سنة ٨٠٠ يصاب بكثرة الاولاد مع الفقر المدقع فيأتيه أحد عمال الدولة بمال كثير من الملك الافضل يقدر بنحو مائة دينار فيرفض أن يأخذها ويقول للخادم ارجع بها الى السلطان يصرفها في مصالح المسلمين . وكان أكثر تكسبه من النساخة . وكانت النساخة حرفة كثير من العلماء الورعين الذين حرصوا على البعد عن أبواب السلطان . ومن هؤلاء الفقيه أحمد بن أبي بكر البريهي المتوفى سنة ٨٢٥ « عاش على طريقة السلف الصالح من الاشتغال بالعلم والعمل والورع وكان معظم قوته من أجرته على نسخ كتاب الله تعالى (القرآن) وكتب الحديث والفقه واذا جمع من ذلك ما يسد خلله (جوعه) نسخ لنفسه كتباً كثيرة بخطه » . ومع ذلك فهذا الفقيه كان من كبار علماء اليمن وله مصنفات في علم الفقه والحديث سنذكرها فيما بعد . ومنهم من اشتغل بالزراعة وجعلها حرفته كالعلامة الفقيه موفق الدين علي عطية الدملوي المتوفى سنة ٨٣٦ والحديث عن حرف العلماء يطول لو أردنا استقصاء ذلك . وربما رجعنا الى هذا الموضوع عند كلامنا على مرتبات المدرسين في الدولةالرسولية.

وكان العلماء من أحرص الناس على نشر العلم وتلقيه ولايهمهم في ذلك ما يلاقونه من صعاب وقد بلغ الامر ببعضهم أن يترك الزواج ليتفرغ للعلم(١) . وكثير منهم من قطع المسافات الكبيرة لطلب العلم فرحلوا الى مصر والشام والعراق وقد كثرت رحلاتهم في هذا العصر الذي ندرسه فرحل الى مصر الفقيه أبو القاسم بن موسى الذؤالي وتوفي بها ورحل الى دمشق العالم المفسر يحيى بن أبي

(١) تحفة الزمن ج ٢ ص ٨١ و ٨٨

القاسم العلوي وقد دخل أيضا مدينة بغداد والري والديلم • ومن الرحلات العلمية الناجحة في ذلك الوقت رحلة العلامة اليمني أحمد بن محمد الشرعبي المتوفى سنة ٨٣٧ دخل دمشق ومكث بها مدة يطلب العلم حتى توفي بها • ويذكر البريهي كثيراً من تلك الرحلات العلمية كرحلة محمد بن عمر الشعبي دخل دمشق للاخذ على شيخها ابن الوردي وهو أول من أدخل كتاب (البهجة) في الفقه لشيخه المذكور • ورحل الى مصر والشام من أهل تعز الفقيه علي بن سعيد الزبيدي من علماء آخر العصر الرسولي وغيره كثير • وهذا يدل على حرص علماء اليمن على الأخذ عن علماء الاسلام في شتى أقطارهم وان كان الأكثر منهم قد اكتفى بالأخذ عن العلماء الوافدين الى مكة والمدينة وهم الأغلبية حيت نجد أكثر أولئك العلماء قد حجوا الى مكة ومنهم من عرج الى اليمن لقرب المسافة •

وكان ابتهاج العلماء في اليمن أشد ما يكون بالكتب • حتى أرَّخ بعضهم دخولها واحتفل بها فقد ذكر (الجندي) احتفال العلماء بدخول شرح (العزيزي) في الفقه وحرص شيخه الاصبحي على نسخه • وعندما دخل اليمن لأول مرة كتاب (مغني اللبيب) في النحو لابن هشام احتفل به الأدباء في صنعاء وقرظوه بالعديد من الرسائل من ذلك ما كتبه الاديب ابراهيم بن يحيى بن قاسم الهادي الذي يقول في أول تقريظه:(لما وصل الأخ أحمد بن محمد اليريمي أبقاه الله الى صنعاء مصحوبا بما يشرح الصدور من علوم الاعلام الصدور وبما تقرّ به العيون من فنون الأفنان العيون • وكان مما استصحب من دفاتر علومهم وذخائر معلومهم كتاب العلامة ابن هشام المسمى (المُغْني) في دقائق مسائل الإعراب فأتحفني بعاريته أياما وهو بغيتي المقصودة وضالتي المنشودة)[1] الخ • ولا نستغرب من ذلك الاهتمام من قبل علماء اليمن بدخول الكتب فقد كان ملوك الدولة الرسولية بإشارة من العلماء قد احتفلوا بها غاية الاحتفال حتى كان ذلك تقليدا

(١) انظر الرسالة في مطلع البدور (خ) •

مُتَّبَعاً عند ملوك الدول المتأخرة كالدولة الطاهرية التي اقتفت في أسلوبها أسلوب ملوك (آل رسول) فقد ذكر المؤرخون أنه لما وصل لأول مرة الى مدينة زبيد (كتاب فتح الباري بشرح صحيح البخاري) لابن حجر العسقلاني سنة ٩٠١ احتفل به السلطان عامر الطاهري احتفالا كبيرا[١] ٠

وقد حرص العلماء على اقتناء الكتب ونسخها ونادرا ما يموت العالم منهم دون أن يترك مجموعة كبيرة من الكتب فتصير بأيدي ورثته لا يقدرون قيمتها وقد باع ورثة الفقيه عبد الله بن محمد المخلافي كتب والدهم بأبخس ثمن مع حرصه في العناية بها في حياته ٠ وبيع كتاب الوجيز للغزالي من جملة كتب سعيد ابن عبد الله من ناحية الشوافي بعشرة دنانير تقديراً لمالكه ٠ ولما توفي الفقيه بكر ابن يحيى الفردساني بحث الجندي عن كتبه فلم يقف على شيء منها وقيل له أن ابنه مال الى صحبة الأمراء فأهدى أكثر كتب والده اليهم عن طريق التقرب اليهم ٠ ويحدثنا البريهي عن كتب العلامة الكبير محمد بن أبي بكر الخياط بعد وفاته فيقول : (إنها تفرقت بعد أن جمعها واجتهد في تحصيلها وضبطها وهي زيادة على سبعمائة كتاب) ٠ وكذلك كتب الفقيه موسى بن أحمد الوصابي المتوفى سنة ٧٢١ يقول الحبيشي في تاريخ وصاب إنه لما مات غفل ذريته عن كتبه سنتين فأصابها بلل وكانت نحو خمسمائة مجلد فتلفت كلها ولم يبق إلا اليسير ٠ لذلك حرص العلماء قبل وفاتهم على وقف كتبهم وحبسها على طلبة العلم ٠٠ كالعلامة أحمد بن محمد البريهي الذي حصر وقف كتبه على أتباع عقيدة أحمد بن حنبل وقد وقف الجندي في القرن السابع الهجري على نص وقف كتبه فوجد مكتوباً بخط البريهي على أحد أجزاء البخاري يقول : (وقفه أحمد بن محمد وجميع الكتب المنسوبة اليه من الحديث والأصول والفروع والفرائض والتفسير واللغة والنحو وهي ثمانون كتابا على أهل السنة ممن وجد فيهم الشروط فمن خرج عن الشرط ببدعة أو ما ترد به الشهادة خرج من الوقف ولا حقّ في الوقف لمبتدع

(١) انظر خبر هذه الطريقة في بغية المستفيد (خ) ٠

وإذا لم يبق مستحق من نسل الوافف فأهل السنة فيها سواء أبدا ما بقيت لعن الله من ينملكها أو يملكها أو يسعى في فساد الوقف أو يكتمها على من يستحقها أو يعيرها من لاينتفع بها اذا سئل بسرط الحفاظ ، كتبه أحمد بن محمد تقبّل الله منه • كتب بتاريخ ٥٨٤) • فهذا أقدم نص في وقف الكتب وسنجد العلماء بعد البريهي فد حرصوا على وقف كتبهم • وكان الفقيه محمد بن مضمون بن عمران المتوفى سنة ٦٣٣ يقتفي أثر شيخه البريهي في وقف كتبه ويكتب على كل كتاب منها هذه الابيات :

وقفٌ حرامٌ وحبس دائمُ الأبدِ	بقاء رجا ثواب الواحدِ الصمدِ
على الحنابلةِ المشـــهور مذهبهم	من آل بيت أبي عمـــران ذي الرشد
ثم الحنابل طـــرّاً بعد أن عدموا	سيّـــان غائبهم أو حاضـــر البلـــد
لا حـــظّ فيـــه لبدعي يخالفنـــي	أو كان معتقداً ما ليس معنقدي •• الخ

أما الفقيه أحمد بن محمد الشاوري المتوفى سنة ٨٣١ فإنه أوقف كتبه على أولاده وأحفاده وشرط أن كل من ترك الصلاة منهم لا حظّ له في الوقف • وهكذا تتعدد صيغ الوقفيات والقصد منها حفظ الكتب بعـــد موت أصحابها وكانت هذه الوقفيات والتمليكات عليها مستندا رئيسيا للمـــؤرخ الجندي في معرفة أسماء العلماء وأماكن وجودهم فلا يسأل على شيء اذا وصل الى قرية أو مدينة الا على بقايا تلك الكتب وتصفحها •

وما دمنا بصدد الحديث عن الكتب فلا بد أن نقف عند المكتبات في ذلك العصر فهي الزاد الرئيسي لطلاب العلم ••

وفي زمن قلة الكتب تكون هذه المكتبات هامة إذ ليس باستطاعة كل الناس الحصول على الكتب إلاّ بمشقة كبيرة من نساخه وأثمان باهظة وقد عرف كثير من العلماء بقلة الكتب لتلك الصعوبات حتى إن بعضهم آثر الهجرة من قريته ليكون في مدينة نضم مكتبة عامة كالفقيه مقبل بن خلف الهمداني المتوفى سنة

٥٧٩ الذي استقر بمدينة (ذي أشرف) ليكون على صلة بمكتبتها الموقوفة (فانه كان قليل الكتب)[١] •

ولايتحصل على الكتب إلا من كان ذا سعة وأموال كثيرة وفي مقدمة هؤلاء ملوك الدولة الرسولية الذين جمعوا لأنفسهم مكتبات كبيرة وربما عينوا في دواوينهم من يقوم بنسخ الكتب الجديدة الوافدة الى اليمن وكان مكتب الملك المؤيد الرسولي يضم نحو(عشرة نسّاخ ينسخون الكتب وترفع الى خزانته بعد مقابلتها وتحريرها)[٢] وقد ضمت مكتبة هذا الملك نحو مائة ألف مجلد ويحمل اليها الكتب النفيسة من كل صوب حتى أنه وصل اليه نسخة جيدة من كتاب الأغاني بخط ياقوت المستعصي فبذل فيها مائتي دينار ••

وكان الملك المظفر يبعث الى خارج اليمن من يبحث له عن نوادر المخطوطات وقد ذكر الجندي واحداً من أولئك الرسل وهو الفقيه شرف الدين الاربلي[٣] وكذلك الملك الأفضل والمؤيد وغيرهما • ولا نزال بعض مقتنيات مكتبات ملوك الدولة الرسولية محفوظة الى الآن[٤]•

وقد حذا حذوهم في جمع الكتب جماعة من صغار الامراء وأثرياء العلماء منهم الامير عبد الله بن العباس الحجاجي المتوفى بتعز نحو سنة ٦٧٠ وقد ضمت مكتبته أكثر من خمسة آلاف مجلد وكالعلامة أبي الخير بن منصور الشماخي

---

(١) بن سمرة : طبقات فقهاء اليمن ص ١١٥

(٢) ابن عبد المجيد بهجة الزمن ص ١٣٣

(٣) الجندي : السلوك ويذكر السخاوي في الضوء اللامع ج ١٠ ص ١٤ « ان الفقيه محمد بن محمد المخزومي المتوفى سنة ٨١٧ هـ قدم الى زبيد من مصر وعمل في النساخة المعروفة عند الملك الاشرف »•

(٤) من هذه الكتب الموجودة الى الآن نسخة من كتاب لباب الالباب لابن خلف النحوي من مكتبة الملك المظفر يوسف بن عمر الرسولي وعليها خطه محفوظة بمكتبة حسن حسني بنونس ونسخة من كتاب التفقيه شرح التنبيه للريمي النسخة التي بعثها الى الملك المجاهد وكافأه عليها بتعز • ونسخة من كتاب منتخب الفنون للعلوي من مكتبة الملك المؤيد الرسولي كتبت سنة ٧٠٤ ومحفوظة الآن بمكتبة الاستاذ حسين محفوظ ببغداد الى غير ذلك •

المتوفى سنة ٦٨٠ يقول الجندي في وصف مكتبته[1] (جمعت خزانته من الكتب ما لم يجمعه غيره من نظرائه بحيث قيل إن فيها مائة أصل سوى المختصرات) ومن أصحاب المكتبات في ذلك الوقت الشيخ أبو بكر بن محمد التميمي المتوفى في سنة ٦٩٦ جمع مكتبة كبيرة أوقفها على طلبة العلم بمدينة صنعاء[2] ومنهم الأديب الموسوعي عمر بن علي العلوي المتوفى سنة ٧٠٣ ضمت مكتبته مجموعة نادرة من الكتب بلغ مافيها من الدواوين الشعرية وحدها نحو خمسمائة ديوان[3] وكذلك الامير محمد بن محمد الحسام توفي سنة ٧٠٧ (جمعت مكتبته من الكتب ما لم تجمعه مكتبة أحد من نظرائه) • ومن المكتبات في هذا العصر أيضاً مكتبة الفقيه المحدث سليمان بن إبراهيم العلوي المتوفى سنة ٨٢٥ حوت مكتبته في تعز مجموعة نفيسة من الكتب ومكتبة العلامة محمد بن سعيد بن كبن المتوفى سنة ٨٤٢[4] ضمت مكتبته نحو ألف كتاب أكثرها من نسخ يده والبعض بالشراء • وآخر مانذكره من جماعي الكتب في ذلك العصر الفقيه محمد بن داود الوحصي المتوفى سنة ٧٠٧ حوت مكتبته ألف مجلدة أغلبها جاءته بالشراء • فهذه نبذة صالحة من أسماء المكتبات في العصر الرسولي تدلنا على إقبال العلماء في ذلك العصر على أنه من المفيد أن نشير الى أن تلك المكتبات كانت في عمومها مقصدا لطلاب العلم على الرغم من ملكية أصحابها لها ونادرا ماكانوا يحرمون المستفيدين منها بل نجد البعض منهم قد أوقفها على العلماء بعد وفاته ومع ذلك فان مدارس بني رسول قد ضمت أيضا مجموعات نفيسة من الكتب الفقهية بذلت لسائر الطلبة على مختلف ميولهم وكانت مدرسة الرشيدية بتعز تضم مكتبة ثمينة وغيرها من المدارس الآتي ذكرها .

---

(١) الخزرجي · العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٣٥٧ ·
(٢) المصدر السابق لوحة ٤٦١
(٣) ابو مخرمة تاريخ تعز عدن ص ٩٥
(٤) تاريخ البريهي لوحة ٢٤٥

التعليم

إذا تجاوزنا العلم والعلماء في العصر الرسولي فسنجد التعليم قد مثل مظهراً آخر من مظاهر الحياة العلمية في ذلك الوقت وقد شرف العصر في تلك المدة بكثرة المدارس حتى أصبح المنطلق الحقيقي لبداية النهضة التعليمية في اليمن وقد ولع سلاطين الدولة الرسولية بانشاء المدارس على مختلف أنواعها وهم مقتفون في ذلك آثار أسلافهم بني أيوب في اليمن ومصر حيث تفنن هؤلاء في إنشاء المدارس الفخمة في مصر ودمشق ومن يتأمل كتاب الخطط للمقريزي يجد مصداق ماقلناه أما في اليمن فقد كانت لهم مدارس كبيرة لعل أقدمها المدرسة السيفية التيأنشأها بتعـز المعز بن اسماعيل بن طغتكين سنة ٦٩٣ ونسبها الى والده سيف الاسلام طغتكين وهي كما يقول المؤرخ يحيى بن الحسين (أول مدرسة أنشئت باليمن) وفي هذا العصر أيضاً أسس الامام عبد الله بن حمزة مدرسته في صنعاء كما أسس الأتابك سنقر بن عبد الله المتوفى سنة ٦٠٨ مدرسنين بزبيد احداهما تسـمى المدرسة العاصمية والأخرى (الدحمانية) نسبة الى مدرسين بهما وهكذا أسس العصر الايوبي في اليمن فكرة المدارس العلمية فورثها عنهم بنو رسول وتوسعوا فيها توسعاً كبيراً حتى عمت المدارس أغلب القرى والمدن اليمنبة على الرغم من عدم تشجيـع بعض العلماء لهم في بنائهـا وقد هجاها أحدهم بشعر يفضل فيه المساجد على المدارس فقال :

بع المدارس لو علمـت بدارسٍ   يغلوا وأخسر صفقة للمشتري
دعْهـا ولازم للمسـاجدِ دائمـاً   إن شئت تظفر بالثواب الأوفر

وكانت المدارس بجانب اهتمامها بالتعليم ملجأ للغرباء والتجار يقصدونها عند أول نزولهم حتى إنها قامت في فترة من الزمن بدور الفنادق والسماسر مما دلّ على عدم احترام الناس لها في أول ظهورها • وقد شهدت المدارس في ذلك

العصر التخصص العلمي لأول مرة بانشاء الملك المنصور عمر بن علي الرسولي ثلاث مدارس متخصصة بتدريس المذهب الشافعي والمذهب الحنفي وعلم الحديث وسبب ذلك أن الملك المنصور لما أنشأ مدرسة للشافعية غضب عليه الأحناف وقال له فقيههم العلامة أبو بكر بن عيسى بن حنكاس : (مافعل بك أصحاب أبي حنيفة فقال له السمع والطاعة يا فقيه وبنى المدرسة المنصورية السفلى لأصحاب مذهب أبي حنيفة) ثم تعددت المدارس وشارك في بنائها بجانب الملوك جماعة من الأمراء والعلماء والتجار . وسنستقصيها بقدر الطاقة والإمكان في هذا التبت المختصر فإليك هذه المدارس كما ذكرها الجندي وغيره من مؤرخي الدولة الرسولية[1]:

أولا ـ مدارس زبيد :

المدارس المنصوريات : هن ثلاث مدارس أنشأهن الملك المنصور عمر ابن علي الرسولي بزبيد إحداها المدرسة المنصورية العليا خاصة بالمذهب الشافعي. والثانية المدرسة المنصورية السفلى للمذهب الحنفي . وقد درس بهاتين المدرستين جماعة من الاساتذة منهم أحمد بن سليمان الحكمي المتوفى سنة ٧٠٣ درّسا في المدرسة الاولى ، وفي الثانية درّس فيها الفقيه أبو بكر بن عيسى السراج المتوفى سنة ٧٠٥ والفقيه علي بن نوح المتوفى سنة ٧٥١ والفقيه أبو بكر بن علي الهاملي المتوفى سنة ٧٦١ وغيره كثير .

وللمنصور مدارس أخرى غير السابقتين منها مدرسة أهل الحديث بزبيد وأخرى بحد المنسكية .

المدرسة التاجية

هي من قديمات المدارس بزبيد أسسها الطواشي تاج الدين بدر بن عبد الله المظفري وكان من مماليك الاميرة « بنت حوزه » زوجة الملك المنصور عمر ابن علي وتوفي سنة ٦٤٥ وتعرف هذه المدرسة باسم آخر هو «مدرسة المبردعين» وسبب تسميتها بهذا الاسم هو أن صناع البرادع يتجمعون عندها فسميت بهم.

(١) وللتوسع في هذا الموضوع يراجع بحثنا المنشور في مجلة الغد .

وهي متخصصه في دراسه الفقه • وأوكل الاشراف عليها الى القصاد بني محمد إبن عمر ودرس فيها الفقيه علي بن عبد الله الزيلعي أحد علماء الفرائض والحساب في العصر الرسولي توفى سنه ٧١٤ ومن المدرسين بهذه المدرسة أيضا الفقيه أبو العباس أحمد بن صالح بن اسماعيل الحضرمي المتوفى سنة ٧٢٢ •

مدرسة القراء :

من انشاء الطواشي تاج الدين السابق خصصها لقراء القراءات السبـــع وعيَّن فيها إماماً للصلاة ومؤذناً للصلوات الخمس وأوقف عليها أوقافاً طائلة • ولهذا الطواشي مدرسة أخرى بمدينة زبيد خصصها لقــراءة الحديث النبوي وعليها أوقاف كسائر المدارس السابقة •

المدرسة النظاميه :

هي من أشهر المدارس فى زبيد أسسها الطواشي نظام الدين المظفري من شجعان الدولة الرسولية توفي سنة ٦٦٦ وتناوب التدريس فيها جماعة منهـم الفقيه علي بن محمد تمامة المتوفى سنة ٧٨٧ أحد مشاهير الفقهاء في عصره ومن مصنفاته في الفقه مختصر المنهاج للنووي • ومختصر كتاب المعين للفرضي•

المدرسة الدعاسية :

نسبة الى مؤسسها الفقيه الادب سراج الدين أبو بكر بن عمر بن دعاس المتوفى سنة ٦٦٧ ويحدد موقعها في القرن الثامن الفقيه المؤرخ علي بن حسن الخزرجي فيقول : « تقع مابين سوق المنجارة والسوق الكبير في زبيد » وقد خصصها لقراءة الفقه الحنفي ومن المدرسين فيها الفقيه ابراهيم بن مهنا المتوفى ســـنة ٧٤٣ •

المدرسة الشمسية :

أسستها بزبيـــد الاميرة الدار الشمسي ابنـــة الملك المنصـــور وهي من

أوائل النساء المحسنات في العصر الرسولي توفيت سنة ٦٩٥ • ومدرستها تقع جنوبي سوق المعاصر كما يقول الخزرجي وعليها وقف كبير يقوم بكفايتها • .

المدرسة العفيفيه :

من انساء الملك المؤيد داود بن يوسف المتوفى سنة ٧٢١ درس بها الاديب عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني المنوفى سنة ٧٤٤ •

المدرسة السابقية :

وسمى أيضا مدرسة مريم نسبة الى مؤسستها السيدة مريم بنت الشيخ الشمسي بن العفيف زوجة الملك المظفر المتوفاة سنة ٧١٣ يقـول الخزرجي في وصف هذه المدرسة « وهي من أحسن المدارس وضعا رتَّبَ فيها إماماً ومؤذناً ومعلما وأبناما يتعلمون القرآن ومدرسا للفقه على المذهـب الشافعي ومعيدا وطلبة وأوقف على الجميع وقفا يقوم بكفايتهم » وأول من درس بها من الاساتذة الفقيه أبو الحسن الشرعبي المتوفى سنة ٧٠٢ وقد أقام مدرسا بها عدة سنوات على كبر سنه وضعف قواه ••

المدرسة الفاتنية :

من مدارس زبيد لم أتحقق تاريخها ودرس بها الفقيه عمر بن علي الزيادي السابق الذكر • تم ترميمها سنة ٧٩٢ •

المدرسة الفرحانية :

ذكرها الخزرجي ضمن المدارس المرممة سنة ٧٩٢ •

مدرسة المسلب : .

من المدارس التي قام بترميمها القاضي عبد اللطيف بن محمـد بن سالم سـنة ٧٩٢ •

المدرسة الميكائيلية

من مدارس زبيد ولعلها تنسب الى الامير نور الدين بن ميكائيل أحد الامراء في العصر الرسولي عاش في زمن المجاهد •

المدرسة الهكارية :

من مدارس زبيد لم أتحقق تاريخها ودرس بها الفقيه عمر بن علي الزبادي السابق الذكر والمتوفى سنة ٧٠٣ •

مسجد الاشاعر :

من المساجد الهامة في زبيد وتقام فيه حلقات دراسية عليا وقلما يخلو في سائر أيام الاسبوع من مدرس وطلبة يدرسون علم الحديث والفقه وكان يستأثر به الحنفية حتى زمن الملك الظاهر الرسولي فتولى إمامته الفقيه الشافعي علي بن محمد بن قحشر ، وفي هذا المسجد عقد العلامة النحوي بدر الدين محمد ابن أبي بكر الدماميني القادم من مصر الى اليمن سنة ٨١٩ مجالسه الادبية وكذلك عقد فيه العلامة محمد بن محمد الجزري مجلسا في الحديث أثناء وصوله الى زبيد في زمن الملك الناصر الرسولي ونادرا ما يأتي عالم الى اليمن ولا يقصده• ويذكر المؤرخ الاهدل أن عمارة هذا الجامع في صورته الحالية كانت سنة ٤٢٥هـ في زمن سيف الاسلام بن طغتكين •

ثانيا ـ مدارس تعز :

المدرسة السيفية :

هي أول مدرسة أنشئت في تعز بناها المعز اسماعيل بن طغتكين الايوبي في موضع دار للاتابك سنقر بن عبد الله سنة ٥٩٣ ونسبها الى والده سيف الاسلام طغتكين بن أيوب المتوفى سنة ٥٩٣ وهو مقبور بها وخصص لها المعز أوقافاً كثيرة منها وادي ظبا بأكمله ورتب فيها جماعة من القراء بالسبع القراءات • وظلت هذه المدرسة قائمة حتى القرن التاسع حيث نجد السخاوي

يشير الى بعض المدرسين بها ومن أساتذتها الفقيه علي بن عثمان الاشهي أحد العلماء القادمين الى اليمن سنة ٧٠٧ •

المدرسة الاتابكيه :

نسبة الى مؤسسها الاتابك(١) سنقر بن عبد الله المتوفى سنة ٦٠٨ أحد أمراء الدولة الايوبية بناها في ذي هزيم من نواحي تعز وعرفت بالمدرسة الاتابكيه وعندما قتل الملك المنصور الرسولي في هذه الناحية قبر في هذه المدرسة لكونه متزوجا بابنة الاتابك سنقر بن عبد الله • وبقيت هذه المدرسة قائمة مدة طويلة ومن المدرسين بها الفقيه أبو بكر بن جبريل المتوفى سنة ٧٤١ والفقيه اسحاق بن أحمد بن يحيى بن زكر المتوفى سنة ٧٥٦ وهو من كبار المدرسين في عصره •

المدرسة المجيرية :

من المدارس القديمة بتعز ويعود زمنها الى وقت العزيز طغتكين أسسها الامير مجير الدين كافور التقي أحد المقربين لسيف اسلام بن طغتكين وكان هذا الامير من المشتغلين بطلب العلم وأخذ الناس عليه في علم الحديث والى هذه المدرسة تنسب حارة كبيرة في مدينة تعز يقال لها حول مجير الدين يصفها الخزرجي في القرن الثامن بأنها قريبة من مرتاع البقر في مدينة تعز •

المدرسة الوزيرية :

هي أول المدارس التي أنشأها الملك المنصور في تعز سميت باسم أول مدرس فيها كما هي العادة في تسمية المدارس في ذلك الوقت اذ لم تسم تلك المدارس باسم مؤسسيها الا في عصور الملوك المتأخرين من آل رسول وأول من درس بها من العلماء الفقيه أحمد بن عبد الله بن أسعد الوزيري وبه سميت المدرسة لطول إقامته فيها توفي سنة ٦٦٢ وقد تناوب على التدريس فيها جماعة من بني

---

(١) الاتابك لفظة تركية معناها الولد الامير وربما أطلق على من ربى أولاد الملوك وهو من ألقاب التشريف • انظر القلقشندي في صبح الاعشى ج ٤ ص ١٨ •

الوزيرى منهم الفقيه أحمد بن محمد الوزيري وكان من كبار العلماء الورعين توفي سنة ٦٦١ ومن أقدم المدرسين فيها الفقيه أحمد بن ابراهيم بن أبي عمران من أهل مدينه إب وما زال الملك يتلطفه في الوصول الى تعز للتدريس بمدرسته الوزيرية حتى أجابه الى ذلك وقرأ عليه المنصور بعض الكتب العلمية توفي سنة ٦٣٣ ودرس بهذه المدرسة أيضا الفقيه أبو بكر بن محمد بن سعيد الحمصي الازدي المتوفى سنة ٦٨٩ ودرس بها أيضا الفقيه أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن زريق من أهل جبله توفي سنة ٧٠٣ فهؤلاء هم كبار المدرسين بالمدرسة الوزيرية وهناك جماعة أخرى تركناهم لاجل الاختصار •

المدرسة الغرابية :

من مدارس الملك المنصور بتعز سميت باسم مؤذنها الغراب وكان رجلا صالحا • ومنهم من يطلق عليها اسم المدرسة المنصورية وهذه التسمية متأخرة وتناوب في التدريس عليها جماعة من كبار العلماء والفقهاء منهم الفقيه أبو زكريا يحيى بن زكريا الكلالي الحميري المتوفى سنة ٦٦٧ وكان مقصد الناس للاخذ عليه وآخر من نذكره من المدرسين بها الفقيه الصوفي عمر بن آبي بكر بن العراق المتوفى سنة ٧٥٤ وكان من المقربين للملك المجاهد الرسولي •

المدرسة الرشيدية :

أسسها في تعز القاضي رشيد الدين ذو النون محمد بن ذي النون المصري توفي سنة ٦٦٣ القادم الى اليمن بصحبة الملك الايوبي المسعود يوسف بن الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب آخر ملوك الدولة الايوبية في اليمن وقد ولي للملك المسعود عدن وكان مقصد الادباء والعلماء وفي عهد الملك المنصور ولي الوزارة وأنشأ المدرسة « الرشيدية بتعز وخصص مكتبة ثمينة تحوي على امهات الكتب بجانب أوقافها العديدة درس بهذه المدرسة العلامة الشهير أبو العباس أحمد بن عبد الله الدائم المعروف بابن الصفي الميموني المتوفى سنة ٧٠٧ ولا زالت هذه المدرسة قائمة حتى القرن التاسع حيث ذكر السخاوي أحد المدرسين بها في هذا

القرن وهو الفقيه علي بن محمد بن اسماعيل الناشري المتوفى سنة ٨١٢ ٠

المدرسة النظامية :

من مدارس دي هزيم القريبة من تعز بناها الطواشي نظام الدين مختص المظفري أحد المقربين للملك المنصور توفي سنة ٦٦٦ ودرس بمدرسته الفقيه عبد الله بن محمد الخزرجي المتوفى سنة ٦٥٥ ودرس بها الفقيه عمر بن مسعود الحميري وعليه تخرج جمع كبير من الفقهاء توفي سنة ٦٥٨ ٠

المدرسة العمريه :

أنشأها الامير نجم الدين عمر بن يوسف أخو الملك المظفر لأمه توفي سنه ٦٦٧ ومن المدرسين بها الفقيه عمر بن محمد بن عبد الله المتوجي المتوفى سنة ٧٠٩ وكان من العلماء الزهاد وقد أصابه دين فرحل الى عدن لقضائه فتوفي هناك ٠

المدرسة النجاحية :

نسبة الى مؤسسها الامير محمد بن نجاح أحد أمراء الدولة الرسولية في عهد الملك المظفر يوسف بن عمر توفي سنة ٦٨١ ودرس بمدرسته الفقيه أبو محمد عبد الله بن عبيد المتوفى سنة ٦٩٤ والفقيه عبد الله بن محمد بن سبا الريمي العياشي المتوفى سنة ٧١٥ ٠

المدرسة المظفرية :

من كبريات المدارس بتعز أسسها في مغربية تعز الملك المظفر يوسف بن عمر الرسولي المتوفى سنة ٦٩٤ وبناها على أسلوب عجيب ٠ وخصص لها أوقافا كثيرة وعندما اكمل عمارتها استدعى لها الملك أشهر المدرسين في عصره وهو الفقيه عبد الله بن محمد بن سبا الريمي المتوفى سنة ٧١٥ ودرس بها أيضا بعد عصر الملك المظفر الفقيه محمد بن يوسف الصبري المتوفى سنة ٧٤٢ والفقيه عمر بن سعيد التعزي المتوفى سنة ٧٨٨ ودرس بها في القرن التاسع الفقيه عبد الرحمن ابن أبي بكر الزوقري تلميذ جمال الدين الريمي المتوفى سنة ٨١٦ ٠

المدرسة الاشرفية :

من مدارس الملك الاشرف عمر بن يوسف الرسولي المتوفى سنة ٦٩٦ ونقع في مغربة تعز وهي من المدارس الكبيرة جعل فيها استاذاً للفقه الشافعي وإماماً ومؤذناً وبئراً يسقي منها ومن المدرسين بها الفقيه أبو العباس أحمد بن عبدالدائم ابن الصفي المتوفى سنة ٧٠٧ باستدعاء من الملك الاشرف نفسه ودرس بها أبضا الفقيه أبو بكر بن أحمد بن عمر الشعيبي المتوفى سنة ٧١٤ وغيرهما وبقـول المؤرخ أبو مخرمة أن هذه المدرسة من تأسيس الملك المظفر يوسف بن عمر والد الملك الاشرف فيحقق •

المدرسة السابقية :

بنتها في مغربة تعـز في ناحية الحميرا السيدة مريم زوجة الملك المظفـر المتوفاة سنة ٧١٣ وتعرف هذه المدرسة أيضا بمدرسة الحميراء درس فبها الفقيه علي بن محمد بن يوسف الصبري المتوفى سنة ٧٥٢ •

المدرسة المؤيدية :

من المدارس الكبيرة بتعز أنشأها الملك المؤيد داود بن يوسف المتوفىسنة ٧٢١ بالمغربة بتعز وأوقف عليها أوقافا طائلة وجعل فيها مدرسـا وإماماً ومؤذناً ومعلماً للايتام ومقرئا يقرىء القرآن بالسـبع القراءات ووقف عليها مكتبـة نفيسة من الكتب أما المدرسون فيها فهم جماعة نذكر منهم الفقيه أحمد بن أبي بكر الاحنف المتوفى سنة ٧١٧ ومنهم الفقيه محمد بن عبد الرحمن البريهي المتوفى سنة ٧٤٨ ومنهم الفقيه عبد الله بن محمد الناشري المتوفى سنة ٨٤١ وغيرهم •

المدرسة المجاهدية :

مدرسة ضخمة أنشأها الملك المجاهد علي بن المؤيد المتوفى سنة ٧٦٤بناحية الجبيل بتعز وعين فيها إماماً ومؤذنا وخطيبا ومدرسا للفقه ومدرسا للحديث وجعل فيها مكانا للصوفية يتفرغون فيه للعبادة ودرس في هذه المدرسة الفقيه عبد الله

ابن محمد بن عمر الخزرجي المتوفى سنة ٧٣٥ وهو أول من درس فيها بطلب من مؤسسها الملك المجاهد ومن المدرسين فيها العلامة عمر بن عبد الله المليكي المتوفى سنة ٧٦٨ واشتغل فيها بدراسة علم الحديث سنة ٧٤٧ ومن علماء الحديث الذين درسوا فيها المحدث اليمني الكبير سليمان بن ابراهيم العلوي المتوفى سنة ٨٢٥ •

المدرسة الافضليه :

من مدارس الجبيل بعز أنشأها الملك الافضل عباس بن علي بن داود الرسولي المتوفى سنة ٧٧٨ وبناها على أسلوب عجيب حيث جعلها على ثلاث طبقات الاولى مربعة الشكل قوية الاركان والطبقة الثانية مثلثة الاركان والطبقة الثالثة مسدسة الشكل وبنى على رأسها مئذنة طويلة لم يكن في البلاد مثلها ثم رتب فيها إماماً ومؤذناً وقيماً عليها ومعلما للايتام ومدرسا للفقه وآخر للحديث وعين فيها جماعة من الصوفية وعليها أوقاف كثيرة لاكرام الضيوف والطلبة ومن المدرسين بها الفقيه أبو بكر علي الناشري المتوفى سنة ٧٧٢ وغيره كثير •

المدرسة المعتبية :

أنشأتها الاميرة جهة الطواشي معتب بن عبد الله زوجة الملك الاشرف اسماعيل بن عباس الرسولي المتوفاة سنة ٧٩٦ وقد بنتها في الواسطة من تعز وخصصت لها إماماً ومؤذناً وقيماً ومدرسا وطلبة ومعلما وأيتاما لقراءة القرآن•

المدرسة الاشرفية :

وهي غير السابق ذكرها وهذه المدرسة أنشأها الملك الاشرف اسماعيل بن الافضل الرسولي المتوفى سنة ٨٠٣ ويقول من شاهدها انها مدرسة حسنة الشكل بها بابان شرقي وغربي وباب جنوبي ومقدم « ردهة » فسيح وشمسه رحبية وبنى فيها حماما نفيسا وخصص فيها إماماً ومؤذناً وقيما ومدرسا على مذهب الشافعي ومعيداً ومدرسا للحديث والفتوى ومدرسا في النحو وآخر للادب وأوقف فيها عدة من الكتب النفيسة بجانب أوقافها المالية الكثيرة ••

المدرسة الشمسية :

من مدارس تعز ولم أتحقق اسم منشئها ولعلها من إنشاء الامير شمس الدين ابن علي بن رسـول المتوفى سنة ٦١٤ والد الملك المنصـور أول ملوك الدولة الرسولية • ودرس بهذه المدرسة الفقيه أبو سليمان داود بن ابراهيم الزيلعي المتوفى سنة ٧٠٩ ودرس بها الفقيه أبوبكر بن جبريل المتوفى سنة ٧٤١ ومن المدرسين فيها الفقيه أبو بكر بن علي الناشري المتوفى سنة ٧٧٢ •

المدرسة الاسـدية :

من كبريات المدارس في تعز لم أتحقق اسـم منشئها ولعلها منسوبة الى الامير أسد الدين محمد بن بدرالدين الحسن بن علي الرسولي الموفى سنة٦٧٧ •

ثالثاً ـ مدارس عـدن :

المدرسة المنصورية :

أسسها الملك المنصور عمر بن علي الرسولي ودرس فيها الفقيه الحلبوبي المتوفى سنة ٧٦٠ وغيره •

المدرسة النجمية :

لم أتحقق منشئها ولعلها منسوبة الى الاميرة الدارالنجمية عمة الملك المظفر•

المدرسة الظاهرية :

أنشأها الظاهر يحيى بن اسماعيل الرسولي المتوفى سنة ٨٤٢ • وعـرف في عدن عدة مساجد يدرس فيها العلـوم كمسجد السماع ومسـجد السوق ومسجد الشجرة وهي كلها ملتقى الطلبة بأساتذتهم •

رابعا ـ مدارس الجنـد :

المدرسة المنصورية :

أنشأها المنصور عمر بن علي الرسولي •

المدرسة الشقيرية :

خامسا ـ مدارس ذي عدينه (بتعـز) :

المدرسة الشمسية :

أسستها الدار الشمسي ابنة المنصور عمر بن علي الرسولي.

المدرسة الاشرفية :

بناها الملك الاشرف اسماعيل بن العباس .

سادسا ـ مدارس ذي جبله :

المدرسة الاشرفية أو الشرفيه :

أنشأها الامير موسى بن علي الرسولى .

المدرسة الرابية .

سابعا ـ مدارس مختلفة منها :

مدرسة ذي عقب .

ومدرسة جبن وغيرها .

وقد عرفت هذه المدارس كل العلوم الاسلامية على مختلف أنواعها كالعلوم الشرعية واللغوية والادبية وشهدت المدارس في ذلك الوقت دراسات خاصة في علم الفلك والطب والحساب والمنطق يقوم بها أساتذة من أهل اليمن ومن غيرهم، ومن الاساتذة اليمنيين من اهتم بجانب الرياضة وكلف طلبته بالقيام ببعض الحركات الرياضية كالفقيه محمد بن أحمد بن بطال المتوفى نحوسنة ٦٣٠ فكان يأمر طلبته بالخروج بعد صلاة العصر الى الصحراء ويأمرهم بالتسابق والجري حتى اذا تعبوا وحان وقت المغرب أمرهم بالانصراف .

وكان الاساتذة يتقاضون مرتبات سنوية وشهرية تقتطع من أوقاف المدارس وغالبا ما تكون عينية أو نقدية تدفع من خزينة الدولة وكانت مرتبات المدرسين في عهد الدولة النجاحية تقدر بنحو اثني عشر ألف دينار أما في العصر الرسولي

فتعطى لهم مرتبات نقدية في كل شهر وتختلف هذه المرتبات باختلاف المدرسين ومكانتهم من السلطان فهذا الاديب عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني المتوفى سنة ٧٤٤ يحصل على مرتب شهري يقدر بثلاثين دينارا مقابل تدريسه في المدرسة المؤيدية وهذا أعلى قدر يحصل عليه مدرس في ذلك الوقت ..

وخصصت الدولة لمرتبات المدرسين والقضاة في البلدان جزيه اليهود فسدت هذه الضريبة كثيرا من أعباء الدولة في التدريس .ومن غريب مايذكر عن المدرسين في ذلك الوقت أن التدريس تكون ببعض المدارس وراثيا كإمامة المساجد وخطابة الجمعة فيتولى الابن مهنة التدريس بعد وفاة والده أو في حياته في مدرسته التي كان يدرس بها حتى ان كثيرا من المدارس التي أنشئت في ذلك الوقت بنيت خصيصاً لأساتذة معينين يدرسون بها وقد ذكر الشرجي عدة مدارس توارث أساتذتها التدريس بها .

ويكثر الطلبة حول الاستاذ كلما تبحر في العلم واشتهر شأنه فقد ضمت حلقة الشيخ زيد بن عبد الله البفاعي بعد رحلته من مكة نحو مائتي طالب وربما بلغوا نحو ثمانمائة طالب بمدرسة حجة على قلة أهلها وكذلك كانت حلقة الشيخ صالح بن ابراهيم العشري تحتوي على مائة طالب .

ومن أشهر الحلقات الدراسية في ذلك العصر حلقة الشيخ محمد بن أبي بكر الاصبحي صاحب كتاب المعين بلغ مجموع طلبتها نحو ثلاثمائة طالب حتى ضاقت بهم مصنعة سير فرحل بهم الى (إب) وهذا كثير بالنسبة لقلة الناس في ذلك الوقت ومع ذلك فان الطلبة لا يأخذون على الاستاذ إلا بعد التحقق التام من علمه وأمانته ودينه وقد حدث أن قدم رجل غريب الى بلد الفقيه أحمد بن محمد الزبراني المتوفى سنة ٦٦٧ وطلب اقراء الطلبة فقال له الفقيه : إنّا لا نأخذ العلم إلا عمّن تحققنا دينه وأمانته (وأنت غريب علينا ربما أوقعتنا في محظور من حيث لا نشعر) وهذا غاية التحري في الاخذ على الاساتذة ..

* * *

العلوم

عرفت اليمن علوم السنة منذ زمن بعيد وظهر فيها أفذاذ كبار من رجال الحديث والدين كطاوس وعبد الرزاق وغيرهما من قدماء المحدثين ولذلك لم تنشط في اليمن علوم الفلسفة وأهل المقالات ولم تجارِ اليمن في ذلك بغداد أو غيرها من الحواضر الاسلامية التي عرفت شيئا من ذلك بل إن علماء اليمن صموا آذانهم عن الاختلافات الطاحنة بين أهل الفرق في تلك البلدان وكان طاوس اذا جاءه أحد أتباع المذهب المعتزلي أو غيره صم أذنه خشية سماع كلامه .

وعلى نهج طاوس سار أكثر علماء اليمن من المتأخرين في العصر الرسولي حتى بلغ الامر ببعضهم أن يكره علم الطب ويعتبره من العلوم المزعزعة للايمان ولذلك أنكروا على الفقيه سعيد بن قيس البعداني لما اشتغل بعلم المنطق(ونسبوه الى الزندقة والخروج عن الدين) ونرى الجندي يذكر جماعة من آل أبي الخل ويشير الى أنهم حادوا عن الطريق باشتغالهم (بكتب المنطق والميل الى اعتقاد أصحاب الطبائع) وكذلك يصف جماعة من فقهاء آل السامح بالخروج عن المذهب لمعاناتهم علم (الطب ومذهب الحكماء) .

وهكذا كانت بداية علماء اليمن في الدولة الرسولية الانكار على علوم الطبيعة والفلسفة والمنطق ولولا جهود ملوك الدولة الرسولية في تحبيذ هذه العلوم الى أهل اليمن ومشاركتهم فيها بالتصنيف كما مر بنا سابقا لما عرفت اليمن شيئا من ذلك بل إن علماء اليمن أنكروا على الملك المظفر لما أراد أن يقرأ كتب المنطق على الفقيه شمس الدين البيلقاني القادم الى اليمن من فارس وسبب وجوده نزاعاً كبيراً بين الفقهاء بسبب احداث هذا الفن في مدرسة عدن . فأنكر عليه القاضي محمد بن أسعد العنسي (لان الغالب على الفقهاء باليمن عدم الاشتغال بالمنطق خاصة) .

وقليل ما ظهرت كتب الفلك وسائر العلوم غير الدينية حتى إن وجود الحسن ابن أحمد الهمداني المتوفي سنة ٣٦٠ واشتغاله بعلوم الفلسفة والطب يعتبر ظاهرة فريدة في التاريخ اليمني لم تتكرر فالرجل كان على صلة وثيقة بتلك العلوم بل نعرف من مصنفاته أنه قرأ كتاب المجسطي لبطليموس وكتاب المقالات لاقليدس ومن كتبه الفلسفية سرائر الحكمة وكتاب اليعسوب والقوى في الطب وغيره وكان صاعد البغدادي يعده ثاني فلاسفة العرب بعد الكندي ..

وكانت بداية اليمن بالهمداني في القرن الرابع ستكون مشجعة لظهور مصنفات فلسفية وفلكية كثيرة لولا أنها اصطدمت بجماعة من الفقهاء الحنابلة المتزمتين فانقطعت تلك الفنون بانقطاع الهمداني وظهر في النادر قلة من أتباع المذهب الحنفي من اشتغل ببعض العلوم كالفقيه أحمد بن محمد الاشعري في القرن السادس الذي ينسب له كتاب في علم المساحة بعنوان (النفاحة في علم المساحة) شرحه في القرن العاشر أحمد بن علوان الوازعي وغيره .

وقد ارتبط علم المساحة والحساب والفلك والطب بأغراض يومية تمس الحاجة اليها كالزراعة والمواقيت والفرائض والتجارة فكان لابد من المشاركة فيها وبعد انقضاء جيل الحنابلة المتشددين منذ عصر الجندي خلفهم جماعة من الاشاعرة لم يحقدوا على العلوم التجريبية ذلك الحقد الذي عرفه الحنابلة فظهرت مساهمات يسيرة في تلك الفنون وقد ساعد على الاقبال عليها بعض الشيء رغبة ملوك الدولة الرسولية في دراستها وكان الملك المظفر يحض على دراسة علم الطب ويبعث الى الملك الظاهر بيبرس صاحب مصر يسأله في ذلك بل هو نفسه كتب فيه كتابه المسمى (البيان في كشف الطب للعيان) وكتب ابنه الاشرف (المعتمد في الادوية المفردة) وللمجاهد كتاب كبير في طب الحيوان بعنوان (الاقوال الكافية) .وتحت رعاية الملك المظفر كتب العلامة اليمني محمد بن أبي بكر الفارسي المتوفى سنة ٦٧٧ كتابه في الطب (الدرة المنتخبة في الادوية المجربة) وهو موجود ببعض المكتبات وله كتاب آخر في

معرفة السموم وكتاب آخـر في علم البيطرة وهكذا كان الاقبال على الطب بتحريض من ملوك الدولة الرسولية وقد اشتهر في أواخر الدولة اثنان من كبار علماء الطب في اليمن هما الصنبري وأبي الغيث الكمراني ..

الصنبـــري :

فأما الصنبري فهو الفقيه مهدى بن علي بن ابراهيم الصبري اشتهر في علم القراءات والفقه والطب وتوفي بالمهجم سنة ٨١٥ له (كتاب الرحمة في الطب والحكمة) وهو عبر كتاب السيوطي المسمى بنفس الاسم وقد قسمه على خمسة أبواب . الاول ، في علم الطبيعة ، والثاني في طباع الاغذية والادوية ، والثالث فيما يصلح للبدن في حال الصحة ، والرابع في الامراض الخاصة ، والخامس في الامراض العامة ، ومن هذا الكتاب عدة نسخ خطية وقد طبع في أوروبا ..

الكمـــراني :

وأما الثاني فهو الشيخ محمد بن أبي الغيث الكمراني ولد بأبيات حسين . وأخذ على جماعة من علماء زبيد حتى أصبح أحد الفقهاء البارزين ثم اشتغل في آخر عمره بعلم الطب وتوفي سنة ٨٣٧ له (كتاب شفاء الاجسام) في الطب كتاب مشهور نقل أكثر مادته صاحب تسهيل المنافع .

علم الفلـك :

ونمضي مع العلوم التجريبيـة في العصر الرسولي فنجـد علم الفلك قد استعاد نشاطه وظهر أول كتاب فيه بعد مؤلفات الهمداني كتاب الفقيه الجندي أبو اسحاق ابراهيم بن علي بن المبردع المتوفى نحو سنة ٦٦٠ وهو كتاب مبسوط الحجم يصفه الجندي بقوله : عليه اعتماد الناس في علم المواقيت وهو بعنـوان (المواقيت في علم المواقيت) منه عدة نسخ خطية . وكما كانت البداية في علم الطب بسلاطين آل رسول كذلك كانت بداية علم الفلك بصورته الشاملة ..

فقد نسب الى الملك المظفر كتابه « تيسير المطالب في تسيير الكواكب »

ولابنه الاشرف (التبصرة في علم النجوم) وفي عصر المظفر ألّف العلامة محمدبن أبي بكر الفارسى السابق الذكر عدة كتب في علم الفلك منها (نهاية الادراك في أسرار علم الافلاك) وكتاب (الزيج المظفري) ونسبه الى الملك المظفر وكتاب (مصارع الفكر البهيج في حل مشكلات الزيج) • ويختم هذا العصر بكتاب العلامة الفلكي أبي العقول المسمى (الزيج المختار) وقد أطنب الباحث الامريكي دافيد كنج في وصف هذا الكتاب وقيمته العلمية وهو يشتمــل على جداول فلكية في غاية الدقة جعلها محسوبة لعرض مدينة تعز وتشتمل على فصول السنة والفصول الزراعية •

علم الحساب :

وفي علم الحساب والجبر والمقابلة والمساحة ظهر عدة مؤلفات جيدة لعــل أقدمها كتب العلامة الحساب أحمد بن عمر بن هاشم المزيحفي المتوفى سنة ٦٨٠ وكان أحد رجال هذا الفن في اليمن ولي ديوان المخلاف وسكن ذي جبلة ومن كتبه في علم الحساب (كتاب جواهر الحساب) وكتاب (شرح مختصر الخوارزمي) في الجبر والمقابلة عليه اعتماد الطلبة في هذا الفن • وألف في علم الحساب الفقيه الحنفي أبو بكر بن علي الهاملي المتوفى سنة ٧٦٩ كتاب (مفيد الطلاب في معرفة الحساب) وآخر من تخصص في هذا الفن وبرز فيه العلامة محمد بن عبد الله بن سلم أحد علماء جبلة المتوفى سنة ٨٠٥ له عدة كتب في علم الحساب منها (لوامع طوالع السعدي في شرح الهندي) في الحساب وكتاب (عجالة المبندي في شرح الهندي) وله أيضا كتاب (كفاية المهتدي في شرح الهندي)•

علم الزراعة :

وعرف هذا العصر ظاهرة علمية فريدة لم نشهدها في غيره حيث اهتــم ملوك الدولة الرسولية بالتأليف في علم الزراعة والفلاحة والتأليف فيها فألّف الملك الاشرف الاول كتابه (التفاحة في علم الفلاحة) وألف الملك الافضل كتاب (بغية الفلاحين في الاشجار المثمرة والرياحين) وشاركهما في هذا العلم جماعة من

علماء اليمن المتأخرين كالفقيه حمزه بن علي الناسري المتوفى سنة ٩٢٦ صاحب كتاب (حدائق الرياض) ، والفقيه حسين ابن أبي القاسم الاهدل صاحب كتاب (كشف القناع في أحكام الزراع) .

العلوم الاجتماعية والسياسية :

واذا تجاوزنا هذا النوع من العلوم فسنجد العصر قد ساهم في التأليف في نوع آخر من العلوم الفريدة في بابها فألف في علم السياسة وقوانين الدولة جماعة من العلماء أولهم الفقيه الشافعي أبو عبد الله محمد بن علي الفلعي المتوفى سنة ٦٣٠ ألف كتاب (تهذيب الرئاسة في ترتيب السياسة) منه نسخة مخطوطة بمدينة زبيد . وكتب في هذا الفن الفقيه أحمد بن محمد المحلي المتوفى سنة ٦٥٢ رسالته الفريدة المسماة (نصيحة الولاة الهادية الى النجاة) وقد طالعتها فوجدتها مفيدة في بابها ، وتلاه جماعة من علماء الدولة الرسولية أولهم الملك الرسولي الافضل عباس بن علي المتوفى سنة ٧٧٨ له كتاب (نزهة الظرفاء وتحفة الخلفاء) في علم السياسة وقد سبق ذكره ثم تلاه الفقيه عبد الرحمن بن محمد الحبيشي المتوفى سنة ٧٨٠ فألف: أحكام الرئاسة في آداب السياسة وألف العلامة محمد ابن موسى الذؤالي سنة ٧٩٠ كتابه المسمى (التحفة المدونة في أحكام السلطنة) ووضع الاداري الكبير حسن بن علي الحسيني المتوفى سنة ٨١٥ كتبه القيمة في قوانين الدواوين الرسولية . ومنها كتاب (ملخص الفطن) السابق الذكر وكتاب (الديوان الجليل في معرفة التقليل والتسعير) . وآخر من نذكره من مصنفي الدولة الرسولية الفقيه محمد بن عبد الله الناشري المتوفى سنة ٨٢١ له كتاب (النصائح الايمانية لذوي الولايات السلطانية) وهكذا يترسخ هذا الفن في التراث اليمنى بكثرة التصنيف فيه . وللعلماء المتأخرين عن العصر الرسولي جملة مصنفات أخرى يجدها القارىء في كتابي (مصادر الفكر الاسلامي)[1] .

---

(١)وقد طبع أخيرا ضمن منشورات مركز الدراسات اليمنية .

على أنه من المفيد الاشارة هنا الى أن للعلماء الوافدين الى اليمن مساهمات جليلة في تلك العلوم وقد ذكر صاحب نفح الطيب أن أبا حي القرطبي أحد فلاسفة الاندلس دخل الى اليمن سنة ٤٤٢ ولقي حظوة كبيرة عند ملكها الصلبحي واستقر باليمن حتى وفاته وكان (بصيرا بالهندسة وعلم النجوم) وهذا العالم أغفل ذكره مؤرخو اليمن مع شهرته في ذلك الوقت واحيائه للعلوم الفلسفية في البلاد .

ومن شاكلة أبي حي كثير من العلماء دخلوا اليمن بدافع علمي بحت. وفي العصر الذي ندرسه نجد أن السلطان المؤيد قد استقبل بفرح شديد عالم الفلك العلامة بدر الدين حسن بن المختار ودخل على اثره جماعة من الاطباء والمهندسين والصناع وغيرهم وفي ذلك يقول العمري (ولاتزال ملوك اليمن تستجلب من مصر والشام طوائف أرباب الصناعات).

* * *

الحياة الثقافية

اتضح لنا من الفصول السابقة أن العصر الرسولي كان زمن علم وتعليم فلا عرابة أن تظهر المدارس العلميه على مختلف الاتجاهات ونبرز فيها على وجه الخصوص المدرسة الاسلامية بنتى فروعها الاختصاصيه وقد كان لأهل اليمن ولع شديد بالعلوم الاسلامية وكيف لا يكون ذلك وقد ارتبط حبهم بهذا الدين منذ أول ظهوره في زمن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وترسخ في نفوسهم حب الرسول صلى الله عليه وسلم لهم حتى جمع بعضهم الاحاديث الواردة في أهل اليمن فجاءت مجاميع فريدة في بابها استقصاها في أوائل القرن السابع العلامة محمد بن اسماعيل بن أبي الصيف المتوفى سنة ٦٠٩ هـ في كتابه (فضايل اليمن وأهله) والفقيه أحمد بن عبد الله الهمداني في كتابه (فضل اليمن) وغيرهما . وكان آخرهم في العصر الحديث العلامة محمد بن علي الاهدل في كتابه (الدر المكنون في فضائل اليمن الميمون). وشغفوا بعلم الفقه لارتباطه بالتعاليم الاسلامية التي دعا اليها ديننا الحنيف ومع ذلك لم يكن تأليفهم فيه وتدوين قواعده الا لحاجة ماسة الى ذلك ولم يدخل علماء اليمن مجال التصنيف اعتباطا كما نجده عند أكثر علماء الاسلام الذين ولعوا بالكتابة لمجرد تكثير أسماء مصنفاتهم وتعدادها فلم يعرف عن علماء اليمن كثرة المصنفات وربما مات العالم منهم عن مصنف واحد والبعض حرص كل الحرص على أن لايترك شيئا من كتبه وانهمك في العبادات والاذكار وكان أحدهم يقول لو أردت أن أضع في حرف البا من بسم الله الرحمن الرحيم أربعين وقرا من الكتب لاستطعت لكن يمنعه من ذلك انشغاله بذكر الله .

والعالم الوحيد في هذا العصر الذي اشتهرت عنه كثرة المصنفات هو العلامة الامام يحيى بن حمزة المتوفى سنة ٧٤٩ هـ الذي ترك مجموعة كبيرة من الكتب في مختلف المجالات العلمية حتى وصلت الى نحو سبعين كتابا وعدت أيامه بكراسات كتبه فزادت كتبه على أيامه ولكن هذه الكثره من المصنفات تختفي عند العلماء الذين أتوا قبله وبعده ولم نجدها إلا عند علماء القرن الثاني عشر والثالث عشر ٠ وقد سئل العلامة عبد الله بن حسن الدواري المتوفي سنة ٨٠٠ ، أن يضع للطلبة مصنفا في علم التفسير فقال : « فيما صنعه علماء الاسلام الكفاية »و كان أحدهم قد شرع في شرح كتاب (التنبيه) في الفقه فلما وصله شرح ابن يونس للكتاب ووجد تطابقا في المقصود محا ما كتبه ٠٠

ولهذا حرص فقهاء اليمن على استقدام الكتب الفقهية من خارج اليمن ومراجعتها بمصنفاتهم ٠ وقد أعاد العلامة علي بن أحمد الاصبحي المتوفى سنة ٧٠٢ تصنيف كتابه المعين لما وصلته نسخة من كتاب (شرح الوجيز) للعزيزي ٠٠

وكان استقدام المتون والشروح من أهم ماعني به الفقهاء فوصلت الى اليمن مجموعة من الكتب العلمية المدروسة في مختلف الاتجاهات العلمية ٠٠ ففي علم القرآن والتفسير ولع المفسرون بتفسير القرآن لابن النقاش على الرغم من عدم اشتهاره في موطنه الاصلي في بغداد وقد بلغ من شغفهم به أن بعضهم كان يستحضره غيباً ويحض الطلبة على حفظه ٠٠

واعتنى العلماء في هذا العصر أيضا بكتاب الوسيط في التفسير للواحدي حتى إن العلامة اسماعيل بن محمد الحضرمي المتوفى سنة ٦٧٧هـ تفرغ لوضع ملاحظات نقدية حوله ٠ أما (تفسير الكشاف للزمخشري) فله شأن كبير عند فقهاء مذهب الامام زيد ، وشرحه واختصره أكثر من عالم من أشهرهم الفقيه المفسّر يحيى بن أبي القاسم العلوي المتوفى سنه ٧٥٢،فقد وضع حاشية عليه عرفت بحاشية العلوي ٠ واختصره في مؤلف مستقل العلامة عبد الهادي المتوفى سنة ٧٩٢ في

كتابه الجوهر الشفاف ووضع العلامة علي بن أبي القاسم المتوفى سنة ٨٣٧ هـ أكثر من كتاب حول الكشاف منها : تجريد الكشاف وكتاب الدر التسفاف • وشأن هذا الكتاب أكبر عند الفقهاء المتأخرين •

ومادمنا بصدد الحديث عن الكتب الواردة الى اليمن فسنجد العلماء قد حرصوا كل الحرص على استقدام الكتب الفقهية الشــهيرة ككتب الشيرازي والغزالي والنووي واستحضروا معها الكتب الشارحة لها • ومنذ زمن الفقيه زيد بن عبد الله اليفاعي واقبال الناس شديد على كتب العلامةأبياسحقالشيرازي واندفعوا في استحصال كتبه الفقهية (التنبيه) و (المهذب) و (اللمع) •واعتنوا بها العناية الفائقة• وكان ابن سمرة يقول في وصف كتاب المهذب الكتابالشريف والتصنيف المبارك الكامل غاية المجتهدين ونهاية المؤثرين الذي تفقه به المصنفون وعليه يعتمد المفتون • ثم أطنب في وصفه وكان المهذب المقرر الرسمي لمدارس الدولة الرسولية وقد شرحه جماعة من أفاضل الاساتذة كالفقيه عبد الله بن يحيى الصعبي المتوفى سنة ٥٥٣ والفقيه يحيى بن أبي الخير العمراني المتوفى سنة ٥٥٨ والحسين بن أبي بكر الشعباني المتوفى سنة ٥٨٣ وموسى بن محمد الطويري (من أهل القرن السادس) ومحمد بن اسماعيل الاحنف المتوفى (في القــرن السادس) أيضا،ومحمد بن علي المتوفى سنة ٦٣٠ واسماعيل بن محمد الحضرمي وأحمد بن موسى بن عجيل المتوفى سنة ٦٩٠.وعلي بن احمد الاصبحي المتوفى سنة ٧٠٢ •• وغيرهم كثر ، ولايزاحم كتاب المهذب في هذه المكانة العالية التي وصل اليها عند علماء الدولة الرسولية سوى الكتاب الثاني للشيرازي وهو كتاب التنبيه ، وقد بلغ الافتتان به الى حد الهوس فحفظوه وبالغوا في تجويده ••

ونادرا ما يظهر عالم من علمائهم دون أن يضع تعليقا أو شرحا عليه ، وانظر الى هذه القائمة ليتضح لك ما قلناه فقد شرحه جماعة من العلماء الذين سبقــوا قيام العصر الرسولي بسنوات قليلة فلا نذكرهم هنا وانما نشير الى أولئك الذين شرحوه خلال ذلك العصر منهم الفقيه أحمد بن محمد السبتي المتوفى سنــة

٦٧٥ والفقيه محمد بن عبد الله العمراني المتوفى سنة ٦٩٥ وأحمد بن علي العامري المتوفى سنة ٧٢١ ..

واشتهر في هذا العصر شرح العلامة محمد بن عبد الله الريمي المتوفى سنة ٧٩٢ حتى ان الدولة الرسولية احتفلت بالفراغ من هذا التصنيف في حفل مهيب وقد مر بنا ذلك .. ثم شرحه بعد الريمي الفقيه نور الدين علي بن أبي الازرق المتوفى سنة ٨٠٩ في شرحين كبير وصغير وقفت عليهما في بعض المكتبات .

وعندما وصل (التنبيه) لاول مرة استشكلت مسائل فيه على الفقيه أبي الحسن علي بن القاسم الشراحيلي المتوفى سنة ٦٤٠ فحررها وبعثها الى علماء بغداد بصحبة العلامة رضى الدين الصغاني .

وكذلك كانت عناية الفقهاء بكتاب الشيرازي في أصول الفقه المسمى باللمع وقد سد ثغرة كبيرة في هذا الباب حيث كانت عناية أهل اليمن قبله بكتب محلية صغيرة ليست ذات بال وشرحه جماعة من علماء الدولة الرسولية منهم الفقيه عبد الله بن أسعد الوزيري المتوفى سنة ٦١٣ وشرحه في كتابه (غاية المطلب والمأمول) ثم شرحه الفقيه موسى أحمد الوصابي المتوفى سنة ٦٢١ وشرحه أحمد ابن مقبل العلهي المتوفى سنة ٦٣٠ .

ولما دخلت كتب الغزالي الفقهية اليمن أقبل عليها العلماء أكثر من إقبالهم على كتبه الكلامية ولهذا لم تشتهر هذه الكتب في اليمن حتى قال أحد العلماء وهو الفقيه التباعي مفضلا كتب الغزالي الفقهية :

أحب فروعه وألحّ فيها   وأكره ما يصنف في الأصول
لأن مقالة فيه مقالٌ   لأرباب الشريعةِ والعقول
فلست بخائض للخوضِ فيها   لأسلمَ بعد من خطر الدخول

وقد بلغ تأثير كتب الغزالي على فقهاء اليمن وصوفيتها الى حد أن أحدهم هام على وجهه وترك أولاده وأسبابه المعيشية بعد فراغه من مطالعة كتاب الاحياء

.. أما الفقهاء فكانت عنايتهم بكتب الغزالي الفقهية واستعملوا كتابيه (الوجيز) و (الوسيط) في الدراسة العلمية ، وكان من أشهر المعتنين بهما الفقيه محمد بن عمر التباعي وهو القائل للابيات السابقة في التفضيل بين كتب الغزالي ، وقد شرح الوسيط جماعة من كبار العلماء في دلك الوقت منهم العلامة محمد بن عبد الله الهرمل المتوفى سنة ٦٦٨ والعلامة اسماعيل بن محمد الحضرمي المتوفى سنة ٦٧٥ وأحمد بن علي العامري المتوفى سنة ٧٢١ ومحمد بن سعيد أبو شكيل المتوفى سنة ٧٣٩ وعلي بن محمد الناشري المتوفى سنة ٧٣٩ وغيره . ويقول الجندي أن كتب الغزالي لم تصل الى اليمن إلا بعد ظهور كتب الشيرازي والعمراني بفترة ليست بالقصيرة .

ويذكر الجندي شدة عناية العلماء بكتب الشيرازي فيقول (عكف الناس عليها منذ القرن الخامس حتى الثامن حتى لم يكد أحد يتفقه بغيرها إلا بعد التفقه منها) . وقد قال بعض علماء العجم وقد أقال باليمن ورأى إقبال الناس على مؤلفات الشيرازي أن (العالم منهم متى نقل من غيرها قل أن يستجاد نقله أو يستكمل عقله) . ولما ظهرت كتب النووي وانتفع الناس بها وصلت الى اليمن وزاحمت كتب الشيخين أبي اسحاق والغزالي وكان أكثر ولع الناس بكتابه (المنهاج) ولا أدل على ذلك من هذه الشروح الكثيرة التي وضعت عليه في اليمن كشرح الفقيه عبد الرحمن بن محمد البريهي المتوفى سنة ٨٢٧ وغيره ، ومنهم من حفظه عن ظهر قلب كالفقيه أبي بكر بن أحمد السهيلي المتوفى سنة ٧٤٤ والفقيه علي بن محمد الصبري المتوفى سنة ٧٥٢ وغيرهما كثير .

واشتهر في الدراسة بين الطلبة كتاب (الحاوي) الصغير للقزويني وقد أدخله الى اليمن العلماء القادمون اليها في العصر الرسولي فما كان بأسرع من إقبال العلماء والطلبة عليه حتى قام بشرحه بعض الفقهاء أمثال العلامة محمد بن حسن السراج المتوفى سنة ٧٥٠ وأبي بكر بن محمد الخياط المتوفى سنة ٨١١ وأحمد ابن أبي بكر البريهي المتوفى سنة ٨٢٥ وغيرهم .

وظل أهل اليمن في العصر الرسولي يعتنون بالكتب الفقهية الواردة اليهم حتى ظهر فيهم جماعة من فحول الفقهـاء أمثال ابن أبي الخير العمراني وغيره فاستعاضوا بكتبهم عن غيرها بعض الشيء • ويطول بنا البحث لو أردنا استقصاء الكلام عن عناية أهل اليمن بكتب الفقه الواردة اليهم ، ولعلنا سنعود الى هذا الموضوع عند حديثنا عن الفنون الاسلامية •

أما اهتمامهم بعلوم الكلام والجدال فهو اهتمام ضعيف الاثر وهم بقدر قربهم من علم الفقه نجدهم نفروا كل النفور من العلوم الكلامية وخاصة مايتعلق بعلم الخلاف والفرق ولم يعرف أهل اليمن مصنفا في هذا الفن سوى (كتاب الحروف السبعة) للفقيـه حسين بن جعفـر المراغي المتوفى سنة ٣١٤ وهو في عقيدة الحنابلة وقد أنكر عليه المؤرخ الجندي بعض مسائل وردت في كتابه وسأل عنها شيوخه ويقول : (لعلها أدخلت عليه من قبل أهل الضلال)•

وقد نجحت في اليمن حملة الغزالي على الفلسـفة وما يتعلق بعلوم أهل الكلام حتى دعا أكابرهم الى إيمان كإيمان العجائز لايعرف الاستقصاء والتقعر في ماهية التوحيد ولم يدخل علماء الدولة الرسولية في هذا الفن الا فيما كـان ضرورة لازمة يحتم عليهم البحث درسها كمعرفة أصول التوحيد وما يجب الاعتقاد به وقد حفلت بها كتبهم الفقهية ولم تفرد بمصنفات خاصة وقد حمل دعوة الغزالي في ترك التعمق في علم الكلام العلامة اليمني الكبير محمد بن ابراهيم الوزيـر المتوفى سنة ٨٤٠ فحمل على الفلاسفة والمناطقة في كتابه (ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان) وفيه يقول[1] :

كم من فتـى منطقي كافر نجس ... كالكلب بل هو شر منه في الهون
يرى وساوس أهل الكفر منقبـة ... فهماً ويسـخر من طـه وياسين

وكان الفلاسفة قد استشرى شرهم حتى كان منهم (من عادى علوم القرآن

---

(١) محمد بن ابراهيم الوزير ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان •

وفارق فريق الفرقان وصنف في التحذير من الاعتماد على مافيه من التباين في معرفة الاديان) • وهذا غاية ما وصل اليه الفلاسفة في ذلك الوقت •

وفي صنعاء راجت علوم المعتزلة والعلوم العقلية وانكب علماؤها في التصنيف على تلك القواعد وساعدهم في ذلك جماعة من العلماء الباطنية كالفقيه حسين بن علي الانف المتوفى سنة ٦٦٧ هـ وابنه علي المتوفى سنة ٦٨٢ وكان علامتهم علي ابن محمد الانف المتوفى سنة ٦١٢ هو أول من رد على الغـزالي فيما اتهم به الاسماعيلية في كتابه (فضائح الباطنية) فصنف الانف في الرد عليه كتابه (دامغ الباطل) ووصلنهم في ذلك الوقت (رسائل اخوان الصفاء) فتأثر بها جماعة من علمائهم وألف على منوالها العلامة ابراهيم بن حسين الحامدي المتوفى سـنة ٥٥٨ كتابه (كنز الولد) وغيره •

وتكثر الردود في هذا الفن وهي زائدة على اللازم حتى سماه بعضهم علم الجدل والخلاف لكثرة تلك الردود والمناقضات المملة ، فقد أمضى الناس جل أوقاتهم في متابعة تلك العثرات والنقائض وما بالك برجل اشتغل أكثر وقتـه بمقارعة الابطال يضع في الرد على رسالة صغيرة كتابا في نحو ألف ورقة هو كتاب (الشافي) للامام عبد الله بن حمزة •

وكان أهل السنة على الرغم من عدم ميلهم للخوض في علم الكلام نجدهم قد تابعوا المعتزلة في ردهم عليهم ووصمهم بالجبر والحشو فألف الفقيه يحيى بن أبي الخير العمراني كتابا بعنوان (الانتصار في الرد على القدرية الاشرار)ويعني بهم المعتزلة ، ثم تبعهم ابن أبي القبائل فوضع رسالته الخارقة وتلاه الفقيه منصور ابن جبر المتوفى سنة ٦٥٧ فألف في الرد على المعتزلة كتابه (الرسالة المزلزلـة لقواعد المعتزلة) وآخر من رد عليهم من أهل السنة الفقيه الصوفي عبد الله بن أسعد اليافعي المتوفى سنة ٧٦٨ في كتابه (مراهم العلل المعضـلة في الرد على المعتزلة) وكان المعتزلة يرون في أنفسهم الذكاء المفرط والترفع عن هوة التقليد والجمود الذي وصم به أهل الحديث •

وفي هذا العصر ظهرت دعوة فكرية عظمى تدعو الى ترك المذهب ونبذ الخلافات الواقعة بين أهل الفرق الاسلامية فظهرت كتب العلامة محمد بن ابراهيم الوزير تدعو الى ذلك ومن يتأمل كتابه (إيثار الحق) يجد الكثير من معالم هذه الدعوة الكبيرة .

ومن الفقهاء في اليمن من جمع في عمله التعبدي بين سائر المذاهب الفقهية كالفقيه بكر بن عمر الموزعي الذي يقول عن نفسه : (أنا في الفقه شافعي وفي المعتقد حنبلي وفي الطهارة زيدي) . رحم الله الجميع .

علوم القرآن الكريم :

أقبل الناس على كتاب الله بالعناية التامة والبحث في مضامنه ومعاني آياته. وفي العصر الذي ندرسه بلغ مجموع حفّاظ القرآن حداً لا يتصوره العقل حتى بلغ مجموع الحفّاظ من أسرة واحدة هي أسرة (آل أبي الخل) نحو ثلاثمئة وستين حافظا يجتمعون في مسجدهم بعد كل صلاة ويختمون القرآن كله غيباً.

أما عن عناية الدولة بالقرآن فانها خصصت لها مدارس مستقلة تعنى بحفظه وإقرائه وقد عرفت مدينة زبيد الكثير من هذه المدارس وكان يدرس فيها جماعة من مشاهير المقرئين في اليمن واشتهر في هذا العصر من المقرئين الفقيه أبو الحسن علي بن أبي بكر بن شداد الحميري واليه انتهت رئاسة الإقراء في اليمن كله وأخذ عليه جمهور كبير من القراء ويقول الخزرجي (ما من مقرىء في اليمن إلاّ وأخذ عليه وانتشر ذكره ، فقصدوه من جميع الجهات وكانت اليه الرحلة في علم القراءات) .

ومن علماء القراءات في ذلك الوقت جماعة من العلماء تتناولهم فيما يلي بالاختصار :

- البعلوي

أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن بكر بن زاكي اليعلوي من علماء القراءات السبع انتفع به الناس وقصده الطلبة من نواحي شتى وله في هذا الفن مصنفات كثيرة توفي سنة ٧٠٨ هـ .

- الشغدري

علي بن عطية بن علي الشغدري ولد سنه ٦٠٥ وسكن جبل حفاش وعنه تلقى العلم جماعة من علماء بلده توفي سنة ٧٢٠ وله منظومة جيدة في علم القراءات

- المعبري

أبو يعقوب اسحاق بن محمد المعافري المعبري كان من علماء القراءات وله فيه كتاب (الايجاز في القراءات) توفي سنة ٨٠٠ تقريبا .

- الشظبي

حسن بن محمد الشظبي ولد سنة٧٨٩وأخذ علومه بصنعاء واشتغل بتدريس القرآن في مدارس تعز وتوفي سنة ٨٣٤ له الزراري المسفرة في القراءات .

- الشرعبي

أحمد بن محمد بن سعيد الشرعبي من أهل مدينة تعز ورحل الى مكة ودمشق وتوفي بها سنة ٨٣٧ له كتاب تكملة القراءات الثلاث ، أضاف فيها على منظومة الشاطبي الشهيرة في القراءات .

- الناشري

ومن أشهر المقرئين في العصر الرسولي العلامة الكبير عثمان بن عمر بن أبي بكر الناشري ولد سنة ٨٠٥ وأخذ علومه في علم القراءات عن أبي الجزري الشهير في هذا الفن وعينه الملك الظاهر مدرسا بمدينة زبيد وتوفي في الطاعون العام سنة ٨٤٨ وله عدة مصنفات في علم القراءات منها كتاب : ايضاح الدرة المضيئة في

قراءات الثلاثة المرضية ، وكتاب الدر الناظم لروايه حفص من قراءة عاصم، وله الهداية الى تحقيق الرواية في روايه قالون ، والدوري،وكتاب الدرالمكنونلرواية الدوري وحفص وقالون وغيره من الكتب القيمة في بابها ٠

واشتهر في آخر العصر الرسولي العلامة محمد بن ابراهيم الشاوري الخولاني المتوفى سنة ٨٦١ بكتابه الكبير المسمى فاكهة البصر والسمع في معرفة القراءات السبع ٠

وكان لدخول عالم القراءات الشهير محمد بن محمد الجزري المتوفى سنة ٨٣٣ الى اليمن وعقده مجالس العلم بجامع الاشاعر سنة ٨٢٨ أثر كبير فيتنشبط الهمم لدراسة هذا العلم الجليل ٠

ولم تقتصر عناية أهل اليمن في علوم القراءات وحدها فقد شاركوا أيضا في علم التفسير ، وظهرت شروح وحواشٍ كثيرة على التفاسير المعتمده كما مر بنا ذلك فيما سبق، ومن العلماء من كتب تفاسير مستقلة كالعلامة المفسر عطية بن محيي الدين النجراني المتوفى سنة٦٦٥، له كتاب البيان في التفسير٠ يقول المؤرخ يحيى بن الحسين في وصفه كتاب جليل جمع من علوم التفاسير الموافقة للقواعد في العدل والتوحيد ونكثر التفاسير بعد ذلك فيظهر خلال العصر الرسولي أربعة تفاسير للقرآن جيدة في بابها وهي : تفسير القرآن لمحمد بن ادريس الناصرالمتوفى سنة ٧٣٦ ويسمى الاكسير الابريز وله كتب أخرى في علوم القرآن الكريم للعلامة محمد بن علي الاعقم عرف بتفسير الاعقم واشتهر بين أيدي الناس فى دلك الوقت شهرة واسعة ٠ وثالث الكتب : تفسير القرآن لمعيض بن مفلح ، يصفه ابوالرجال بقوله : (من أعجب التفاسير يشتمل على كل فائدة شريدة) ٠ وأخيرا تفسير العلامة محمد بن حمزة بن مظفر المتوفى سنة ٨٣٦ المسمى المقاليد في التفسير يقع في أربعة مجلدات٠ وترك في هذا العصر العلامة أبو بكر بن علي الحداد المتوفى سنة ٨٠٠ تفسيرا مختصر يشبه في أسلوبه أسلوب تفسير الجلالين وعرف عند الناس بتفسير الحداد ٠

واهتم الفقهاء بجانب آخر من التفسير عُرف بتفسير الايات الشرعية وهي تلك التي تتناول بعض القضايا الشرعية ، وقد أنكر عليهم هـذا التخصيص في القرن الثالث عشر العلامة محمد بن علي الشوكاني المتوفى سنة ١٢٥٠ . وقد استقصـى آيات الاحكام في عصر بني رسول العلامة أحمد بن يحيى المرتضى وشرحها في كتاب له وكذلك العلامة محمد بن ابراهيم الوزير في بعض كتبه .

ومن أشهر مفسـري آيات الاحكام في عصرنا اثنان من العلمـاء وهما : الموزعي والفقيه يوسف . وسنفرد ترجمتهما فيما بعد وما عداهما فمصنفاتهم لا ترقى الى درجة هذين العالمين وان كانت جيدة في موضوعها فانها من حيث الابتكار والموضوع الذي تناولوه وهم جماعة منهم العلامة محمد بن الهادي بن تاج الدين المتوفى سنة ٧٢٠ له (الروضة والغدير) ويسمى أيضا (الانوار المضية في تفسير الآيات الشرعية) وهو أصل كتاب الثمرات للفقيه يوسف ، كما يقول ابن أبي الرجال ومنهم العلامة المهدي بن صلاح المتوفى سنة ٨٧٧ ، له تعليق على الروضة والغدير ، والعلامة محمد بن جبريل المتوفى سنة ٨٣٦ له كتاب في تفسير آيات الاحكام . والآن مع أشهر مفسري الآيات الشـرعية في هذا العصـر الموزعي

ـ الموزعـي

هو محمد بن علي بن عبد الله بن ابراهيم عرف بنور الدين الخطيب من أسرة علمية تولت الخطابة بموزع وقد ذكر الجندي واحداً من أجداده وهذا العلامة متأخر عن عصر الجندي والخزرجي فلم يذكراه في تاريخهما وسقطـت ترجمته من كتاب الضوء اللامع للسخاوي وانما أورد ترجمتـه تلميذه العلامة حسين بن عبد الرحمن الاهدل في تاريخه والبريهي في تاريخه أيضا ومنهما نستقي معلوماتنا عنه وهو أحق بالاهتمام والعناية .

ولد الموزعي بقرية موزع وأخذ علومه عن أساتذة زبيد ومن أشهرهم جمال الدين الريمي وغيره وقد أراد شيخه أن يواسيه بمعونة مالية أثناء طلبه العلم فأبى

ذلك وبعد تخرجه على شيوخه درس وأفتى ولقي القبول عند الناس حتى وصفه أحدهم بقوله : (كان إماما عالما علمه كالعارض الهاطل المحلي بصانيفه جيد الزمان العاطل مستقر المحاسن والبيان فخر اليمن وبهجة الزمن الصبور الوصول للرحم الخشوع له الباع الطويل في علم الفقه والاصول والنحو والمعاني والبيان واللغة) • وكان مع فقره المدقع لايكاد يدخر شيئا في بيته فكان صاحب صدقات واسعة وأفعال للخير وهذا بعض من أخلاقه ويقول تلميذه الاهدل : (لم يتفق لي الاخذ عن الموزعي وقت رحلتي الى (موزع) حتى وفق الله وصوله الينا في (أبيات حسين) ، وفد قدم على الملك الناصر، فنزل عندي في بيتي فأخذت عليه اللمع قراءة متقنة) • وجرت للموزعي حوادث جليلة مع الصوفية بناها في كتابنا (الصوفية والفقهاء) • وله مصنفات علمية منها كتاب (مصابيح المعاني في حروف المعاني) في النحو وكتاب (كنوز الخبايا في قواعد الوصايا) وكتاب (الاستعداد لرتبة الاجتهاد) وكتاب (جامع الفقه) في ثلاثة مجلدات لم يتمه • وكتاب (كشف الظلمة عن هذه الامة) في الرد على ابن عربي الصوفي وكتابه في أحكام القرآن يسمى (تفسير البيان في أحكام القرآن) من أفضل ما وضعه أهل اليمن في هذا الباب وقد وقفت عليه فوجدته البحر العباب والعلم الزاخر يقع في أربعة مجلدات كبيرة وربما تهيأ لطبعه الآن أحد العلماء • توفي الموزعي في أوائل ربيع الآخر سنة ٨٢٥ •

ـ الفقيه يوسف

يوسف بن أحمد بن محمد بن عثمان عرف بالفقيه يوسف أحد أعلام الفقه في عصره ولد بهجرة العين بثلا وأخذ عنه الطلبة من كل صوب حتى أصبح المشار اليه في علم الفقه ومن مصنفاته كتاب (الزهور في الفقه) وكتب (الرياض الزاهرة) وكتاب (الثمرات في تفسير آيات الاحكام) من الكتب الجيدة أثنى عليه الذهبي المتأخر في كتابه (التفسير والمفسرون) توفي سنة ٨٣٢ •

علم الحـــديث :

كان اليمن منذ عصر الصحابة والتابعين أحد مصادر الحديث الرئيسيةيرحل اليه طلابه من كل صوب ، وقد وصله أغلب أئمة الحديث من الرعيل الاول فوصله الامام عبد الله بن المبارك وسفيان بن عيينة والامام الشافعي وأحمد بن حنبـل وأبو عوانة وغيرهم كثير ، وهذا يدل على مكانة اليمن في علم الحديت ولا غرابة بعد ذلك أن نجد اليمن يزاحم حواضر الاسلام في الاسبقية بتدوين الحديـث فألف معمر بن راشد المتوفي سنة ١٥٣ مسنده في علم الحديث فسبق به جمهور المحدثين في التصنيف حتى قال الرامهزي إن أول من صنف في علم الحديث معمر ابن راشد في صنعاء وتلك أسبقية جليلة تفخر بها اليمن وأي فخر • ثم تـلاه أبو بكر عبد الرزاق بن همام المتوفى سنة ٢١١ ووضع موسوعته الضخمة فيعلم الحديت المسماة بالمصنف فكان هذا الكتاب منهلا لكل من أتى بعده ثم تتابعت المسانيد الحديثية فأتى بعد عبـد الرزاق جماعة من كبار المحـدثين لا مجال لحصرهم هنـا •

وقد ورث العصر الرسولي ذلك الاهتمام بعلم الحديـث ، إلا أنه اهتمام انحصر في مدارسه الحديثة وتعليسه ولم نجد من يؤلف فيه إلا في النادر • وكانت مجالس الحديث تعقد بعد صلاتي الصبح والعصر بمسجد الاشاعر بزبيد(فينصب لقارئ الحديث منبر شرقي الجامع فيسمع قراءته كل من في المسجد) •ونادرا ما يأتي قادم الى اليمن دون أن يعقد مجلس حديث ولهذا السبب كثرت مجالس الحديث في اليمن وتعددت رواياتهم فيه وقد شهد (جامع الاشاعر) بزبيد ندوات علمية كثيرة من هذه المجالس لعل أشهرها ندوة العلامة محمد بن محمد الجزري القادم الى اليمن سنة ٨٢٨ وندوة العلامة أحمد بن علي بن حجر العسقلاني حين قدومه سنة ٨٠٦ وقد شجع ملوك الدولة الرسولية علوم الحديث وكرموا حملته

وقد خصصوا جانبا كبيرا من (دار الضيف) لسماع الحديث ومدارسته عند وصول العلماء الى البلاد وعندما وصل الى اليمن المحدث الكبير أحمد بن عبد الله الطبري المتوفى سنة ٦٩٤ هـ المعروف بالمحب الطبري كان نزوله في هذهالدار وباشارته وضع للملك المظفر عدة كتب في علم الحديث والفقه اسماها باسمه ومن هذه الكتب كتاب (الدر المنثور للملك المنصور) جعله باسم والده ورتب فيه (كتاب الغريبين) في الحديث للهروي وكتاب (الطراز المذهب المحبر في تلخيص المذهب للملك المظفر) ذكر في أوله أنه ألفه بمقتضى أمر الملك المظفر ومات عنه وهو لايزال مسودة وألف للملك المظفر أيضا كتاب (المحرر للملك المظفر) جمع فيه أحكام الحديث من صحيح البخاري ومسلم ووضع في (أسانيد)الملك المظفر كتابين أولهما كتاب (الاعلام لمرويات المشيخة الاعلام من سكنة المسجد الحرام) وثانيهما كتاب (العقود الدرية في المشيخة المظفرية) وغيره من الكتب فدل ذلك على اعزاز الملك المظفر لعلم الحديث وعلمائه وكان هذا الملك يرحل بنفسه الى منزل الفقيه اسماعيل بن محمد الحضرمي ليسمع عليه (صحيح البخاري) على الرغم من كراهة هذا الفقيه للملك المظفر ومجاهرته بالانكارعليه •

وقد عرف أهل اليمن جل كتب الحديث الصحيحة وولع بها سائر العلماء على مختلف اتجاهاتهم ومشاربهم • ومع ذلك لم تشتهر بينهم تلك الكتب التي وضعها أهل اليمن أنفسهم من القدامى في علم الحديث فلم يشتهر مثلا كتاب (المسند) لمعمر بن راشد أو كتاب (المصنف) لتلميذه عبد الرزاق أو كتاب (المسند) لموسى بن طارق اللحجي وغيره • وكان جل اهتمامهم بصحيح البخاري وكثير منهم من حفظه عن ظهر قلب بمتونه وأسانيده كالفقيه أبي الخطاب عمر بن سعيد الهمداني المتوفى سنة ٦٦٣ وغيره • وكانت أول صلة لأهل اليمن بصحيح البخاري عندما قام المحدث محمد بن أحمد المروزي المتوفى سنة ٣٧١ هـ وعقد مجلس الحديث بمدينة ذمار فأخذ عنه العلماء روايته عن الفربري تلميذ البخاري حتى قال الخطيب البغدادي : إنه أجل من روى (صحيح البخاري) •ومن المتلقين

عنه في ذلك الوقت من أهل ذمار العلامة عبد الله بن علي الزرفاني وله رحلة الى مكة أخذ فيها عن أكابر علماء الاسلام كالعلامة (الطحاوي) والمزني وغيرهما ، وهو أقدم من روى صحيح البخاري من أهل اليمن تم تلاه (ابن ملامس) وغيره من جمهور المحدثين والفقهاء وقلما يظهر عالم منهم دون أن يطالع هذا الكتاب العظيم مطالعة كاملة تكون في الغالب بمحضر كبير من العلماء وربما خصصوا لقراءته أشهراً معلومة كرجب ورمضان . وقد شارك في حضورها بعض ملوك الدولة الرسولية كالمظفر والاشرف وعندما وصل الى اليمن العلامة مجد الدين الفيروزابادي عقد عند أول قدومه مجلسا عاما للحديث وشرع في قراءة صحيح البخاري بمحضر من الملك الاشرف وبعد الانتهاء من قراءته قام الشعراء بين يدي الملك بالتهنئة ومن بينهم الفقيه اسماعيل بن أبي بكر المقري الذي قال في أول قصيدته وكانت القراءة في رمضان :

لصومك شهر الصوم يكسى من الفخر ملابس لم تخلع على ليلة القدر

والحديث عن عناية أهل اليمن بصحيح البخاري متشعب الاطراف ، ولم تكن سائر كتب الحديث بهذا القدر من الاهتمام وان عرفوها وتدارسوها فان كتاب (صحيح مسلم) يأتي في الدرجة الثانية بعد البخاري . وقد شهد القرن السادس مدارسة هذا الكتاب بجامع الجند في حفل كبير رأسه الفقيه سيف السنة البريهي المتوفى سنة ٥٨٦ ، وعرفوا في ذلك الوقت من كتب الصحاح جملة منتخبة ككتاب (سنن الترمذي) وسنن أبي داود ومسند أحمد بن حنبل وانتشر بين أيديهم أيضا (كتاب الغريبين) للهروي فاعتنوا به العناية الكافية .

وكانت عنايتهم بمطالعة كتب الحديث أكثر من عنايتهم بالتأليف فيه كما أسلفنا فيما سبق وكأنهم استغنوا بما ألفه أهل الاسلام في هذا الصدد ، ولهذا السبب لم نظهر في هذا العصر مؤلفات معتمدة في علم الحديث سوى بضعة كتب قليلة تعنى في الدرجة الاولى بجمع الاحاديث النبوية المتعلقة بالاحكام ككتاب (شفاء الأوام) للامير الحسين بدر الدين المتوفى سنة ٦٦٢ وقد استوعب فيه

الماده من روايه أهل البت وانتشر بين فقهاء المذهب الامام زيد بن علي ولم ينمه فأكمله من بعده جماعة من العلماء كالعلامة صلاح بن ابراهيم بن تاج الدين والعلامة صلاح بن الجلال وعليه شروح وحواشٍ كثيرة لعل أشهرها حاشية الشوكاني المسماة (وبل الغمام) وكنت أظن أن للفقيه محمد بن بطال الركبي كتابا في شرح البخاري لكن اتضح لي بعد ذلك أن هذا الشرح هو من تأليف ابن بطال علي بن خلف المتوفى سنه ٤٤٩ أحد أفاضل المغرب وقد أثنى عليه ابن خلدون في مقدمته • واختصر (شرح صحيح مسلم) للمازري الفقيه اسماعيل ابن محمد الحضرمي المتوفى سنة ٧٧٦ والفقيه محمد بن عبد الرحمن البريهي المتوفى سنه ٧٤٨ وشرح سنن أبي داود العلامة أبو بكر أحمد بن دعسين المتوفى سنة ٧٥٢ في أربعة مجلدات مات عنها وهي مسودة • وشرح سنن النسائي في هذا العصر العلامة عبد الله بن محمد الناشري المتوفى سنة ٨١٤ •

وجمع العلماء خلال هذه الفترة (أربعينات) في علم الحديث في مضامين مختلفة حسب عادة العلماء في هذا الصدد ، ولعل أقدمها أربعينية العلامة محمد ابن اسماعيل بن أبي الصيف اليمني المتوفى سنة ٦٠٩ جعلها في فضل اليمن ثم تلاه معاصره العلامة محمد بن علي بن جديد المتوفى سنة ٦٢٠ له أربعون حديثا في فضائل الاعمال • ثم تتابعت هذه الاربعينيات فصنف فيها من علماء اليمن خلال العصر الرسولي جماعة منهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن بطال الركبي المتوفى سنة ٦٣٠ له (الاربعون المستخرجة من الاحاديث الحسان) ثم محمد بن عبد الله الحارثي المتوفى سنة ٦٤٩ له كتاب (الاربعون في الاذكار والادعية) وأحمد ابن عبد الله الهمداني له (الاربعون اليمنية في الاحاديث النبوية) وهو من أهل القرن الثامن فيما أظن ، ثم أربعينية العلامة علي بن أبي بكر الازرق المتوفى سنة ٨٠٩ ، ولأحمد بن أبي بكر البريهي المتوفى سنة ٨٢٥ أربعينية جعلها في أحاديث معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأخرى في مناقب الخلفاء الاربعة وغير ذلك من الاحاديث المجموعة المخصصة برقم أربعين وهي تختلف من حيث الطول والقصر •

وجمع المحدثون في ذلك الوقت الاحاديث الواردة في مضامين خاصةفجمع العلامة محمد بن موسى الذوالي المتوفى سنة ٧٩٠ الاحاديث الواردة في الاخلاق والاحسان في كتابه (حديقة الاذهان في شرح أحاديث فضل الاخلاق والاحسان) الى غير ذلك من المواضيع المتنوعة وتلك هي جوانب من اهتمامات العلماء فيعلم الحديث • أما مصطلح الحديث فلم يكتب فيه غير مؤلف واحد للعلامة محمد بن ابراهيم الوزيـــر •

على أن منسيخة الحديث ورئاسته لم تعط في العصر الرسولي إلا لاثنين من كبار علماء الحديث في اليمن هما العلامة ابراهيم بن عمر العلوي وابنه سليمان وانتهت بالعلامة محمد بن ابراهيم الوزير وسنفردهم بالترجمة فيما يلي:

العلـــــوي :

أبو اسحاق ابراهيم بن عمر بن علي العلوي من علماء زبيد الافاضل انتهت اليه رئاسة علم الحديث وكان من العلماء الكمّل حسن الاخلاق متواضعا محبوبا عند الناس وبرع في علم الحديث حتى قصدته الطلبة • ويقول الشرجي : (وإليه نرجع روايات أهل اليمن في الحديث) ودرس في (المدرسة الصلاحية) بزبيد ، وله تعاليق مفيدة على بعض الكتب الحديثة وجمع حفيده أبو القاسم بنسليمان مشائخ جده في مؤلف مستقل ، توفي بمدينة زبيد سنة ٧٥٢ •

العلـوي الثـاني :

هو سليمان بن ابراهيم العلوي السابق ذكره خلف والده في علم الحديث ورحل الى مكة واليه انتهت الرحلة في نواحي اليمن وسكن مدينة تعز فانتفع به جماعة من أهلها وكان يقول عن نفسه : قرأت البخاري بلفظه أكثر من خمسين مرة ، وقال الاهدل : إنه يقرأ البخاري في السنة مرتين فأكثر حتى أتى عليه نحو ٢٨ مرة . وكان أعرف أهل عصره بعلم الحديث ودرس بالصلاحية في زبيد مدة ثم انتقل الى تدريس الحديث بالمجاهدية والافضلية بتعز واستوطنها وجمع فيها مكتبة كبيرة ومن تلامبذه العلامة محمد بن ابراهيم الوزير، وكنت قد وقفت

له على إجازة لتلميذه هذا بعد فراغه من قراءة كتاب (الجمع بين الصحيحين) للحميدي نوردها هنا بنصها لمعرفة صيغ تلك الاجازات التي كانت تكتب في ذلك الوقت . يقول العلوي :

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله حمدا يوافي نعمه ويكافي مزيده لا نحصي ثناء عليه والصلاة والسلام على رسوله محمد النبي الأمي وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذرياته وأصهاره وأنصاره كلما ذكرهم الذاكرون وغفل عن ذكرهم الغافلون وبعد فانه شرفني الله تعالى ورحل إلي وقدم علي الى بلدي مدينة (تعز) المحروس مستقر المملكة اليمنية الرسولية عمرها الله بالعلم الشريف سيدنا الامام حقاً والمجتهد صدقاً الفائق على أقرانه من الاغصان النبوية المؤيدة بالتأييد الإلهي المختار لله تعالى والموفق في اجتهاده جمال العترة النبوية محمد بن ابراهيم بن علي المرتضى بن المفضل وسمع من لفظي وقرأ عليّ ثلث كتاب (الجمع بين صحيحي البخاري ومسلم) رحمة الله عليهما جميعا جمع الامام الحافظ أبي عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن حميد الازدي الحميدي الاندلسي الظاهري المذهب من كبار تلامذة ابن حزم وأجزته باقي الكتاب لأهليته ودينه وأمانته وعلمه وبراعته وسمع معه ماذكرته الفقيه الصالح النبيه قاسم بن سليمان بن محمد الحنبلي ثم العمري القادم معه وآخرون من بلادنا وأخبرتهم أني قرأته على شيخي الامام الحافظ المجتهد المقدم علي مقري كتاب الله تعالى أبي الحسن موفق بن علي بن أبي بكر ابن شداد المقري الهمداني المتوفى سنة ٧٧١ قال حدثنا الشيخ الامام المجتهد أبو العباس شهاب الدين أحمد بن أبي الخير بن منصور الشماخي السعدي المتوفى سنة ٧٢٩ وأجزته لحق سماعه لذلك من لفظي هو وصاحبه المذكور بروايتي وأجزت الشريف المذكور رواية جميع ما أرويه من سائر العلوم الدينيه فليرو ذلك عني موفقا مسددا بتاريخ يوم الثلاثاء من شهر ذي القعدة سنة ٨٠٦ وكان ذلك في منزلي في مدينة تعز المحروس حرسها الله تعالى وكتبه العبد الفقير الى الله

سليمان بن ابراهيم بن عمر بن علي العلوى الحنفي خادم الحديث النبوي .
توفي العلامة سليمان بن ابراهيم العلوي بمدينة تعز سنة ٨٢٥[1] .

علم الفقـه :

اقتصر أهل السنة في العصر الرسولي على تقليد أصحاب المذاهب الاربعة الفقهية ولم يخرج عن هذه القاعدة أحد من علمائهم إلا فيما كان ترجيحا لبعض الاقوال وقد أنكر الناس في ذلك الوقت على الفقيه علي بن اسماعيل الحضرمي لما اجتهد في مسألة لم يجد لها نصاً في كتب الفقه المتداولة عنـدهم وظل الناس منابذين له حتى وجد تلك المسألة أحد أقربائه بعد وفاته بمدة طويلة ، وقد شل التقليد حـركة الفقه وتطوره ولم يظهر فيه إلا جمـاعة من النقلة المؤولين للنصوص القديمة .

وقد زاده حدة وجود مؤلفات جماعة من كبار المقلدين الذين حصـروا الاجتهاد على أشخاص قليلين كالنووي رحمه الله وهو من كبار المقلدين والداعين اليه ، فوقف الناس عند تشريح الجمل وتفنيدها،على الرغم من وجود بعض العلماء الذين يقارعون بعلمهم مؤسسي المذاهب الاربعة الكبار . ولهذا السبب نجد مذهب الامام زيد بن علي قد فاق في اليمن سائر المذاهب الاخرى باجتهاداته واختياراته المتنوعة وبرع فيه جماعة من المجتهدين كالعلامة عبد الله بن حمزة والامام يحيى بن حمزة والامام أحمد بن يحيى المرتضى وغيرهم وهذا الاخير عرف بقبوله للتقليد إلا أنه تقليد لايتقيد بمذهب معين وتكثر الاقوال في هذا المذهب حتى أنها تشكل ثورة فقهية عظيمة بجانب قوله بالثـورة على الحاكم الظالم ويجدها الباحث في الكثرة الكاثرة من المصنفات العلمية التي تركها الفقهاء في ذلك الوقت وقد صرح بالاجتهاد جماعة من كبار فقهاء مذهب الامام زيد منذ تأسيس هذا المذهب حتى القرن الثالث عشر الهجري . ومع ذلك لم تظهر دعوة

---

(١) بقي ذكر ترجمة العلامة محمد بن ابراهيم الوزير ، والكلام فيه واسع ، فنحيل القارىء الى كتابنا : « محمد بن ابراهيم الوزير » الذي سيظهر قريبا .

الاجتهاد صريحة إلا في القرن الناسع الهجرى وقد حمل لواءها العلامة المجتهد محمد بن ابراهيم الوزير الموفى سنه ٨٤٠ ووصع في هذا الصدد رساله قيمة بعنوان (الفواعد في الاجتهاد) وقد كثر الفقهاء في هذا العصر ونحن سنعرض لهم بالاختصار في هذه العجالة العاجلة ونبتدىء اولا بفقهاء مذهب الامام زيد لأخذهم بالاجتهاد وتجديدهم في الفقه :

ابن هيجــان :

سليمان بن هيجان المتوفى سنة ٦٥٢ عرف بكتابه المذاكره في الفقه .

الامــــير :

ومن أشهر الفقهاء على مذهب الامام زيد بن علي العلامة الامير علي بن الحسين بن يحيى بن الناصر الحسين تلقى علومه على جماعة من فقهاء المذهب واتفق على فضله جميع العلماء توفي بعد سنة ٦٢٥ تقريبا واشتهر بكتابه (اللمع في الفقه) شهرة واسعة واعتمده الناس في كل عصر بعد زمانه وله كتب اخرى منها شرح (التحرير) للهاروني .

ابن معرف :

هو الفقيه محمد بن عبد الله بن معرف معاصر الامام أحمد بن الحســين المتوفى سنة ٦٥٦ له كتاب شرح التحرير بعنوان المنهج المير .

ابن بدر الدين :

الحسين بن بدر الدين محمد بن أحمد بن يحيى ولد سنة ٥٨٢ وهو من كبار علماء اليمن في ذلك الوقت واشتهر شهرة واسعة بمصنفه (شفاء الاوام) وله كتب أخرى منها (الذريعة في أصول الدين) وينابيع النصيــحة في العقائد الصحيحة وثمرة الافكار في حرب البغاة والكفار ، ومن مؤلفاته الفقهيه كتاب التقرير لفوائد التحرير وهو من الكتب الشهيرة في بابها توفي سنة ٦٦٢ بهجرة رغافة في صعدة .

النحـــوى :

الحسن بن محمد بن الحسن النحوي كان من كبار علماء المذهب نولى القضاء بصنعاء وله عدة كتب فقهية أشهرها كتاب (التذكرة الفاخرة) وكتاب شرح الحفيظ والسراج المنير وغيره توفي سنه ٧٩١ .

فهؤلاء أسهر فقهاء مذهب الامام زيد وهم كثره كاثرة استقصينا تراجمهم في كتابنا (مصادر الفكر الاسلامي في اليمن) فلا نعود اليها هنا .

أما فقهاء المذهب الشافعي فهم علماء الدولة الرســولية الرسميون وعلى أيديهم قامت النهضة الفقهية بمدارس اليمن في ذلك الوقت وقد نبغ منهم عدد كبير نقتصر هنا على ذكر الأهم منهم فقط .

القلعـــي :

أبو عبد الله محمد بن علي الحسن القلعي جاء الى اليمن من الشام وكان فقيها جليلا انتفع بكتبه أغلب أهل ظفار وحضرموت وعنه انتشر الفقه الشافعي في تلك النواحي ومن مصنفاته كتاب (قواعد المهذب) ومستغرب المهــذب وإيضاح الغوامض في علم الفرائض وغيره توفي سنة ٦٣٠ .

الاصـــبحي :

أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن محمد الاصبحي كان من الفقهاء الزهاد كثير التلاوة لكتاب الله ونبغ على يديه جمع كبير من علماء اليمن منهم علي بن أحمد الاصبحي الآتي ذكره ، وكان أكثر مكوثه بمصنعة (سير) ثم رحل الى مدينة (إب) بعد كثرة طلبته ، توفي سنة ٦٩١ ومـــن مصنفاته الفقهية كتـــاب (الاشراف في تصحيح الخلاف) و (الايضاح والفتوح في غرائب الشروح) و (المصباح) والوسائل والترجيح الى غير ذلك .

العمـــرانى :

محمد بن عبد الله بن أسعد العمراني تلقى علومه بمصنعة سير وهو من شيوخ الجندي وكان فقيها فاضلا أجمع علماء عصره على مكانته في الفقه توفي

سنة ٦٩٥ وله كتاب شرح (التنبيه) في الفقه و (البضاعة لمن أحب صلاة الجماعة) و (ايضاح الاضحى) و (جامع أسباب الخيرات) و (مثير العزم لأهل الكسل والفترات) .

الاصبحي :

أبو الحسن علي بن أحمد بن أسعد الاصبحي ولد سنة ٦٤٤ وتلقى علومه على ابن خاله العلامه محمد بن أبي بكر وعلى غيره وأتقن علم الفقه حتى حققه وكان علماء عصره يرجعون الى قوله ويسألونه وكان جميل الخلق دائم البشر حسن الالفه درس بالمدرسة (المظفرية) مدة فنبغ على يديه جماعة من العلماء وكان الملك المظفر يجله ويحترمه توفي سنة ٧٠٣ ومن أشهر مصنفاته كتاب (معين أهل التقوى في الفقه والفتوى) عرف بكتاب (المعين) وله كتاب (غرائب الشرحين) و (أسرار المهذب) وغيرها .

الحبيشي :

عبد الرحمن بن عمر بن محمد الحبيشي كان فقيها صالحا تولى القضاء بوصاب فكان قوالاً بالحق لايخاف في الله لومة لائم وله مواقف مع الولاة والحكام توفي سنة ٧٨٠ ومن مصنفاته كتاب (النظم والتبيان) و (الفتاوى الحبيشية) .

الريمي :

جمال الدين محمد بن عبد الله الريمي من أشهر فقهاء المذهب الشافعي في العصر الرسولي ولد سنة ٧١٠ وتلقى علومه على جمع كبير من علماء زبيد وكان فقيها ضليعا عارفا محققا مشتغلا بالتدريس باذلاً نفسه للطلبة فكان يقوم بنفقات المنقطعين منهم وولاه الملك الاشرف قضاء الاقضية باليمن كلها وجمع أموالا كثيرة ويصفه الخزرجي بقوله : (كان وهابا مناعا ضرارا نفاعا) ، توفي سنة ٧٩٢ ومن مصنفاته الكثيرة كتاب (التفقيه شرح التنبيه) وكتاب (عمدة الامة في اجماع الأئمة الاربعة) وكتاب (المعاني البديعة في معرفة اختلاف الشريعة) وهو من

الكتب الفريدة في بابها وكتاب (نظم التنبيه) وكتاب (بغية الناسك في كيفية المناسك) و(مطلع الاشراق في الاختلاف الغزالي وأبي اسحاق) و (غرائب المذهب) الى غير ذلك من لكتب الفريدة في بابها •

الازرق :

نور الدين علي بن أبي بكر الازرق ولد بأبيات حسين وهو من شيوخ الاهدل صاحب التاريخ أخذ علومه بمدينة زبيد والتقى بعلماء مكة في رحلته اليها ثم عاد الى بلده ومهر في الفقه والحساب ونفرغ للتدريس والمطالعة فلا يرى إلا مطالعا لكتاب أو مدرسا في مدرسة وأفتى نحو خمسين سنة ومن مصنفاته (كتاب التحقيق الوافي شرح التنبيه) وهو الشرح الكبير وكتاب (الحق شرح التنبيه المختصر) وكتاب (مختصر المهمات) للاسنوي وكتاب (نفائس الاحكام) وهو من الكتب القيمة وصفه الاهدل في تاريخه وأثنى عليه • توفي الازرق سنة ٨٠٩ بأبيات حسين• ومن فقهاء المذهب الحنفي في عصر بني رسول جماعة من العلماء نذكر منهم :

ابن معطن :

الفقيه أبو بكر بن محمد بن معطن من كبار الفقهاء بزبيد وعنه انتشر فقه أبي حنيفة توفي سنة ٦٨٤ •

(النحو واللغة) :

بدأت عناية اليمن بعلوم اللغة والنحو منذ مدة مبكرة تحت عوامل دينية بحتة اذ بواسطة العربية يمكن فهم أسرار القرآن الكريم والسنة النبوية واشتدت عنايتهم بالعربية حتى كادت أن تذوب فيها الكثير من اللهجات المحلية(١) ولم يعد لها أي أثر يذكر إلا فيما كان خاصا بأسماء البلدان والاعلام ، وقد اختار أهل اليمن عربية عدنان لفهم النصوص الاسلامية ، وظهر فيهم من آلف معاجم مستقلة

---

(١) ولو بقي الآن كثير من مفردات اللهجة اليمنية لاثرت العربية بكثير من الكلمات الاصيلة الموغلة في عربيتها اذ لهجة قحطان هي أصل العربية ومهدها الاول

تعنى بغريب اللغة لعل أقدمها كتاب (نظام الغريب) لعيسى بن ابراهيم الربعي المتوفى سنة ٤٨٠ وقد اشتهر شهرة واسعة في زمنه واعتمده الطلبة في كل عصر حتى إن الجندي يقول — وهو يصف عناية الناس بهذا الكتاب — : (ان من لايقرؤه لايعد لغويا) • وقد اقتصر فيه على ما يكثر استعماله من غريب اللغة • ولا يضارعه في الشهرة والمكانة سوى كتابه شمس العلوم لنشوان الحميري المتوفى سنة ٥٧٣ ، وهو المعجم الوحيد الذي أثر على أهل اليمن اذ لم يؤلف أحد من بعده في هذا الشأن • واكتفى الناس في اليمن بعد ذلك بكتاب (القاموس المحيط) للفيروزابادي الذي وضعه مؤلفه في مدينة (زبيد) عندما استقر به الترحال في هذه المدينة وأهدى نسخته الكاملة الى الملك الناصر الرسولي وصدره بأبيات في مدحه[1] :

مولى ملوك الارض من في وجهه مقياس نور أيما مقياس
بدر محيا وجهه الاسنى لنا مغن عن القمرين والنبراس

أما علم النحو فله شأن كبير في اليمن واستغرقت دراسته جل أوقاتهم العلمية حتى نجد منهم من أوقف حياته لتعلم النحو وتعليمه ، ولا يعد الفقيه مشاركا في العلوم الشرعية الا بعد أن يحقق هذا الفن ويتقن أصوله • وكان أكثر تفقه أهل اليمن في النحو قبل ظهور الكتب الكبيرة على مختصر الحسن بن عباد الذي عرف باسمه وتداوله الناس ، حتى إن الطالب في النحو (لا يستفتح إلا به) حسب عبارة الجندي •• وقد شرحه في (القرن السادس) في اليمن الفقيه أبو السعود ابن فتح الله • وفي (القرن الثامن) شرحه العلامة عبد اللطيف بن أبي بكر الشرجي وعندما وصلت الى اليمن (مقدمة ابن بابشاذ) في النحو المعروفة بالمقدمة الحسنية ولع الناس بها غاية الولع واعتمدت في الدراسة حتى أن الملك المؤيد الرسولي كان من جملة حفاظها وشرحها في العصر الرسولي جماعة من كبار العلماء لعل أشهرهم الامام يحيى بن حمزة في كتابه (الحاصر لفوايد المقدمة) وشرحها بعده

---

(١) القاموس ج ١ ص ٤ •

العلامة النحوي أحمد بن عنماز بن بصيبص المنوفي سنه ٧٦٨ ثم العلامة عبد اللطيف الشرجي المنوفي سنة ٧٠٣ ، وأخيرا شرحه العلامة على بن محمد بن هطيل المنوفي سنة ٨١٢ المسمى (عمدة ذوي الهمم) .

ثم جاء كتاب (المفصل في النحو) للزمخشري فسال الناس اليه وأعجبوا بأسلوبه حتى إن منهم من حفظه على ضخامته ، وشرحه في العصر الذي ندرسه أربعة من كبار النحاة هم : ابن عصفير المتوفى سنة ٦١٤ تقريبا ، ومحمد بن على ابن بعيش المتوفى سنة ٦٨٠ وعبد اللطيف الشرجي وابن هطيل . ووقفت على شرح ضخم للامام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى بعنوان (التاج المكلل) .

وأخيرا جاءت كتب ابن الحاجب النحوية وغطت على سائر كتب النحو المتداولة وأصبحت شغل العلماء الشاغل فلا يرجعون إلا اليها وقد اشتهر كتاب ابن الحاجب (الكافية) شهرة واسعة في حين لايكاد يذكر كتابه الآخر في النحو المسمى (الوافية) الا نادرا وأقل منهما حظاً كتاب ابن الحاجب الثالث المسمى (الشافية) وهو في التصريف . أما كتاب (الكافية) فقد دخل الدراسة النحوية في اليمن منذ زمن المصنف في القرن السابع حتى إن المؤرخ ابن أبى الرجال ينسب لابن عصيفر كتابا في شرحه وهو متقدم الزمن . وشرحه في اليمن أيضا العلامة ابن هطيل السابق الذكر في كتابه (معونة الطالب) وشرحه علي بن محمد ابن أبي القاسم المتوفى سنة ٨٣٧ في (البرود الصافية) وأحمد بن محمد الرصاص في (منهاج الطالب) ، وتكثر الشروح لهذا الكتاب بعد عصرنا هذا ويشتهر على وجه الخصوص كتاب (مصباح الراغب) لمحمد بن عز الدين المتوفى سنة ٩٧٣ وقد عرف هذا الكتاب بحاشية (السيد) وشرح عبد الملك بن دعيسن المتوفى سنة ١٠٠٦ الى غير دلك من الشروح الكثيرة .

ومن علماء النحو في اليمن من لم يكتف بشرح المتون النحوية (الشهيرة) فشارك في التأليف فيه مستقلا وقد عرف عصر بني رسول مجموعة من هؤلاء العلماء المصنفين لعل أقدمهم جمهور بن علي بن جمهور تلميذ ابن بطال الركبي

له كناب في النحو بعنوان (المذاكرة) ومنهم أبو محمد عبد الله بن عمر الفايشي المنوفى سنة ٦٩٥ وضع في النحو كتبا جيدة منها كتابه (اللوامع في النحـــو) وغيره ومنهم عبد الله بن محمد بن أبي الرجال المتوفى سنة ٧٠٢ تقريبا له كتاب (إكسير الذهب في النحو) •

ومنهم محمد بن موسى الذؤالي المتوفى سنة ٧٩٠ له (الرد على النحاة)• أما مشاهير النحاة في العصر الرسولى فهم أربعة رجال سنفردهم بالترجمةفيمايلي:

ابن يعيش :

كنت أظن ان ابن يعبش هذا هو ذلك العالم النحوي الشامي المولد والوفاة ومصدر هذا الاشتباه أن كليهما شرح كتاب المفصل للزمخشري ، ثم اتضح لي أن ابن يعيش الحلبي هو غير ابن يعبش الصنعاني فالاخير هو محمد بن عـــلي ابن يعيش ترجم له صاحب الطبقات وذكر أنه من أهل صنعاء وأنه برع في علم النحو واللغة ومن مؤلفاته النحوية كتاب (التهذيب في النحو) وشرح المفصل للزمخشري و (الياقوتة في النحو) و (الدرر المنظومة بالبيان وتقويم اللسان) وغيره • توفي سنة ٦٨٠ •

ابن بصيبص :

هو ابو العباس أحمد بن عثمان بن بصيبص عالم النحو والعروض ولـــد بمدينة زبيد وانتهت اليه رئاسة هذا الفن بمدينته ورحل اليه الطلبة من أماكن بعيدة وكان جيد الفهم شرع في شرح مقدمة ابن بابشاذ فاختـــرمته المنية قبل اتمامه توفي سنة ٧٦٨ •

الشــــرجي :

تكرر ذكره في هذا الكتاب فهو سراج الدين عبد اللطيف بن أبي بكر بن أحمد الشرجي ولد بقرية الشرجة بين حيس وزبيد سنة ٧٤٠ ورحل الى زبيـــد لتلقي العلم على ابن بصيبص حتى برع في فنه ، فعيّن مدرسا بالمدرسة الصلاحية وانتشر ذكره في اليمن فقصدته الطلبة من كل صوب وتنقل في عدة مدارس يدرس

فيها علم النحو ثم استدعاه الملك الاشرف سنة ٧٨٢ ليقرأ علبه في كسب النحو والعربية وأكرمه غاية الاكرام توفي سنة ٨٠٢ ومن مصنفاته النحوية كتاب شرح (ملحة الاعراب) ونظم (مختصر ابن عباد) ومختصر المحرر في النحو وكتاب (الاعلام لمواضع اللام في الكلام) ونظم (مقدّمة ابن بابشاذ) ومقدّمة في علم النحو •

ابن هطيل :

علي بن محمد بن هطيل شيخ النحاة في عصره وعليه أخذ الامام علي بن صلاح الدين وكان حرياً بأن يسمى بسيبويه اليمن كما يقول ابن أبي الرجال توفي سنة ٨١٢ بمدينه صنعاء وأصله من حوث ومن مؤلفاته النحوية الكثيرة كتاب (التاج المكلل في شرح المفصل) وكتاب (عمدة ذوي الهمم) شرح المقدمة المحسنية في النحو ومعونة الطلاب وشرح الجمل الى غير ذلك •

فهؤلاء أشهر مشاهير النحو في العصر الرسولي ولهذا العصر مساهمات أخرى في علوم العربية سنذكرها عند حديثنا عن الادب •

(علم التاريخ) :

ظل اليمن بعد خمود جذوة الفتوح الاسلامية منطويا على نفسه لايلوي على شيء إلا فيما كان متعلقا بقضاياه الخاصة ، وقد أمض كثيراً من المؤرّخين المحليين تجاهل كتاب الموسوعات الاسلامية لتاريخ اليمن وعابوا عليهم عدم الاطناب في تاريخهم المحلي•ولهم بعض العذر في ذلك ، حيث ساعدت هوة المسافة بين اليمن والحواضر الاسلامية الزاهرة في بغداد والشام ومصر والاندلس على جهل الناس باليمن في حين كان أهل اليمن متحزبين في أنفسهم الى أحزاب فشكل هذا عاملا في ركود الكتابة التاريخية وكل الكتب التي ظهرت في تلك الفترات الغابرة هي مؤلفات الحسن بن أحمد الهمداني المتخصصة غالبا في تاريخ ماقبل الاسلام وتبعه في هذا الكلاعي ونشوان الحميري وغيرهما •• واذا ظهرت كتب تاريخية فانما هي أجزاء مبتورة تعنى بتاريخ طوائف معينة من أصحاب المذاهب

فمسلم اللحجي المتوفى سنة ٥٤٥ هـ مثلا لا يؤرخ إلاّ لأتباع فرقته من الزيدية في حين كان ابن سمرة المتوفى سنة ٥٨٦ هـ يعنى فى تاريخه بالدرجة الاولى بتاريخ الفقهاء من الشافعية ومنهم من اعتنى بأشخاص الحكام وحدهم دون غيرهم فظهرت مؤلفات مستقلة عرفت بكتب السير تؤرخ لرجال من الأئمة كالهادي يحيى ابن الحسين المتوفى سنة ٢٨٢ هـ في كتاب (سيرة الامام الهادي) لعلي بن محمد العلوي (القرن الثالث) وهذه السيرة أقدم ما وضع في هـذا الباب ، ثم سيرة الناصر لعبد الله بن عمر الهمداني (في أوائل القرن الرابع) وسيرة القاسم بن علي العياني المتوفى سنة ٣٩٣ للحسين بن يعقوب وسيرة الإمام عبد الله بن حمزة، وغيره كثير جدا ومنهم جمع تراجم الأئمة في كتاب واحد كالعلامة حميد بن أحمد المحلي المتوفى سنة ٦٥٢ .

وظهرت في الكتابة التاريخية أيضا نزعة اقليمية تعنى بتاريخ مدن يمنية معينة وقد بدأ هذا الاتجاه المؤرخ اليمني اسحاق بن يحيى الزهري في القرن الرابع فوضع كتابا مستقلا في تاريخ (مدينة صنعاء) وقف عليه الجندي فقال في وصفه (لطيف الحجم صغير فيه فوائد جمة) ثم تلاه المؤرخ الكبير أبو العباس أحمد بن عبد الله الرازي المتوفى سنة ٥٤٥ تقريبا فوضع مصنفا حافلا في تاريخ صنعاء وكأنه أراد بهذا التأليف سد النقص في تاريخ أمهات المدن الاسلامية كبغداد ودمشق ومكة وأصفهان وجرجان وغيرها وقد بدأت بوادر هذه الظاهرة في مؤلفات الاسلاميين أمثال الازرقي المتوفى سنة ٢٥٠ في تاريخ (مكة) وأحمد ابن طيفور المتوفى سنة ٢٨٠ في تاريخ (بغداد) وأبو نعيم الاصفهاني المتوفى سنة ٤٣٠ في تاريخ (أصفهان) وغيره كثير جدا على أن مادة هذه الكتب الحديثة أكثر من مادتها التاريخية وهذا ما يجده المطالع في تاريخ صنعاء للرازي ..

ولم تظهر هناك نزعة شاملة لتاريخ البلاد إلا عند المؤرخ أبو العباس أحمد ابن علي العرشاني المتوفى سنة ٦٠٧ في مؤلفاته الضائعة فهذا الرجل نخل التاريخ اليمني واستطرد على كتاب الموسوعات الاسلامية كالطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ

والقضاعي المتوفى سنة ٤٥٤ هـ في تجاهلهم لتاريخ اليمن ووضع كتبا حافلة أقل ما يقال عنها أنها أرَّخت لليمن عامة ، وكان من الممكن اعتبار الاديب عمارة اليمني رائد الكتابة التاريخية لليمن لولا أن حسه الادبي غلب على اتجاهه التاريخي فاتت في كتاباته فجوات كبيرة ..

على أنه يجب أن لا نظلم تلك الكتب الناقصة فان فيها من التخصيص والاحاطة بالموضوع ما فيه الكفاية . وكان العصر الرسولي رائد التخصص التاريخي ، ففيه ظهرت جوانب من ذلك التخصص كالاهتمام — مثلا — بتاريخ مجاميع في التراجم تعنى بتراجم تلك الأسر العلمية وهي مزيج" من كتب الانساب وكتب التراجم . وكان المؤرخ أبو بكر بن أحمد بن دعيسن المتوفى سنة ٧٥٢ هو أول من فتح الباب من الكتابة التاريخية،وأرَّخ في كتابه « لأسرته من بني مجموعة محمد بن العفيف في تراجم مشاهير أسرته ، وبعدِدعيسن » . ثم ظهرت ذلك كتب العلامة محمد بن عبد الله الناشري المتوفى سنة ٨٢١ كتابه غرر الدرر في تاريخ أسرته وأكمله من بعده جماعة من علماء آل ناشر ..

ومن كتب التراجم المتخصصة تلك التي تعنى بتراجم رجال (فن) واحد من فنون العلم كعلم النحو الذي أرخ لرجاله في اليمن المؤرخ أبو العباس أحمد ابن علي العرشاني المتوفى سنة ٦٠٧ وتلاه ابن عبد المجيد اليماني في كتاب (اشارة التعيين في طبقات النحاة واللغويين) ومنهم من أرخ لعلماء مدينة معينة فكتب العلامة عبد الله بن زيد العنسي كتابا عن علماء سنحان بعنوان « مناهج البيان » وكتب عن علماء تعز المؤرخ أبو عفان عثمان بن محمد الشرعبي المتوفى سنة ٨١٧ ومن الكتب التاريخية ما تخصص في تاريخ البلدان وقد مر بنا كتاب الرازي في تاريخ صنعاء ثم تاريخ زبيد لمحمد بن أسير وابن الديبع ..

أما كتب التاريخ ، وأعني بها تلك الكتب المجردة من التراجم فهي نفسها قد عرفت شيئا من التخصص حيث وضع المؤرخ محمد بن حاتم المتوفى سنة ٧٠٢ أول كتاب متخصِّص يعنى بتاريخ دولةٍ واحدة في اليمن ، وهي دولة

الغــز" وأتباعهم من ملــوك بني رســول ، ثم تطوّر هــذا الاتّجــاه على يد المؤرخ الحسن بن علي الخزرجي في كنابه « العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية » • ووضع في هذا العصر المؤرخ علي بن أبي بكر الناشرى كتابا خاصا في أخبار دولة الملك الناصر بعنوان (روضة الناضر) •

وقد ساهمت كتب (السيَر) في تدوين سير الأئمة في ذلك الوقت فكتب فيها المؤرخ يحيى بن أبي القاسم سيرة (الامام المهدي أحمد بن الحسن) المقتول سنة ٦٥٦ • وكتب العلامة الهادي بن ابراهيم بن الوزير كتابين في سيرة الامام الناصر صلاح الدين وللامام المهدي أحمد بن يحيى المرتضي (سيرة) كتبهــا ولده الحســن ••

وهكذا نجد عصر بني رسول قد أسس القواعد المنهجية لكتابة التاريخ في اليمن فحذا حذوها كل من أتى بعد هذا العصر من المؤرخين • والمتأمل لما كتبناه في كتابنا (مدرسة التاريخ اليمني) يجد الكثير من هذه الاتجاهات وتأثير هذا العصر عليها •• والآن مع قسمي التاريخ الرئيسين ، وهما الحوليات والتراجم •• وهنا نجد صعوبة كبيره في التفريق بين هذين النمطين لأن كثيرا من الكتب التاريخيه قد جمعت بين كتابة الحدث التاريخي وفن الترجمة . كما هو الحال عند المؤرخ الجندى والاهدل ، وقليلا ما تجد من يفرق بينهما كالمؤرخ الخزرجي الذي خصص لكل منهما كتبا مستقلة ، ومع ذلك فان مؤسس كتابة الحوليات في العصر الرسولي هو المؤرخ اليمني بدر الدين محمد بن حاتم اليامي صاحب كتاب السمط الغالي الثمن ، وقد ساير أحداث الدولتين الايوبيه والرسولية بكل عناية ودقه • ثم تلاه المؤرخ عماد الدين بن علي الحمزي المتوفى سنة ٧١٤ في كتابه الضخم (كنز الاخيار في السير والاخبار) وهو من موسوعات العصر الرسولي ونادرا مايوجد كاملا ، وقد أراد أن يؤرخ فيه للعالم الاسلامي قاطبة ، فبدأ أجزاءه الاولى بسيرة الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ثم سيرة الخلفاء الراشدين من بعده ، وتاريخ الدولة الاموية والعباسية وغيرهم من ملوك الشام والمغرب ومصر والعراق

وفي آخر الكتاب وضع نبذة في تاريخ اليمن الى زمن المؤلف • ويقول المؤرخ « زباره » في وصف هذا الكتاب إنه (مأخوذ من ناريح المسعودى وابن الاثير والطبري وغيرهم) وألّف في التاريخ العام بعد الحمزي الاديب تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني المتوفى سنة ٧٤٤ كتابه (بهجة الزمن) الذيوضعه بإشارة من النويري وفيه نجد سعة اطلاع المؤلف ودقته في وصف الاحداث مع منهجية علمية لا تنكر وتميز بحسن التبويب وايجاز العبارة ، ولانستغرب هذا الاسلوب على المؤلف فهو صاحب ثقافة واسعه واطلاع عام • وعلى أسلوب ابن عبد المجيد في نبويبه لأحداث التاريخ اليمني حسب الدول وضـع الملك الأشرف الرسولي المتوفى سنة ٨٠٣ كتابيه (العسجد المسبوك) و (فاكهـة الزمن في تاريخ اليمن) وفيه من الدقة وحسن التنسيق ما يقف عنده علم الملك الرسولي ووقته ، ومن الباحثين المعاصرين من يشك في نسبة الكتاب الاول للملك الاشرف[1] • ويرجح أنه من تأليف الخزرجي الآتي ذكره • وأخيرا بلغ علم التاريخ قمة النضج بالمؤرخ علي بن حسن الخزرجي المتوفى سنة ٨١٢ ، وهو أستاذ هذا الفن في اليمن وصاحب الزعامة فيه وبوجوده يذكر تاريخ دولة بني رســول وأمجادها العظيمة فهو صنيع هذه الدولة ومعرفها ••

ثم ظهرت الشمولية في تأريخ اليمن عامة والمحلي في آن واحد حيث وضع المؤرخ عبد الرحمن بن محمد الحبيشي المتوفـى سنة ٧٨٢ تأريخ اليمن عامة وتأريخ بلدته وصاب في كتابه (الاعتبار في التواريخ والآثار) وكتب أخرى في هذا الباب استقصيناها في بحث آخر ••

وكل هذه الكتب أضافت مادة رئيسية للتأريخ إذ هي المدخل العام لفهم تاريخ البلاد حيث شكلت في عمومها ترابط الاحداث وتناسق الفترات حتـى لاتكاد تقف عند زمن يفصل بينه زمن آخر •

---

(١) أنظر بحثا حول هذا الموضوع للاستاذ مصطفى جواد في مجلة المورد •

أما فن التراجم فهو الشق الآخر لعلم التاريخ ، وقد ولـع به أهل اليس الولوع النام وارتبط بنزعة دينية خاصة حب حفظت فيه عباداب القوم ومجاهداتهم وسلوكهم الشخصي واعتبر تدوينها للعظة والاعتبار وتنسبط الهمم ، ولهـذا السبب تقف دائما في هذه التراجم على أخبار العباد والصالحين ومنهم من كتب هذه التراجم بقصد التعريف بعلماء اليمن وسد النقص العام الذى أصيبت به الموسوعات الاسلامية فيما يتعلق بعلماء اليمن وصلحائه ، وأنت تلمس هـذا الشعور منذ زمن ابن سمرة في القرن السادس حتى آخر العصر الرسولي في زمن العلامة أحمد بن أحمد الشرجي المتوفى سنة ٨٩٢ هـ الذي يقول في مقدمة كتابه (طبقات الخواص) أنه (لم يرَ أحدا من المؤرخين قد تعرض لذكر أحد من أهل اليمن وانما يذكرون أهل الشام والعراق والمغرب ونحو ذلك) وبهذا الدافع القوي كتب المؤرخون في اليمن تراجم مشاهيرهم من العلماء والزهاد..

وقد بدأت كتابة التراجم المرتبة حسب الطبقات بالمؤرخ اليمني مسـلم اللحجي المتوفى سنة ٥٤٥ تقريبا في كتابه « أخبار الزيدية » الذي خصصه في تراجم علماء هذا المذهب ورتبه على خمس طبقات الطبقة الاولى في المعاصرين للامام الهادي يحيى بن الحسين وأبنائه والثانية في المعاصرين للمختار من بني الضحاك وغيرهم والثالثة في ذكر الآخذين عن الطبري القادم الى اليمن والرابعة في الآخذين عن مطرف بن شهاب شيخ المطرفية والخامسة في المعاصرين للمؤلف ..وهكذا نجد هذا الكتاب أول مؤلَّف يوضع في طبقات علماء اليمن وأبنائه، وليس كتاب ابن سمرة الآتي ذكره كما يزعم الاستاذ فؤاد سيِّـد بأنه أول مؤلف في طبقات علماء اليمن .

ثم تلاه ابن سمرة ووضع كتابا حافلا في طبقات فقهاء اليمن من أهل السنة ورتبه على سبع طبقات من عهد الرسول صلى الله عليه وسلم الى زمنه في القرن السادس ثم ألحق بآخر الكتاب فصلا في تراجم الفقهاء حسب البلدان وهـي طريقة عجيبة توسع فيها من بعده المؤرخ الجندي والاهدل حتى أنهما سلكا في

ترتب كتابيهما ترتيبا على حسب البلدان وقد أغنانا في التعريف بالبلدان والقرى اليمنية عن مراجعة معاجم البلدان التي نادرا ما تشير اليها كتب البلدانيات •

وهذا الجندي هو حجة علم التاريخ في العصر الرسولي ، وقد تميّز كتابه بالاستقصاء وحسن الترتيب ، وقد جعل من كتاب « طبقات فقهاء اليمن » لابن سمرة المادة الرئيسية له ثم توسع في تراجم العلماء الذين ظهروا من بعده مع استطراداب في تراجم العلماء الوارد ذكرهم في الكتاب من غير أهل اليمن وألحق أيضا بكتابه ملاحقَ في ذكر الدول التي حكمت اليمن من أول الاسلام الى زمنه•

أما الخزرجي فانه خرج عن قاعدة شيخيه ابن سمرة والجندي وبنى كتابه في التراجم المسمى (طراز أعلام الزمن) على حروف المعجم على الرغم من تسمية هذا الكتاب بالطبقات • وميزة كتاب الخزرجي أنه جمع مادة كتاب ابن سمرة والجندي وأضاف اليهما العلماء المتأخرين عنهما ورتبهم حسب الحروف فسهل تناوله والرجوع اليه فأنت مثلا لاتستطيع أن ترجع الى ترجمة من تراجم الجندي إلاّ بعد مشقة كبيرة لعدم اتباع الطريقة المعجمية التي سار عليها الخزرجي ••

وعلى كلٍّ ، فان قاعدة ابن سمرة التي تعتمد على الطبقات والتسلسل الزمني لعصور العلماء وقاعدة الجندي التي تلتزم ذكر العلماء حسب البلدان وقاعدة الخزرجي المعجمية ، هي الطرق الثلاث التي سار عليها المؤرخون اليمنيون بعد القرن السابع • وظهرت كتب لاتخرج عن الانماط الثلاثة • فعلى القاعدة الاولى كتب المؤرخ الصوفي عبد الله بن أسعد اليافعي المتوفى سنة ٧٦٨ هـ كتابه في تراجم علماء الاسلام المسمى « مرآة الجنان » جمعه من ملخصات الذهبي وابن الجوزي وغيرهما • وعلى القاعدة الثانية كتب المؤرخ الحسين بن عبد الرحمن الاهدل المتوفى سنة ٨٥٥ كتابه « تحفة الزمن »·وتبعه في أسلوبه المؤرخ البريهي في كتابه « تراجم علماء اليمن » وبدأه بذكر أهل صنعاء وسار فيه حتى وصل الى عدن وبها ختم كتابه وهو من أهل القرن التاسع وامتد عمره الى نحو سنة ٨٩٠ هـ ولم أقف على ترجمته ولا على اسمه الكامل • وتأثر بالقاعدة الثالثة

وهي قاعدة الخزرجي المؤرخ أحمد بن أحمد الشرجي من علماء آخر العصر الرسولي وبنى كتابه على حروف المعجم ثم ختمه بأهل الكنى كما فعل الخزرجي• وفي العصر الرسولي وضعت ثلاثة كتب في التاريخ لم تحظ بالعناية والاهتمام فضاع بعضها وجهل شأنه ، والكتاب الاول من تأليف الفقيه محمد بن يوسف المزجد وهو بعنوان (تحفة الزمن) وقف على مخطوطته الوحيدة المؤرخ الحسين بن عبد الرحمن الاهدل ونقل اكثر مادته في كتابه المسمى بنفس الاسم أما الكتابان الآخران فأغلب الظن أنهما وضعا بإشارة من السخاوي صاحب الضوء اللامع وهما من تأليف موسى بن أحمد الذؤالي وحمزة بن علي الناشري وللملك الافضل الرسولي كتاب في التراجم بعنوان (العطايا السنية في المناقب اليمنية) وذيله (نزهة العيون) ولمحمد بن أبي بكر الخياط كتاب في التراجم نقل عنه البريهي في تاريخه•

وبعد فان الحديث عن التأريخ في العصر الرسولي متشعب الاطراف ويكفي أن نشير هنا الى أربعة من حملة فن الكتابة التاريخية في هذا العصر حتى ندرك مدى تطور هذا الفن ورقيه ••

محمد بن حاتم :

هو بدر الدين محمد بن حاتم بن أحمد بن عمران بن الفضل اليامي الهمداني • أقدم من دوّن التاريخ في العصر الرسولي وهو أحد فرسان القلم والسيف ، ساهم في خوض المعارك الكبيرة مع الدولة الرسولية وأعطي المناصب الحكومية الكبيرة وله نظم جيد أورد بعضه في تأريخه ، ويقول ناشر كتابه إنه لم يجد معلومات كافية عن حياة محمد بن حاتم برغم التحريات الواسعة•

أما تاريخه فقد وضعه في أخبار دولة الايوبيين في اليمن وتاريخ دولة الرسوليين الى زمن الملك المظفر • وهو تاريخ حافل عجيب فيه من الاستقصاء والتحري في الرواية ما يبهر العقل ، وأهم مايلفت النظر في كتابته رصانة الاسلوب وتماسك العبارة حتى كأنك تقرأ قطعة أدبية ، وربما أفلتت في عباراته بعض

الكلمات العامية المستعملة في التخاطب العادى ، إلاّ أنك اذا رجعت الى أصلها وجدتها فصيحة . ويشرح المؤلف باعثه الى تأليف كتابه فيقول : إنه لم يجد أحدا من المؤرخين من صرف همته في تدوين أخبار الغــزّ في اليمن فأحب أن يكون السابق الى ذلك . ثم يمضي في سياق تأريخ الغــز باليمن ويتوسع في ذكــر التفاصيل الدقيقة في تأريخهــم بأمانة ودقة . وقد أحسن محققــه بنشر هذا الكتاب القيّــم .

الجنـــدي :

هو شيخ المؤرخين وإمامهم في العصر الرسولي . أبو عبد الله محمد بن يوسف بن يعقوب الجندي عُرف بالبها ، وقد أمضى حياته متفرغا لدراســة العلوم وشغل المناصب القضائية الكبيرة ، وكان والده أحد أعيان العصرالرسولي وله مشاركة في علم الفقه والادب . وعنه نقل الابن كثيرا من معلوماته المتعلقة ببعض من يترجم لهم .. وكان والده من أكبر شيوخه في الفقه والتاريخ ، ثم تلقى بعض علومه على أكابر شيوخ عصره ، ففي الفقه درس على العلامة الكبير أبي الحسن علي بن أحمد الاصبحي وعلى الفقيه صالح بن عمر البريهي وغيرهما . ويحدثنا الجندي عن طفولته فيقول إنه كان يرحل مع والده من أقصى الجند الى (الكدري) في تهامة على حمار له . وقد استفاد من هذه الرحلات المبكرة افادة كبيرة ساعدته في معرفة كثير ممن يترجم لهم . ثم انغمــس في الوظائف الحكومية القضائية فتولى أولا إمامة المدرسة المنصورية بعدن ، ثم رتب مدرسا بالمدرسة المظفريةسنة ٧٢٣ بتعز،وبعد ذلك كلف بحسبةمدينةعدن وهيمن المناصب الحكومية الهامة التي لايتولاها إلا من كان على درجة كبيرة من الاستقامة الخلقية والعفة حيث يشرف فيها على قضايا الناس السلوكية . ومكث في هذا المنصب أكبر مدة أمضاها في الخدمة الحكومية حيث مكث فيها من سنة ٦٨٦ الى سنة ٧٢٦ وتزوج خلالها في مدينة عدن احدى بنات الفقيه طاهر بن علي أحد تجار عدن. وقد أصيب بعد زواجه بكثرة الاولاد من البنات ولم ينجب إلا ولدا واحدا

من الذكور أسماه باسم والده ، ويعترف بفقره وكثرة عاله في كتابه مما جعله يضطر الى قبول القضاء بسوزع على كراهيه منه لهذا المنصب.

وفي سنة ٧٢٥ هـ ننتهي من خدمته في حسبة عدن فيرحل الى زبيد ويتولى حسبتها ويعتبر هذا المنصب محنة من المحن التي نزلت عليه ، يقول : (في سنة ٧٢٥ مُحِنت بحسبة زبيد لعدم قدرة وكثرة عال) . وهـذا يدل على وثوق الدولة الرسولية بهذا الرجل في تولي منصب الحسبة مرتين . وقد كادَ الجندي أن يشرف على الموت قبل الفراغ من تأليف كتابه . فقد أصابه مرض شديد بمدينة حيس سنة ٧١٧ ، يقول : (يئست من الحياة فضلا عن تمام الكتاب) . أما عـن تدوين تاريخه فقد حدثنا في مقدمته أنه وضعه بدافع حب الوطن والحرص على تأريخ بلاده . فقام بهذه المهمة خير قيام . وظلت مسودات كتابه ترافقه في حله وترحاله حتى آخر لحظة من حياته . وقد حدثنا عن رحلاته الشاقة في سبيل جمع المعلومات من أفواه المسنين ولم يصده عن عزمه أن يرحل الى الاماكن المخوفة الجانب من قطاع الطرق فيحزم أمتعته المكونة في الغالب من كتبه الفقهية ويذهب بهمة قعساء . وقد حدثنا عن بعض هذه الرحلات فقال : (في شعبان سنة ٧٢٠ شمرت للرحلة وخرجت من الجند ومعي كتبي وصاحب بسوق الدابة وذهبت الى وصاب بقصد الاجتماع بالفقيه محمد بن يوسف الغيثي وأخذ المعلومات التاريخية عنه وعن أهل بلدته حتى أتيته بموضع يسمى (العنين) وكان أخافني جماعة من الناس وقالوا الطريق اليه شاقة لكثرة المفاوز والمخـاوف والبعد ، وذكروا لي أن جماعة نهبوا وقتلوا فلم ألتفت على شيء من ذلك حتى أتيت الفقيه المذكور بعدما قاسيت الشدائد خوفا على نفسي وكتبي) . أنظر الى هذه المشقة الكبيرة التي لقيها مؤرخنا في سبيل جمعه لكتابه وأين هو من همم المعاصرين لنا.

ومع كثرة رحلات الجندي القاسية في شتى أنحاء البلاد اليمنية فانه يحز في نفسه أنه لم يتمكن من الوصول الى بعض البلدان لبعد المسافة وخطورتها فهو لم يستطع مثلا دخول (مدينة الدملوه) ونواحيها فكتب الى أحد العلماء

بها يسأله أن يمده بمعلومات عن علماء مدينته •• وكذلك لم يدخل حضرموت ونواحيها وانما كان يتلقف الاخبار عنها من أفراد الركبان ••

وهكذا كان تأريخ الجندي نتيجة عمل مضن وشاق تقف عنده الهمم الكبيرة ، ولولا جلد الجندي وصبره ما استطاع أن ينجز موسوعته التاريخيه ، وقد أبان في مقدمة كتابه عن شيء من فلسفته حول التأريخ وكتابته وأوضح منهجه في ذلك فقال : (أما بعد لما كان علم التأريخ من العلوم المفيدة والقلايد الفريدة موصلا علم السلف الى من خلف مميزا لذوي الهداية عن أهل الصلف يعيد الأعصار بعد ذهابها وينبه على خطئها وصوابها وتجديد أخبارها وآثارها ويميز أخبارها عن أشرارها وفيه يستفيد الآخر عقل الاول) الخ••

ويذكر سبب تأليف الكتاب فيشير الى أن حبه للوطن هو الدافع الاول لوضعه لمصنفه : (فأحببت حينئذ وضع كتاب أجمع فيه غالب علماء اليمن وأذكر مع كل مايثبت من حاله مولدا ونعتا ووفاة بعد أن أضم الى ذلك إشادة من أعتقد أن اشادته حكم وطاعته غنم) ويقول أنه صدره أولا بتراجم العلماء لفضلهم ثم ألحق به تراجم الرؤساء والملوك وغيرهم من المتعلقين بالدولة •

ولاينسى المؤرخ الجندي وهو يعرض أسلوبه في كتابه أن يرد على بعض منتقدي التأريخ فيقول : أليس (القرآن الكريم) قد قصّ علينا من أخبار الانبياء والصالحين والقرون الماضية والاحرى أن المتأخر متى وقف على خبر من تقدمه من الفضلاء اذا سمع كيف تشميرهم واقبالهم على العلم وطلبه تاقت نفسه الى الاقتداء بهم في مسلكهم الخ • ويحدثنا عن مصادره في الكتب فنجدها قليلة جدا لعدم وجود تلك الكتب في زمنه وهي في عمومها لاتتجاوز أصابع اليد الواحدة فقد رجع الى كتاب « طبقات فقهاء اليمن » لابن سمرة واعتبره مادته الرئيسية والى كتاب « تاريخ صنعاء » للرازي والزهري و « المفيد » لعمارة اليمني و « تاريخ ابن خلكان » استعان به في تراجم العلماء من غير أهل اليمن وربما رجع الى غير ذلك من الكتب التي صرح بالاخذ عنها في مواضع مختلفة

من كتابه فهو يشير مثلا أنه نقل أكثر تراجم علماء تعز من كتاب الفقيه عثمان بن محمد الشرعبي المتوفى سنة ٧١٨ وأخذ أيضا عن كتاب « السمط الغالي الثمن» لمحمد بن حاتم وعن كتاب «بهجة الزمن» لابن عبد المجيد اليماني وذكر في موضع آخر أنه استفاد من تذييل المؤرخ حسن بن علي الحميري المتوفى سنة ٦٦٧ على كتاب « طبقات فقهاء اليمن » لابن سمرة . وهذه الكتب مادتها ضئيلة جدا بجانب ما استفاده من رحلاته المتعددة ..

ومن الغرائب الملفتة للانظار في حياة المؤرخين في اليمن أن الواحد منهم يظل طول عمره يرصد أخبار العلماء ووفياتهم ثم يموت فلا نجد من يكتب وفاته وهكذا مات الجندي فلم نجد من يؤرخ موته مع أنه عاش في فترة زاهرة بالعلم والعلماء . إلا أن المؤرخ الخزرجي الذي عايش مؤلفات الجندي معايشة تامة يخمن أنها وقعت سنة ٧٣٠ وله في ذلك حجته القوية فهو يقول : « الذي يظهر لي أن وفاته كانت في سنة ٧٣٠ فانه ساير أخبار الدولة المجاهدية عاما عاما وشهرا شهرا الى اثنين شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة ثم انقطع هنالك كلامه من غير إشعارنا بالفراغ مما قصد والغالب أنه بغته أجله وحضرت حينئذ وفاته رحمه الله رحمة واسعة وغفر له مغفرة جامعة » .

الخـــزرجي :

مؤرخ الدولة الرسولية وعالمها أبو الحسن علي بن الحسن بن أبي بكـر ابن الحسن بن وهاس . عرف بموفق الدين الخزرجي . ولد بعد سنة ٧٣٠ حسب قول البريهي ويؤيده في ذلك قول الخزرجي عن وفاة المجاهد سنة ٧٣٧ وادراكه قول الناس عنه في ذلك الوقت . وهذا الرجل من الرجال العصاميين حيث إنه لم يشتغل في بادىء أمره بطلب العلم وانما كان يعمل صبيا عند أحد المعماريين في تبييض جدران البيوت وزخرفتها بالنقوش والكتابات . وشب على ذلك حتى أصبح (مقدم أصحاب هذه الصناعة) حسب قول الخزرجي نفسه . وقد أوكل اليه القيام بزخـرفة المدارس والدور الملكية واسمه مثبت في بعـض المدارس

كالمدرسة الافضلية وربما أمره السلطان نفســه بمباشرة العمارة مــع جملة المزخرفين في دار الديباج • وقد استدعاه من مدينة زبيد الى تعز الوزير عمر بن أبي القاسم بن معيبد سنة ٧٧٩ لعمارة مدرسة في ناحية المحاريب ••

واكتسب من صناعته ذوق فني رفيع بجانب حسن الخط الذي يحتاجه فن الزخرفة ككتابة الآيات القرآنية والابيات الشعرية • ويبدو أن هذه المهنة كانت مهنة راقية في العصر الرسولي حيث تولاها في ذلك الوقت قاضي زبيــد محمد بن مسعود بن أبي شكيل بعد نكبته في القضاء وابتلائه بالديون ممــا اضطره أن يشغل نفسه أجيرا بالعمارة • وكانت مهنة الخزرجي بزخرفة البيوت من عوامل معرفة ملوك الدولة الرسولية له واكتشاف ميوله التاريخية فقربه اليه الملك الافضل ووضع باسمه كتابه « العطايا السنية » وذيله في أغلب الظن وهو الذي أمره بزخرفة مدرسته بزبيد وزخرفة (دار الديباج) كما أسلفنا ثم اشتغل بالتعليم ودراسة الادب والتاريخ ، وبرع في علم القراءات على وجه الخصوص، حتى إنه عين من ضمن القراء في الجامع المبارك بقرية المملاح،واستأثر به الملك الاشرف بعد وفاة الافضل وكلفه بالحج عن والدته « الآدر الكريمة » وأعطاه أربعة آلاف درهم للحج وزيارة الرسول صلى الله عليه وسلم وبعد رجوعه الى اليمن سامحه الاشرف في ضرائب أراضيه الزراعية « مسامحة مستمرة مؤبدة » ووضع الخزرجي للاشرف عدة كتب في التاريخ باسمه لعل أهمها كتاب « العسجد المسبوك » الذي ينسب أحيانا للخزرجي وأحيانا للاشراف ، ويبدو أن الخزرجي قد كتب الكتاب مرتين مرة في حياة الاشرف ونسبه اليه ومرة بعد وفاته سنة ٨٠٣ ونسبه الى نفسه حيث أبت نفسه أن يستأثر بهذا العمل الكبير من لم يتعب نفسه في البحث والتنقيب • وهذا ليس أول كتاب ينسبه الخزرجي الى الملك الاشرف ثم يعود في نسبته اليه فقد سبق أن نسب كتاب (العقود اللؤلؤية في تأريخ الدولة الرسولية) اليه ثم عاد في ذلك وكان السخاوي في القرن الثامــن يعتقد أن هذا الكتاب من مؤلفات الملك الاشرف •

وعلى العموم فان تعرب الخزرجي الى ملوك الدولة الرسولية كان سببا في ظهور مؤلفاته التاريخية وقد ترك في هذا الصدد مجموعة من الكتب القيمة لعل أهمها كتابه « العسجد المسبوك » في التاريخ وكتاب « طراز أعلام الزمن » في التراجم ويسمى أحيانا « العقد الفاخر الحسن » وعنه ينقل السخاوي وابن حجر العسقلاني • ومن كتبه التاريخية الاخرى كتاب « الكفاية والاعلام فيمن ولي ملك اليمن وسكنها من ملوك الاسلام » في تاريخ اليمن رتبه حسب الدول التي حكمت اليمن وكتابه « العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية » أرخ فيه للدولة الرسولية الى سنة ٨٠٣ بوفاة الاشرف وكتاب « مرآه الزمن في تاريخ زبيد وعدن » وهو من كتبه المفقودة وكتاب «المحصول في انتساب بني رسول» وهو يعترف في هذه الكتب بفضل المؤرخ الجندي عليه ويقول : « لولا جمعه وبحثه واستقصاؤه ما تصديت لتصنيفي ولا اهتديت الى شيء من ذلك ولكني هذبت ما جمعه ورتبت ما وضعته وذيلته بمن تبعه فهو الذي شجعني على ذلك الطريق الى ما هنالك فهو في السلم شيخي وامامي وفي الحرب ترسي وحسامي برد الله مضجعه وآنس مصرعه » وهذا بعض من اعترافه بالجميل لسلفه الجندي •• توفي الخزرجي رحمه الله بمدينة زبيد سنة ٨١٢ هـ •

الاهـــــدل :

ومن أكابر العلماء والمؤرخين في العصر الرسولي العلامة حسين بن عبد الرحمن بن محمد بن علي بن أبي بكر بن علي الاهدل • من أسرة آل الاهدل الشهيرة بعلمائها الاجلاء وهو من أفضل علماء العصـــر المحققين حيث تعددت معارفه العلمية وأصبح من كبار المنتجين في الفكر اليمني على مختلف اتجاهاته • ولد سنة ٧٧٩ تقريبا بقرية القحرية غربي« الجثة » من زبيد ونشأ بها حتى حفظ القرآن الكريم وقد تنبأ أهله منذ صغره بعلو شأنه فلما حفظ القرآن الكريم رغب في الفقه وانتقل الى المراوعة قبل البلوغ فقرأ كتاب التنبيه في الفقه وحفظــه ومختصر الحسن في النحو (وبداية الهـــداية) و (التبيان في آداب القرآن)

للنووي وكانت أكثر قراءاته على شيخه العلامة علي بن آدم الزيلعي ثم رحل الى بيت الفقيه حسين في رجب سنة ٧٩٨ فأقام بحافة الشرجة عند آل العرضي وقرأ عليهم في (التنبيه) وشرحه ثم قرأ عليهم أيضا (المهـذب) و (المنهاج) والاذكار للنووي وأعاد قراءة (المنهاج) على علي بن أبي بكر الازرق السابق ذكره وطالع كتابه (مختصر مهمات الاسنوي) •ويقول: إنه استفاد عنه معرفة تاريخ علماء المذهب الشافعي وأسمائهم ونسخ تحت اشرافه كتابه (النفائس) في الفقه وقرأ عليه أمهات كتب الحديث والفقه وكان ابن الازرق قد اكتشف في تلميذه بوادر النبوغ فكان يثني عليه ويقول : إن عاش هذا باليمن لايكون مفتيها إلا هو وكان يوصي بأن يخلفه في الافتاء بعد موته ويأمره بالافتاء في بعض المسائل الفقهية أمامه وهكذا اشتدت عنايته بتلميذه فكان الاهدل يثني عليه كثيرا في تأريخه وغيره • ثم قرأ في سائر العلوم وكان يقول : « لم أر أحسن ولا أوثق من كتب الشرع والتفسير والفقه والحديث ولايعول على ذلك إلا كل موفق » • ومن أكابر شيوخه العلامة محمد بن علي بن نور الدين الموزعي السابق ذكره وقد نزل عنده في بيته حسين فقرأ عليه في أمهات كتب الحديث ••

وتكثر مطالعات الاهدل وشيوخه وقد أفادنا عن نفسه الكثير من المعلومات الهامة فهو من العلماء اليمنيين القلائل الذين ترجموا لأنفسهم ، ويقول متحدثا بنعمة الله عليه (بارك الله لي في العلوم فعرفت ماهية كل علم لمشاركتي في علوم شتى وعرفت عقائد الأئمة من الاشعرية وغيرهم من الحنفية والحنابلة والسنية والحشوية وعرفت مذاهب المبتدعة من كل فريق وعرفت مصطلحات العلماء من الفقهاء والمحدثين والمفسرين والاصوليين وحققت علوم الصـوفية وميزت بين محققيهم وشطاحهم وميزت العلوم المحمودة والمذمومة وعرفت مذهب الفلاسفة « وهكذا تعددت مدارك الاهدل العلمية ونادرا ما يحظى بهذه السعة في العلم شخص كالاهدل ويقول إنه يسر له سبع حجات الى مكة المكرمة وزيارة الرسول صلى الله عليه وسـلم والمجاورة مدة بالمدينة المنـورة وأجازه فيها جماعة من أكابر علمائها •

ومن مؤلفاته العلسبة كناب الكفابة في تحصن الرواية فرغ من تبييضه سنة ٨١٨ وألف في نفس السنة كنابه (عده الناسخ والمنسوخ) من الحديث وكلاهما في الحديث • وقبل هذه السنة ألف كتابه الهـام في الرد على الصوفيـة الشطاح المسمى « كشف الغطا في حقائق التوحيد وعقائد الموحدين » فرغ منه سنة ٨٢٦ وهو من مراجعنا الرئيسبة في كتاب « الصوفبة والفقهاء » وقد طبع في نونـس تم ألف (المسائل المرضية في نصرة مذهب الانسـعربة) و (بيان فساد مذهب الحتسوية) ألفه بعد سنة ٨٣٠ ىم صنف كتاب (التنبيهات على التحرز فيالروايات) ووضع كـابا في شرح أسماء الله الحسنى بعنوان (الاشارة الوجبزة الى المعاني العزيزه) وكتاب (اللمعة في معرفه الفرق المبتدعه) وفصيدة في الحت على طلب العلم وآدابه وشرحها وشرح دعاء أبي حربة في مجلد ضخم بعنوان (مطالـب القربة) واختصر شرح البخاري للكرماني ومختصر كتاب خصائص النبي صلى الله عليه وسلم للنحوي وزاد فيه مواضيع ومخصر فناوى ابن تيمبة في مسائل الخلع والطلاق والحنث والكفارة وكتب في نقد البافعي وغيره من الصوفبة كتابا بعنوان (تغريب السؤال) وله مجموعة فتاوى فقهية وكتاب في الرؤيه وأقسامها وكتـاب في طبقات الاشـاعرة وكتاب (القول النضـر في الدعاوى الفارغة بحياة الخضر) •

أما كتبه في التأريخ فهي قيمة في بابها وقد أعجب بها العلامة أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني واعتبرها من خير الاضافات على تأريخ الجندي • وكان قد همّ أولا أن يختصر تأريخ اليافعي ويذيل عليه ثم عدل عن ذلك لعدم ذكره علماء اليمن وشرع في اختصار (تأريخ الجندي) وذيل عليه تراجم العلماءالذين ظهروا بعده فجاء كتابا حافلا • وفيه يقول في مقدمته : « أما بعد لما وقفت على تأريخ العلامة أبي عبد الله محمد بن يوسف الجندي الذي قصد به بيان تواريخ علماء اليمن وفضلائها أردت انتخابه تسهيلا على طلابه مع ما أضمه اليه ان شاء الله من زيادات مستحسنة وسميته « تحفة الزمن في تأريخ سادات اليمن » وربما

تساهلت في التحقق تقليدا للجندي على عادة المؤرخين في بعض الامور والغرض به وبأصله ببان بعض فضل السن وأهله » وهذا الكتاب من أهم ما وضع في فن التأريخ خلال العصر الرسولي • توفي الاهدل بأبيات حسين في تاسع المحرم سنة ٨٥٥ قبيل انقضاء الدولة الرسولية بثلاث سنوات فقط••

الادب :

بعد بزوغ الاسلام في الجزيرة العربية تعددت اللهجات واللغات ولم يعد مجتمع مكة والحجاز مصدرا من مصادر البلاغة يرحل اليه طلاب اللغة والفصاحة، واذا كان هناك من مناطق قليلة احتفظت بأصالتها اللغوية في الجزيرة ، فان اليمن في مقدمة هذه المناطق اذ احتفظ اليمن بعزلته ولم يكن فيها مايغري القادمين اليه لا من الناحية الدينية كمكة والمدينة ولا من الناحية السياسية كبغداد والشام، وهكذا فقد كان لعزلة اليمن أثر في احتفاظ البلاد بأصالتها عاداتها وتقاليدها العربية الخالصة •

وهذا لايعني أن اليمن لم يعرف العناصر الاجنبية عموما فقد دخله الفرس قبل الاسلام ومن بعدهم وقبلهم كان الاحباش • وفي عصر الاسلام دخلت جيوش بني أمية ومن جاء من بعدهم الا أن هذه الوفادات كانت ضئيلة جدا ولم تترك أثرها الى حد تغير الالسن والانساب •

ومع ذلك فان خوض اليمنيين غمرة الفتوح الاسلامية ودخولهم فيها بنفوسهم ونفيسهم لم يترك فرصة للادب اليمني أن يبرز مكنونه ، فقد انشغل الناس بحديث السيف عن انشغالهم بحديث القلم والقرطاس •• ثم استعادت الارومة اليمنية أدبها وشاعريتها بعد استقرارها في مهاجرها بعد الفراغ من الفتوحات الاسلامية ومنهم من ذكر وطنه الاول ومنهم من انشغل بوصف مباهج الحياة في البلاد المحيطة به في الشام والاندلس والمغرب • ومن الفريق الأول الشاعر يزيد بن مقسم الصدفي الذي يقول في وصف قومه من الحضارم وحكومتهم في مصر :

يا حضرموت هنيئا ما خصصت به من الحكومة بين العجم والعـرب
في الجاهليـة والاسـلام يعرفـه أهـل الرواية والتنقيب والطلب

ولن نشير الى أدب عمرو بن معد يكرب الزبيدي فالحديث عنـه يطول ، ويكفي أن نقـول في هذا الصدد إنه رائد شعر الفتـوح الاسـلامية قاطبة وشعره يعتبر الشعلة القوية في تنشيط الهمم وإلهاب النفوس .

وكانت السـن في أوائل تاريخها الاسلامي محط الرحال لكثير من شـعراء العربية كعمر بن أبي ربيعة الذي نزل لحجا وتزوج بها ومروان بن أبي حفصـة وابن الشسقمق وغيرهما .

ويحدثنا الهمداني عن الحركة الادبية في القرون الاولى فيشير الى أن صنعاء وحدها قد ضمت جماعة من الادباء والبلغاء وبعض العلماء فيقول :

(ولم يزل بصنعاء عالم وفقيه وحكيم وزاهد ، ومع ذلك فهم أهل تغيـير لعارض الامور وخدمة السلطان بأهبة وتملك وتنعم في المنازل وصناعة الاطعمة ولهم الخط الصنعاني المكسر والتحسين الذى لايلحق به) . ومن بلغائهم وأدبائهم مطرف بن مازن ووهب منبه وابن الشرود وعلقمة بن دي جدن ووضاح اليمن وأبو السمط الفيروزي وغيره .

ومن كتب النثر الادبي في عصر هارون الرشيد باليمن الاديب بشير بن أبي كبار صاحب الرسائل الادبية العشر وهو خير من ضمن الآيات القرآنية في نثره .

ويكثر الادباء بعد عصر الهمداني فيتطور الشعر في اليمـن حتى تصبح له مكانة عالية ولا يضره في ذلك اهمال الادباء له في خارج اليمن ، فالقوم قد اعتادوا تناسي اليمن في كل شيء . وقد مرّ بنا مثل هذا كثيرا ، ولهم بعض العذر في ذلك لبعد البلاد عنهم وهذا عام في أدباء مصر والشام في عصر نهضتها الاسلامية في زمن الفاطميين .. ونجد هذا حتى عند أكبر مؤرخيهم . فالصفدي لا يذكر أحدا من أدباء اليمن في موسوعته الا من أتى الى مصر من أدباء اليمن وقابله . وقد قيض

الله لليمن في القرن السادس رحلة الادب عمارة الى مصر فكان خير سفير لليمن وللادب اليمني،ولولاه مااستطاع العماد الاصفهاني أن يكتب فصل شعراء اليمن فى موسوعته الادبية (خريدة القصر وجريدة العصر) ولا استطاع القاضي الفاضل أن يكون معلومات هامة عن تاريخ اليمن عامة •

والاديب عماره هو أول من أرّخ للادب اليمني بصفة جادة فقد أتحفنا في آخر كتابه المفيد بفصل قيم عن أدباء اليمن في العصور القريبة لعصره وعنه نستطيع التعرف على جماعة من أفاضل الادباء في ذلك الوقت ، وقد كتب ما كتب بدافع الحنين الى الوطن والشعور بالرابطة الادبية تجاه أدباء بلده ، فكان أن دون لنا عيوناً من الشعر الفني البديع لم نستطع الحصول عليها لولا عمارة وحافظته القويه•

وقبل الدخول في ذكر الشعراء الذين ذكرهم عمارة نحب أن نقول إن كتاب النثر الادبي كانوا قلة قبيل العصر الرسولي والذين كتبوا في هذا الصدد لاتتعدى كتاباتهم جانب الجمع والتنسيق ، فإن أول كتاب وضعه أديب يمني هو للاديب أبو محمد الحسن بن محمد بن عقامة المتوفى سنة ٤٨٠ وهو عبارة عن كناش أدبي يضم الحكاية والنادرة والقصيدة وأسمى مجموعه كتاب (جواهر الاخبار ونوادر الاشعار) ومن حسن الحظ أن هذا الكتاب لايزال موجودا بين أيدينا ويؤثر عن الاديب الشاعر الحسين بن علي بن القيم المتوفى سنة ٤٨٢ مجموعة رسائل انشائية كتبها على لسان ملوك الدولة الصليحية وتوجد غالبا بجانب مجموعة أشعاره •

وفي عصر عمارة كتب ثلاثه من أدبائنا اليمنيين بضعة كتب أدبية وهم أحمد ابن محمد الاشعري من علماء القرن السادس وهو من قدماء المصنفين في اليمن وله مجموعة كتب في الانساب والحساب وغيره • أما كتابه الادبي فهو على أسلوب المقامات الادبية وهو عبارة عن مقالات في الكـرم والعلم والخلاعة والفصاحة واللطف والحكايات المتعلقة بالشعراء والحكايات المتعلقة بالعشاق وأخبار النساء والاخبار المتنوعة وحكايات الصالحين ، وهذه هي كل فصول كتابه المشار اليه وهو بعنوان (اللباب ونزهة الاحباب) منه نسخة خطية بدار الكتب المصرية•

وثاني أولئك الادباء عمارة اليمني نفسه وقد كتب كتابات أدبية غير شعره ككتاب (النكت العصرية) و (المفيد) ، ويتميز أسلوبه بالبساطه وجزالة التعبير •• وأخيرا نشوان الحميري ترك في النثر الادبي رسالته الحور العين وكتابا آخر تأثر فيه بطريفه الاشعري السابق الذكر وأسماه (الغرائد والقلائد) ويتميز بحسن التعبير وايجازه •

فهذه كل حصيلتنا النثرية من أدباء ماقبل العصر الرسولي وأعني بها تلك التي أفردت في كتب مستقلة •

أما الشعراء فهم كثيرون ، ومنهم من جمعت له دواوين كبيرة كالاديب ابن أبي القم والخطاب الحجوري وأبي بكر بن عبد الله اليافعي اليمني وعلي بن محمد الوليد المتوفى سنة ٦١٢ من شعراء المذهب الاسماعيلي ، وهذا يدل على سعة الانتاج في الادب اليمني في ذلك الوقت •

وقد حدثنا عمارة عن كثير من هؤلاء الشعراء فهذا الاديب ابن عقامة السابق من شعراء الفقهاء يصله شعر أبي العلاء المعري فينقم عليه قوله في الانكار على الشارع :

إذا ما ذكرنا آدماً وفعاله ... وتزويجه ابنيه بنتيه في الدنا
علمنا بأن الخلق من أصل زنية ... وأن جميع الناس في عصرنا زنا

فيجيبه بقوله :

لعمرك أما فيك فالقول صادق ... وتكذب في الباقين من شط أو دنا
كذلك اقرار الفتى لازم له ... وفي غيره لغو بذا جاء شرعنا

ولابن عقامة حفيد من ابنه محمد لايذكر عمارة اسمه يعد من الشعراء الكبار وقد مدح الوزير رزيق الفاتكي بقصيدة اولها :

نفسي الـك كثيرة الانفاس ... لولا مقاساة الزمان القاسي

وعاصر عمارة من بني عقامة الادب أبي عبد الله محمد بن عبد الله الحمايلي، وكان شاعرا مترسلا واليه انتهت رئاسة الفقه الشافعي في زبيد ومن شعره من قصيدة :

تشتاقكم كل أرض تنزلون بها   كأنكم لبقاع الارض أمطار

وعلى العموم فان بني عقامة من أعرق الاسر العلمية في زبيد وشأنهم في التاريخ اليمني يغني عن الاعاده هنا وما قدمنا الحديث عنهم إلا لأنهم من أقدم الادباء والمصنفين في اليمن .

وأدرك عمارة من شعراء اليمن ابن المكرمان من أهل برع وكان قد أسنّ وجاوز المائة وهو الذي مدح الامير غانم يحيى السليماني بقصيدة أجازه عنها بألف دينار وهي التي يقول فيها :

ما عسى أن يريد مني العذول   وفؤ متيَّم متبول
همه الهجر للغواني وقلبي   سلبته خريدة عطبول

وتأثر بطريقة أبي النواس المجونية من الشعراء في ذلك الوقت الاديب أبو العباس أحمد بن بحاره يقول عمارة كان يحذو طريقة أبي نواس في الاشتهار بالخلاعة والمجون ، وربما مر بمنزل القاضي ابن عقامة وهو ينظم شعرا يقول فيه :

سكرات تعتادني وخمار   وانتشاء أعتاده ونعار
فملوم من قال اني ملوم   وحمار من قال اني حمار

ومن الامراء الشعراء السلطان حاتم بن أحمد بن عمران أحد ملوك صنعاء وله ديوان شعر ضخم من بين مافقد من الكتب اليمنية واحتفظ لنا الخزرجي في تاريخه بشيء من شعره الجزل من ذلك قوله :

أرقت وطال الليل والعقل نائمه   وقد أفلت أشراطه ونعائمه
وأورى زناد الهم في القلب جذوة   إذا جاش من تياره متلاطمه

وما ذاك من شـــوق ولا نأى معهد ولا فقـــد رســـم دارسات معالمه
ولكن اذا خـــان الصديق صديقه وصارم بالاوهـــام من لا يصارمه
ونكب عنـــا مـــن نريـــد وداده وســـالمنا مـــن لانريد نســـالمه

وللسلطان حاتم شعر كثير توفي سنة ٥٥٦ •• فهذه ثلاثة أنماط من الشعراء أما مشاهيرهم فهم جماعة سنشير الى بعض منهم فيما يلي :

أولهم الشاعر أبو عبد الله الحسين بن علي بن أبي الفم • وقد ترجم لـــه ابن خلكان نقلا عن عمارة وكان شاعرا ناثرا كتب في دست الملكة الحرة أروى الصليحية مدة طويلة ومن شعره قصيدته التي وصلت الى العراق وهي قوله فيها:

الليل يعلم انـــي لســـت أرقـــده فلا يغـــرنك مـــن قلبـــي تجلـــده
فان دمعي كصـــوب المـــاء أيسره وان وجدي كحـــر النـــار أبرده
لي في هوادجكـــم قلـــب أضرّ به فيممـــوه وإلا قمـــت أنشـــده
وبـــان للناس ما قد كنـــت أكتمه من الهوى وبـــدا ما كنت أجحده

وكان يمدح الداعي سبأ بن أحمد الصليحي والمكرم زوج الملكة الحـــرة ومدح الملكة الحرة أيضا ووفاته سنة ٤٨٢ •

وقبل ظهور الدولة الرسولية ظهر ثلاثة من فحول الشعراء باليمن هم اليافعي وعمارة والعيدي •

فأما الاول فهو أبو العتيق أبو بكر بن عبد الله بن محمد اليافعي من أهل الجند ولد سنة ٤٩٠ وكان ممن أدركه عمارة وأثنى عليه في كتابه وتولى القضاء في الدولة الزريعية ، ولما وصل الى اليمن الرشيد الاسواني اتصل به وأخذ عنه علوم الادب وسائر العلوم وكان يقول : منذ بلغت عشرين سنة لم أقلد أحـــدا في مسألة فقهية واتصل بالفقيه يحيـــى بن أبي الخير العمراني صاحب كتـــاب (البيان) • ويقول عمارة: أدركته مقربا للامير المنصور بن المفضل والاميرالداعي محمد بن سبأ وغالب ديوانه في مدحهما وديوانه مجلدان معتدلان وشعره حسن

رائق يحتوي على الجد والهزل والرقيق وبقول في مقدمة ديوانه (لا يظن ظان أن ذلك جهدي وكل ماعندي بل هنالك همم تسمو الى أرفع من الشعر رتبة ومذاكرة للعلم هي أقدم منه محبة وأمور نيطت في عراها لا ترام قواها وهذه صناعة لها من أفكاري الفضلات فألي منها بحال السغب من زوال الطعام وحظها مني كحظ الموافق من طيف المنام) الى آخر قوله الذي ينم منه عدم اكتراثه بالشعر • ومن شعره قوله :

استودع الله الذي ودعا	ونحن للفرقة نبكي معا
أسبل من أجفانه أدمعا	لما رآني مسبلا أدمعا
وقال لي عند فراقي له	ما أعظم البين وما أوجعا
ما أنت تعدي بالنوى صانع	فقلت لا أقدر أن أصنعا
ما يصنع الصبّ المعنّى اذا	فارق إلفاً غير أن يجزعا

توفي اليافعي سنة ٥٥٢ •

وعمارة هو نجم الدين عمارة بن أبي الحسن علي بن زيدان الحكمي من أشهر شعراء العربية في عصره ولد باليمن في قرية الزرائب ونشأ في أسرة عربية لا تتكلم إلا بالفصحى وخرج من بلده الى مدينة زبيد لطلب العلم سنة ٥٣١ فأخذ العلم على عبد الله بن الأبار وكان في أثناء ذلك يتعاطى التجارة واجتمع بالاديب ابن العيدي فأكرمه وأمره بمدح الداعي محمد بن سبا لأجل الجائزه ولم يكن في ذلك الوقت يستطيع نظم الشعر فساعده على إتمام القصيدة وقدمها للداعي فأثابه عليها بجائزة وهو الذي شجعه على دراسة الادب ونظم الشعر• يقول : ولما أزمعت السفر من عند الاديب ابن العيدي قال لي ياهذا قد تسميت عند القوم بسمة الشاعر فطالع كتب الادب ولا تجمد على دراسة الفقه ، فكان هذا سبب تعلمي له واشتغالي به • ولما برع عمارة في علم الادب والشعر صار من أعيان زمانه طلب وده ملوك آل زريع فكان يمدحهم بالقصائد العديدة ؛ ثم رحل الى مكة واستعمل في الكتابة بين ملكها ابن فليته وملوك الدولة الفاطمية

في مصر، حتى اشتهر شأنه، فرحل الى مصر واجتمع بأدبائها، وبلغ مكانة كبيرة عند ملوكها من الفاطميين . وبعد سقوط دولتهم ظل على وفائه لهم ولم يستفزه تغير الاوضاع من حال الى حال ، حتى إن صلاح الدين وجد عليه لهذا السبب فأمر بشنقه في سجن خزانة البنود وهو ثاني أديب يمني يلقى مصرعه في هذا السجن الرهيب بعد الادب علي بن محمد التهامي المتوفى سنة ٤١٦ . وشعر عمارة كله جيد وهو مستفيض في كتب الادب التي أرخت للحياة الادبية في مصر وغيرها ووضع أحد المعاصرين كتابا مستقلا في أدبه .

وثالث الثلاثة الاديب أبو بكر بن أحمد العيدى كان من شيوخ عماره وعلى يديه برع في علم الادب ووفد الى ملوك الدولة الزريعية فولوه كتابة الانشاء في دواوينهم وكانت قبله ضعيفة الاسلوب فأخذها وطورها وكان عندما يصل أديب الى اليمن يكون أول من يأخذ بيده وربما أعان الادباء على نظم قصائدهم ومنهم من ينتحل قصيدة لأحد الشعراء ويقدمها أمام أحد ملوك الدولة فيعلم بها العيدي فلا يعترض عليه ويعتذر له في بعض الاحيان . ومن شعره الجزل قوله:

حياك يا عدن الحيا حياك ... وجرى رضاب لماه فوق لماك

افترّ ثغرُ الروض فيك مضاحكا ... بالبِشر رونق ثغرك الضحّاكِ

ووشت حدائقهُ عليك مطارفاً ... يختال في حبراتها عطفاكِ

وقد امتد عمر العيدي الى أن أدرك مقتل تلميذه عمارة . وقد أسنّ وانقطع عن نظم الشعر . توفي سنة ٥٨٠ .. وفي زمن عمارة والعيدي قدم الرشيد الاسواني واتصل بأدباء اليمن فكان لقدومه أثر كبير بين الادباء واتصل به جماعة منهم ويقال إنه وضع باسم زبيد مقامته (الحصيبية) . توفي سنة ٥٦٢ .. وقدم الى اليمن في ذلك الوقت الاديب نصر بن عبد الله اللخمي الشهير بابن قلاقس المتوفى سنة ٥٦٧ ودخل عدن سنة ٥٦٥ واتصل بالاديب العيدي وجرت بينهما مكاتبات ومراسلات أدبية طريفة أوردها في كتابه (مواطر الخواطر) .

تلك اطلالة سريعة على الادب اليمني حتى بزوغ الدولة الايوبية واطاحتها بكل الدويلات الصغيرة التي قامت في اليمن • وكانت هذه الدويلات بكثرتها خير معين للادباء اليمنيين ففقدوا بسقوطها موارد مادية عديدة كانوا يستعينون بها في حياتهم المعيشية • في حين فقد الشعراء في ممدوحيهم ذلك الذوق العربي الخالص الذي كانوا يجدونه عند رؤساء القبائل والدول ••• ومع ذلك فان الدولة الايوبية قد أدخلت الى اليمن أدبا اسلاميا حضاريا يعتمد في أسلوبه على تلك المستحدثات التي تفنن في ابتكارها أدباء مصر والشام وكادت تختفى من الادب اليمني صبغته المحلية التي يغلب عليها الطابع العربي الخالص •• ومع ذلك لم يكن لهذه الدولة أثر كبير في وجود نهضة أدبية كبرى واذا كان هناك من شيء يذكر في هذا الصدد فهو تلك الوفادات الادبية التي استقبلوا فيها جماعة من أدباء العالم الاسلامي كالاديب ابن عنين المتوفى سنة ٦٣٠ الذي دخل اليمن ومدح سيف الاسلام طغتكين •• والاديب ابن الدلال المصري وكان قد صحب الملك المعز اسماعيل بن طغتكين وقد اشتهر بين الناس بهجائه المقذع وهجا في اليمن القاضي الاسعد فقال :

حمل الاسعدُ رمحاً قرنهُ أطولُ منهُ
وتمادى يبتغي ما قدرُهُ يقصرُ عنهُ

وأدرك الاديب العيدي شطرا من أول الدولة الايوبية ومدح ملكهم الاول توران شاه بقصيدة أولها :

أعساكر سيَّرتَها وجنودا أم أنجما أطلعتهنَّ سعودا

وهذا كل ما يقال عن الادب اليمني في عصر بني أيوب ، إلا أنهم أرشَدوا الادباء في اليمن الى أساليب غريبة عليهم من الحياة والحضارة لم يكن لهم بها عهد فكان لهم من هذا زاد ثقافي استفادوا منه في شعرهم وأدبهم •

وبعد استقرار الوضع للدولة الرسولية كان أول ما قام به ملوكها هو

تفقد الوضع العلمي للبلاد • وقد رأينا ذلك فيما سبق في الزيارات المتكررة للعلماء والمساعدات المالية للادباء وفد جذبوا اليهم الشعراء باحسانهم المتواصل وربما قدموا اليهم فأكرموهم بالعديد من الجوائز التي لم يحصل عليها أحد من فئة العلماء سواهم حتى أصبح الشعر في ذلك الوقت مصدر تكسب وثراء كبير ثم فتحوا لهم صدورهم وقصورهم وحضروا معهم مجالسهم السرية التي كانوا يتكتمون عليها أمام الناس بما يدار فيها من متع حسبة ينكرها عليهم رجال الدين •

وكثيرا ما كان الملك المظفر يستشهد أمام الأدباء بأبيات من الشعر حتى إنه استشهد ذات يوم ببيت نسي مابعده واحتار في ذلك فدله أحدهم على الفقيه محمد بن أبي بكر الزوقري وكان حافظه للشعر فأتوا به الى مجلسه وقد أسن وضعف ذهنه فسأله المظفر عن آخر البيت المطلوب وهو قول الشاعر :

« راحة الانسان حياً : بين حصني والديه »

فأجاب الفقيه على الفور ببقية البيتين وهي :

« فإذا ماتا أحالا : الشفاء عليه »

فقال المظفر هما والله البيتان وسر بهما سرورا عظيما • فهذا نموذج مما كان يدور في تلك المجالس من مناقشات أدبية وربما اقترح بعض ملوكهم على الادباء أن يصفوا له شيئا مما كان في المجلس فيتبارى الادباء في وصف ذلك الشيء وقد اقترح الملك الناصر على الحاضرين في مجلسه أن يصفوا له (العنبا) فقال ابن المقري :

أشارت من العنباء نحوي محبة ... موردة ذات اصفرار وحمرة
تروق بلون بين لونين مثلما ... يروقك فجر بين يوم وليلة

ومن الشعر البديهي في تلك المجالس أن الامير شمس الدين علي بن يحيى العنسي أقام مأدبة كبيرة للادباء والعلماء فبعد الصحة على الاديب عثمان بن يحيى ابن فضل فقال الامير مخاطبا الاديب :

بعد اللحـــوح عن الفقيـــه الاوحـــــد عثمان بل خبر البرية عن يد

فأجابه الاديب مرتجلا :

ترد المراســـم ان أردت بنقلـــه ويطول منك الباع ان قصرت يدي

فقام الامير مسرعا من مكانه واحتمل الصـــحفة بما فيها ووضـــعها بين يدي الاديب بن فضل .. أما الادباء أنفسهم فكانت تدار بيهم مناقشات أدبيه حادة ولا تغيب هذه المناقشات في بعض الاحيان عن أنظار ملوك الدولة الرسولبة وربما شجعوهم على دلك . فقد حدث أن اجتمع الادباء عند الملك الاشرف الثاني فثار الجـــدل بين أدباء الجبـــال وأدباء تهامة في تفضـــيل كل من العنب والتمـــر فتحزب للاول أهل تعز ونواحيها وتحزب للتمر أهل نهامة .. وكان أدباء تهامة ينعصبون دائما للسواد وبفضلونه على البياض فيرد علبهم في ذلك أهل تعـــــز ونواحيها وقد تزعم أدباء تهامة فيذلك الاديبيحيى بن ابراهيم بن العمك المتوفى سنة ٦٧٠ تقريبا الذي يقول في تفضيل السواد :

أعيـــدي حديثـــك يوم الكثيـــب وســـلّي به عـــن فؤادي الكئيب
عشـــية ســـــوداء قد أقبلـــــت تســـارقني لحظهـــا مـــن قـــريب
وقد أمّنـــت رقبـــــة الكاشحين وســـمع الوشـــاة وعـــين الرقيب
بدت تنثنـــي من خـــلال البيوت تجـــرر فضـــل الرداء القشيـــب
فخاطبتهـــــا فرصـــــة العاشقين بلفـــظ البـــريء ولحظ المريـــب
أرتنـــا القنـــا والنقـــا مائــــلا قـــوام القضيـــب وردف الكثيب
مولّدة من بناتِ الموالي كمشــــل الغـــزال الغريب الربيب
فان لامني النـــاس في حبّهـــــا فمـــا لائمـــي أبـــداً بالمُصيـــب
يقولون ســـودا وما أنصـــــفوا وما ذاك لـــو نصـــفوا بالمعيـــب
فلو لا السّــــواد وما خصّـــه به الله من حســـــن ســـر عجيـــب
لما كـــان يســـكن وســـط العيون ولا كـــان يســـكن وسط القلوب
ولا زيّن الخـــال خـــد الفتـــــى ولا حســـن النقـــش طرز الاديب

أما حجـر الركـن خـير الحجار | أما المسـك أطيب من كل طيـب
أما شـغف النـاس في دهـرهم | بحسـد التسـباب وذم المشيـب
ولا يحسـن العين مرهى الجفون | ولا الكف ان لم تكـن بالخضيب
ولا كـل عـين كعـين المحـب | ولا كل قلـب كقلـب الحبيـب

ويكثر بين الادباء مدح البلدان أو ذمها ومنهم من يتعصـب لبلاده ويذم سواها ، وقد تطور هذا الفن بعد دلك فعرف بأدب(المفاخرات) وخير شـاهد عليه مقامة (أقراط الذهب في المفاخرة بين الروضة وبئر العزب) وقد دخل الاديب عبد الباقي عبد المجيد اليماني مدينة عدن فلم تعجبه الاقامة بها لحرها فقال يذمها:

عدن اذا رمـتْ المقـام بربعهـا | فلقـد أقمـتْ على لهيب الهاويه
بلد خـلا عن فاضـل فصدوره | أعجـازُ نخـلٍ خـاويه

ويفاضل الاديب عثمان بن عمر الناشري المتوفى سنة ٨٤٤ هـ بين الجبال والتهايم فيفضل الاخيرة يقول :

تذكـرت في نفسـي فلم أرَ زلـّة | كزلـة مـن باع التهايم بالجبـل
وأصبح عـن ربع الأحبـّة نازحا | يسائل عن هـذا وعن ذاك ما فعل

ومن هذا الفريق الذي يفضل التهايم على الجبال الشاعر ابن المقري يقول في ذم الجبـال :

متـى تدع الجبال على أنـاسٍ | جلودهـم وأعظـُمـُهُم حـديد
ففيهمـا يؤكل الانسـان حيـّاً | وان هـو ضمّـه برج مشـيد
يبيـت وجسمه للبـق مرعى | وللحشـراتِ مـن دمـهِ ورود
اذا ما جُنّ فيهـا الليل أمسـت | تمـزق فـي نواحيهـا الجلـود
وبـرد يرقـص الانسان منـه | بلا طـرب ويرتعـد الجليـد

ويقول في ذم جبلة وبردها :

يا ليل جبلـة هل لفجرك مطلـعُ | هيهـات قد ناديـت من لايسمع

يمتي الهويسا نحو جبلة صبحها	كرهـا وحين يسير عنهـا بسرع
ويغبـم فيها سـاعة متلفنـا	ويغيـب ناوي دهـره لا يرجـع
لا ننكـرن عليـه قطـع وصالها	فوصال أرض مثل جبله تُقطعُ
واذا تهـاميٌ تشـكّى ضبـعةً	سعـز فهو بأرض جبله أضيـع

أما الاديب عبد الله بن جعفر فانه ينكر على كل من يذم الجبال ويقول :

قالوا الجبال بها صبق فقلت لهم	«سم الخياط مع الاحباب ميدان»

وكانت هذه المجادلات الادبية تدار بين الادباء فتنشط هممهم وتصقل قرائحهم فهم يستعينون بها في اثارة مواضيع محلية بحتة لا يقلدون فيها أحدا من أدباء العالم الاسلامي • وقد انتشرت بينهم الثقافة الادبية على أكمل وجوهها وولع الادباء باستجلاء الدواوين الشهيرة على مختلف عصورها وكان اهتمامهم بشعر الجاهليين الا فى النادر وقد أحب الناس في ذلك الوقت شعراء العصر العباسي أمثال بشار بن برد وأبي تمام والبحترى وأبى نواس وغيرهم ومنهم من عنى عناية خاصة بشعر المتنبى واستظهره عن ظهر قلب حتى أن الجندي يصف جماعة من أدباء عصره فيقول إنهم سلكوا طريقة المتنبي في الشـعر • أما أبو نواس فقد انتشرت أشعاره في صنعاء منذ زمـن الهمداني وتناقلها الادباء على مختلف طبقاتهم ومنهم من اتبع طريقته في الغزل والخمريات كما سنبينه فمابعد•

وتناقل الادباء كتاب (الحماسة) وحفظوا أكثر ما فيه وهو كتاب فيالشعر يحتوي علىأجود مافي الشعر الجاهلي والاسلامي منمقطعات والمتتبع للمكتبات الخطية في اليمن يجد نسخا كثيرة من هذا الكتاب منها مايعود الى ما قبل زمن بني رسول بسنوات عديدة • ولا يزاحمه في هذه الشهرة سوى كتاب (مقامات الحريري) والذي ولع به الادباء وتناقلوه فيما بينهم منذ زمن الامام الصغاني وقدومه الى اليمن في القرن السابع وعنه ينقل الادباء روايته لهذا الكتاب ومن الادباء فياليمن من أدرك الحريري وأخذ عنه مقاماته كالاديبعبد الله بن العباس

الشاكري . والمقامات هو الكتاب الادبي الوحيد الذي قام الادباء بشرحه وحل ألفاظه في العصر الرسولي ثلاثه من الادباء هم الاديب محمد بن أبي القاسم الجبائي المعروف بابن المعلم وقد عرف شرحه بشرح الجبائي وتوفي دون اكماله ثم شرحه في عصره في القرن السابع الاديب علي بن عجيل المتوفى سنة ٦٤٠ الذي أكمل فيه (شرح الجبائي) وكان هذا الكتاب من الكتب المحببة عند جميع الناس بما فيهم الفقهاء الذين كانوا غالبا ما يستروحون الى مطالعته وينهلون من فوائده وكان الفقيه أحمد بن عمر المزجد السيفي المتوفى سنة ٩٣٠ اذا سئم من القراءة والمطالعة استدعى بمقامات الحريري فيطالع فيها ويسميها (طبق الحلوى) .

ولا غرابة في ذلك فكتاب مقامات الحريري جذب اليه كل فئات المثقفين بتنوع علومه ، وقد صاغه في أسلوب قصصي محبب الى النفوس، وبقي أمام الادباء تحدي الحريري في مقاماته على أن يأتوا ببيت ثالث لبيتيه التجنيسيين الآتيين:

سم سمه تحمد آثارها واشكر لمن أعطى ولو سمسمه
والمكر مهما اسطعت لا تأته لتقتني السؤدد والمكرمه

فتصدى لتحديه جماعة من الادباء في مصر والشام كالاديب عثمان البلطي الذي يقول :

محلمة العاقل عن ذي الخنا توقظه ان كان في محلمه
مكملة الخائض في جهله تصيب من يردعه مكلمة

وغير هذه الابيات .. أما في اليمن فنجد ابن المقري قد تحدى الحريري في أبياته وأضاف عليها خمسين بيتا جعلها في مدح الملك الناصر يقول فيها بعد بيتي الحريري :

والمس لمهوى أحمد طاعة يرضى بها المسلم والمسلمه
والمحك مهواة فدعه لمن يرى القضا للسيف والمحكمه
من لج مهيوجا تراءى له من ابن اسماعيل من لجمه..الخ

وهكذا كان تأثير الحريري على الادباء مستمرا وقد استفادوا منه طريقه البديعية العجيبة وحاولوا تقليده في نظمهم ونثرهم .

ومع ذلك فان مدرسة البديع قد تأخر ظهورها في اليمن على الرغم من انتشار مقامات الحريري عندهم ولم تظهر الا في زمن ابن المقري وأمثاله وليس هذا قصورا عند الادباء وانما في أغلب الظن عدم استساغة لما أتى به البديعيون من تكلف تمجه الاذواق السليمة وقد أنكر عليهم بديعهم في القرن الثالث عشر العلامة محمد بن علي الشوكاني.وكان ابن عبد المجيد يعيب على القاضي الفاضل بديعه ويفضل عليه نصر الدين بن الاثير في كتابه : المثل السائر .

واخترع الادباء في اليمن وغيره أساليب أدبية أخرى ولدتها لهم طريقة الحريري من ذلك التلاعب بالحروف والاعراب والجناس الى غير ذلك مثلا تقرأ رسالة للحريري التزم في كل كلمة منها حرف السين فقال :

باسم القدوس استفتح وباسعاده أستنجح سجية سيدنا سيف السلطان سدة سيدنا الاسفسهلار السيد النفيس سيد الرؤساء حرست نفسه واستنارت شمسه وبسق غرسه . الخ .

وعندما قرأ الادباء هذه الرسالة أعجبوا بها في مصر والشام ووصفها الاصفهاني بشيء من التقدير والدهشة حتى ما انتهى الوضع الادبي في اليمن الى الازدهار حاكى أسلوب الحريري جماعة من الادباء منهم الاديب علي بن محمد الناشري المتوفى سنة ٨١٢ الذي كتب رسالة الى الملك الاشرف التزم فيها الحروف المهملة فقال :

(أعلا الله سماء سمو علاك ورعاك صدورا وورودا وحماك وأسمى أسماك على السماك وكلاك مدى الدهور وعمرك لكلّ معمور وأكمل لك عددك وسدّد أودك وملكك على هام الملوك وسهل لك وعر السلوك كم عدو سألك وكم سؤول أملك دام مدى السعود لك ما ملك الله ملك ومحررها أحال الدهر حاله فحرر

سؤاله وأعلم رحاله مؤملا الآمال ولا عسل الا المدح وهو أعلى الاعمال ومراده العود مسرورا وطوالع أعداه حولا وعود)[1] ٠

وكان الناشري أول من استعمل هذه الطريقة الحرفية في نثره وجاراه في أسلوبه جماعة من الادباء حتى كادت هذه الطريقة أن تشل انتاج كثير من الادباء وتحوله الى كتلة من الالفاظ العقيمة وقد بلي بهذا المسلك العقيم الاديب ابن المقري على عظم قدره ومكانته الادبية ٠ ومن يتأمل كتابه(عنوان الشرف الوافي) يجد الحد النهائي الذي وصلته سيطرة الحروف الهجائية على النثر بل تعدت هذه السيطرة مجالها الطبيعي وهو النثر الى الشعر وظهر جماعه من الشعراء ولعوا بتجميع تلك الاحرف ووضعها في شعرهم فهذا الاديب أبو الحسن علي ابن موسى الهاملي المتوفى سنة ٧٢٠ هـ يذكر عنه المؤرخ الخزرجي أنه استطاع أن ينظم قصيدة في مدح الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أورد في كل بيت منها منها حروف المعجم كلها وفيها يقول :

المصطفى الهاشمي غوث الخلايق لذ	يسعدك تربح نقض نظفر بحسن تغن
تثب وتجز بمدح الهاشمي على	فصغ قريضك خذ سمط النظام هني
ثواك طيبة عز الارض حسلها	قد خص بالحظ مشغوفا بذي الحسن
خلاصة المجد ثبت العز سطوته	كشافة الظلم أضحى غير ذي قنن
دعا يحج هلا بلغت كي يشفى ضنى	ظل مزري السخط ودق وضن
ذو الحوض يقصده العطشى بغيثهم	يروى فيجزى ضما حاشا كلا البدن
رسول ذي العرش دمث الخلق لا ضجر	كن بعض حظ هذا الطول بالمدني

زد في الثنا تحظ واستصف القريض تعش بالابلج الثغر مغبوطا هناك غنى

صف المدثر بالتقريض جهدك لا	تخلط تزغ عن حفاظ والتذى الحسن

الى آخر هذه القصيدة العجيبة ٠

---

(١) الخزرجي طراز أعلام الزمن ونقلها عنه السخاوي في الضوء اللامع ٥ ص ٢٩١

أما ابن المقري فانتاجه الادبي بدع أخرى من ذلك التلاعب بالالفاظ وهو لم يكتف بأن جمع حروفا معينة وانما استطاع بجانب ذلك أن يكتب قصائد تقرأ طولا وعرضا وأولا وآخرا • انظر الى قصيدنه هذه التي تقرأ طولا وعرضا:

الملك الناصر سلطاننا سامي الذرى المدره مروي الصدا
الناصر ابن الملك الاشرف المرتجى أحمد المحمود بحر الندا
سلطاننا المرتجى ذو العلى لب السرى رب العطا والجدا الخ

وهذه قصيدة للمقري يقول الخزرجي أنها تقرأ من مواضع مختلفة :

ملك سما ذو كمال زانه كرم أغنى الورى من كريم الطبع والشيم
به الغنا ورده تصفو مشاربه بنا العلا في يديه وابل النعم
له نما طال من في فرعه شمم كماترى فاق كل العرب والعجم الخ

وقصائد أخرى من هذا القبيل •• بل لم يكتف بالتلاعب بالاحرف فأنت تجده قد استعمل الكلمات لهذه التسلية فقد كتب قصيدة تقرأ في المدح واذا عكستها أصبحت ذماً يقول :

طلبوا الذي نالوا فما منعوا رفعت فما حطت لهم رتب
وهبوا وما منّت لهم خلق سلموا فلا أودى بهم عطبوا
جلبوا الذي يرضى فما كسدوا حمدت لهم شيم وما كسبوا الخ

فاذا عكست كلمات البيت الاول مثلا يكون هكذا :

رتب لهم حطت فما رفعت منعوا فما نالوا الذي طلبوا الخ

ودخلت لعبة أيضا جانب الإعراب فكتب قصيدة تقرأ بالرفع والنصب والخفض وهي هذه :

من يعط كنز رضاك يجن ويغنم ويجل قدرا في العيون ويعظم
عتبات بابك للاماني كعبة من لايطوف بها رجاء يندم

فضح السبـول نوال كفك اذ هما　　والريح والانـواء حتى الحصرم
واذا المواسـم أغلقـت أبـوابها　　فنداك أحسـب عند ذاك موسم
سـدت الملوك وصلتهم جودا فما　　منملـك بأبـر منـك وأرحـم
وحميـت أهل الارض حتى مافتى　　في النـاس مهضـوما ولا متظلم

الى آخر القصيدة :

والحديث عن هذه الطرق العجيبة في النظم والنثر يطول • ولولا أننا بنينا كتابنا على الاختصار لتوسعنا في نقل الكثير من ذلك • وأظن أنها ختمت بالاديب ابن المفري اذ لا نعرف أحداً بعده من برز في تلك التسالي الغريبة وهو لم يكن بدعا في هذا فقد أراد أن يقلد أدباء اخترعوا تلك الطرق في مصر والشام والعراق حتى قيل إن البديع الهمداني استطاع أن نكتب رسالة تقرأ جوابها من خلالها• ويقول الدكتور شوقي ضيف وهو يذكر هذه الطرق العجيبة . (يظهر أن دلك كان عند كتاب العصر وشعرائه الافـق الاعلى في البلاغة والفصـاحة فانطلق الشعراء ينظمون قصائد كل ألفاظها من الحروف المعجمة أو من الحروف المهملة أو الحروف المهموزة او مما لاتنطبق معه الشفتان وكاد الشعر يستحيل الى عمل لغوي فاذا الشعراء يصنعون صنيع عمال المطابع إذ يرصون الاحرف بعضها الى بعض فتكون صناديق من الحروف ولكن لا تكون أبياتا من الشعر إلا اذا أردنا بهذا الشعر الافصاح عن صعوبات في التعبير وطرق الاداء) •

ومن أنماط التلاعب بالالفاظ قول شاعرهم في مصر :

إني امرؤ لم يصبني الشادن الحسن القوام

فرفع القوام بالحسن صفة مشبهة باسم الفاعل والتقدير الحسن القـوام ونصبه الحسن القواما على التشبيه بالمفعول به وخفضـه بالاضافة •• ويقول الدكتور محمد زغلول سلام : (وكل هذه ألوان يغلب علبها المغالاة والتكلـف وهي أقصى ما وصل اليه الفن من تطرف واغراق) • ويتصل بهم النوع الغريب

من حيث الاعجاز الذهني جانب (الالغاز) وكان المجدد لها في اليمن بعد ركود الاديب المصري محمد بن أبي بكر الدماميني الذي دخل اليمن سنة ٨١٨ هـ واتصل بأدبائها • وكان ابن المقري أشهر من كاتب الدماميني وبعث اليه برسالة طويلة يمدح فيها ابن المقري وأدبه الى أن وصل الى ذكر رحلته فقال واصفا نفسه (الى أن أتاح له القدر حمل عصا التسيار والدخول من أبواب السمر الى هذه الدار فقالت الآمال لناظر عينيه قد نلت أبها الانسان ما تتمنى وحصلت من يمن اليمن على معنى كنت به مُعَنَّى ونادته الايام ها قد أتحفتك من هذه البلاد بأحسن الطرق وأحللتك بدار ابن المقري وماذا يريد البدر (يعني نفسه) بعد حلوله منازل الشرف (بعنى ابن المقري) مولى خص بالفضائل التي عم بها الانتفاع وارتفع عن درجة النظير بحسن السمت •• هنالك تمنى المملوك أن يقف بباب المطارحة الادبية فأقعده العلم بقدره وعزم على مفاكهة الحضرة الكريمة فدفعت يد العجز الذي حصر فكرته فتجاهل وقال عم وطمعت القريحة في إنارة معنى بيديه وكلفت باقتناص وجه حسن يقدمه ويهديه •• فتحامل المملوك على ضلعه وصبر على هول هذا الموقف ومطلعه واعتمد على كرم الاخلاق التي لاتزال تلطف وترق وطهارة التيم التي يدور على مثلها النيل وتحترق وتهجم بهذين اللغزين وأومأ لاستمطار سحب الجواب ببيان هذين الرمزين • وأخيرا بعد المريد من التواضع والاستحقار لنفسه يصرح بأن القصد من مكاتبته هو سؤاله عن معنى لغزين يذكرهما نظماً ونثراً •• ومن هذه الالغاز التي سأل عنها الدماميني ابن المقري لغز في (مدبنة) :

يا أيُّها الفاضلُ ما	مدينةٌ لا تنكر
أو روضة أو مدة	يحمد فيها المطر
أولا فقل قبلة	عندك منها خبر
كذاك لي بها شعور	فانظروا واعتبروا
أربعة تشابهت	في الخط منها الصور

تمثيــــل عكــس لفظها — مصـــحفا لا يعســـر
لا أكتـــم انفـــاقه — فهـــو خـلاف يظهـــر

فأجابه ابن المقري بقوله :

يا بحـر عـــلم يـــزخر — يغـــرق فيـــه الابحـر
حاجيـــت في أربعـــة — منهـــا اشتبهـن الصـور
تصـــحيف عكس لفظهـا — مثـل خـــلاف يظهـــر
وتلـك عنـدي تسـعة — أعـــدها وأكتـــر
بـل ربمـــا ركبتهـــا — فكـــان ما لا يحصـــر
مدينـــــة قديمـــــة — فيهـــا الشـمول تعصـر
وروضـــــة أريضــــة — بســـنانها مســـور
ومـــــدة لمثلهـــــا — الروم تعـــزى أنســهر
ومغـــن شـيخ أشيـب — وجـــده مـــن يذكـــر

وطارح أدباء اليمن في الالغاز قادم اسلامي كبير هو العلامة شمس الدين الجزرى المتـوفى سنة ٨٣٢ واشتهر لغزه شهرة كبيرة بين الادباء فى ذلك الوقت وقلما ينبغ أديب في اليمن دون أن يساهم بحله • وكان هذا الاديب قد دخل زبيد سنة ٨٢٨ كما مر فيما مضى واتصل بابن المقري فراسله بهذا اللغز فى القرآن بقوله:

يا واحـدا قد شـاع فينا ذكـره — وشـرف الديـن وشيـخ وقتـه
وقد عــلا في العالمـين قـــدره — من فاق نظمـه الورى ونثـــره
ما اسـم رباعي يكـون خمسه — ونصـفه بغــبر شـك عشـره
في قلبـه نـار وطـود شـامخ — وقـد يـرى مصحفا مقـره
ورفعـه حتـم وجـاز نصبـــه — في فتحـــة ولا يجـوز جـره
واللوح فيـه مع يـراع ظاهـر — وقـد أبيـح طيـه ونشـــره
وفيه للباري مديح وثنـا — وفيـه حمـده وفيـه شـكره

يجـوز عنـد الشـافعي نقـله وعنـد كل مـده وقصـره
ولا يجـوز نقـله في موضـع بـلا خـلاف قلة وكثـره الخ

فيجيبه ابن المقري بقصيده شعرية طويلة يقول فيها :

أهلا به مـن بحـر علم صـدره كقلبـه رحـب الفنـاء برّه
أعيـا على الغائص نيـل قعـره ففاض بالـدر النظيـم بحـره
وسـهل العـلم علـى طـلابه فلـم يكـد الغـائصين درّه
إمـام أهـلِ الارض علما وتقى وسـيرة يعجـب منهـا دهـره
خاطـب كلا بالـذي يفهمـه صـونا له عـن خجلة تضـره
يبـدي لكل قـدر ما في وسعه لينثنـي عنـه بمـا يسـره
ألقى لحسن ظنـه في عيده أحجيـة فحـار فيهـا فكره
دلت على عـلم عظيم وذكـا والصبـح قـد ينبيـك عنه فجره
في اسـم رباعي يكـون خمسـة فيما اقتضـاه وزنه لا زبـره
أنبأتمونـي عنـه ان نصـفه في العـد ان جزأتمـوه عشـره
فبـان أن ربعـه كعشر خمـس سبـع ما يبقيـه منه قـدره
وقلبـه نـار ولكـن ربعـه طـود تولى كل وجـه شـطره
مكـرر في نفسـه تكـراره مصـحف مصحفـا مقـره
وكل شـيء رفعـه كـرامة فـرض علينـا فحـرام جـره
اللـوح فيـه ظاهـر لأنـه منـه وفيـه وعليـه ذكـره
فيه على الله الثنـا مـن نفسـه وحلفـه وحمـده وشـكره ..الخ

وممن آجاب على لغز ابن الجزري السابق العلامة أحمد بن محمد البريهي المتوفى سنة ٨٢٣ والاديب أحمد بن محمد الربيعي السلفي المتوفى سـنة ٨٣٢ ويبدو أن الجزري كتب أكثر من لغز حينما كان في زبيد فقد ذكـر البريهي أن الجزري كتب الى طلبته في زبيد لغزا شعريا في حب وهو قوله :

أخي ان رمـت تدري من حبيبي وتعرف ما اسـمه وتحيط علمـا

خذ اسما من أسامي الموت واقلب　　وصغر ذلك المقلوب حتما
وصحّف ذلك التصغير واجعل　　لمن أحببته من صده اسما

فأجابه تلميذه القاضي تقي الدين عمر بن محمد اليريمي فقال :

أتت أحجية من بحر علم　　لتعريف الحبيب وما يسمى
باسم الموت واقلب ثم صغر　　وصغر ذلك التصغير حتما
ففتح قلب حتف ثم صغر　　وصحّفه ففبح حزن علما
وما هذا القبيح سوى مليح　　وذاك القصد للحب المسمى

وتكثر الالغاز بين الادباء في ذلك الوقت وغالب استعانتهم فيها بالشعر وكان ابن المقري أشهر من برز في كتابتها ولعله من المفيد أن نعود الى بعض ألغازه الشعرية لتتضح لنا الصورة الكاملة لهذا الاتجاه في أدبه . فمن ذلك ألغازه في (السكين) يقول :

أحاجيك في شيء اذا ما سرقته　　وفيه نصاب ليس يلزمني القطع
على أن فيه القطع والحد ثابت　　ولا حد فيه هكذا حكم الشرع

وتعاطى الالغاز كل فئات المثقفين وربما شارك فيها الفقهاء على وجه الخصوص وضمنوا مسائلهم الفقهية على شكل ألغاز تلقى على الطلبة ، وكان ابن المقري واحداً من أولئك الذين شاركوا في موضوع اللغز الفقهي فقد كتب اليه أحدهم لغزا في مسألة فقهية تتعلق بالعتق يقول :

يا سيدا أكرم به من سيد　　علومه كثيرة كشهرته
ومن علا في وقته بعلمه　　وحكمه وفضله وسيرته
قد اعترانا قاصدا من مصره　　محولقا محسبلا من عجلته
ثم امتحننا بسؤال يشتهي　　له جوابا شافيا لبغيته
قال امرؤ أعتق مملوكا له　　لعفو ربي وابتغاء جنته
كان يحق شكره من عنده　　اذ فكه من رقه وخدمته

بل ادعى العنيق عند حاكم   محله في العلم أعلى رنبه
على الذي أعتقه تفضلا   بسبب العتق جميع قيمه
من غير بيع لا ولا جناية   بل أوجب الاحسان شغل دمنه
فحكم القاضي على سيده   نسليمها موزونة بحضرته
نم ادعى عنبق شخص آخر   قصنه تسبيهة بقصته
فلم بر القاضي له في حكمه   أن بلزم السيد كل قيمته
بل قال للسيد سلم نصفها   من عير مطل طائعا في سلعته
وقال ذا الحكم الجلي ابتغى   به من الله حصول رحمته
فنرك السائل كل مننا   حيران في تصويره وفكرته
فألهم الله الكريم رفعه   للعالم البارع وابن نجدته

فيأتي جواب ابن المقري على هذا اللغز المعقد فيقول :

أهلا بطرس من إمام مدنه   مس بحر علم فائض بحكمته
من لم يزل مشمرا عن سافه   لله في طاعنه وخدمه

ثم يمضي جواب ابن المقري شارحا تلك المسألة الغامصة فلا يبدع خياله فيها أكثر من الفائده الفقهية ومن هنا يتلاسى الابداع الادبي في كثير من هذه الالغاز حنى عدها بعض العلماء من جملة المسائل المتعلقة بالففه ، وربما ألف فيها بعض العلماء كتبا مسنقلة تعد من بين كتب الفقه •

وقد كان الادب في اليمن خلال هذه الفترة يساير ركب التطور في مصر فلا بضيف اليه شيئا يذكر إلا ماكان تقليدا ومحاكاة وما عسى أن يأتي به الاديب في اليمن وهذه مصر والشام قد غصت بمئات الادباء والعلماء من الذين لايشق لهم غبار • وقد اعترف العلماء في اليمن بتبعينهم لأولئك الفطاحل ، وفد رأينا ذلك في الشروح العديدة التي وضعوها لمؤلفاتهم الفقهية والنحوية • أما الادباء والشعراء فان ظاهره التقليد عندهم انحصرت في جوانب التأثر بالمدارس الشعرية القويه كطريقه أبي نواس وطريقة أبي تمام أو طريقة المتنبي الحكمية •

وهاهي المدرسة الشعرية تبدو جلية واصحة في عصر بني رسول منذ ظهور الشاعر ابن حمير المتوفى سنة ٦٥١ وأخذه بالشعر جانبا من الرقي والتطور عير مألوف قبله وقد ظهر أثر أبي تمام واضحا عليه وربما تجمعت المدارس الشعرية التقليدية في كثير من شعراء اليمن الكبار خلال دلك الوقت كالشاعر ابن هتيمل الذي تأثر بالمتنبي والشاعر ابن فلبنه الذي سلك طريقة أبي نواس المجونية وهاتان مدرستان لا يخرج عنهما أحد من شعراء البمـــن الا ماكان اضافة علبهما كتلك المدرسة البديعية التي ظهرت في العصر الايوبي والمملوكي في مصر ونهجأساليبهم التصنعة جماعة من أدباء اليمن سنذكرهم فيما بعد •

أدب الفقهـــــاء

على أنه من المفيد أن نقدم الحديث هنا على أدب وافعي أقرب الى الصدق منه الى الصنعة وذلك ما عرف عند النقاد بأدب (الفقهاء) إنقاصا لرتبته عن أدب الادباء ، وهذا لايضر في شيء ، حيث أن الفقهاء بعترفون بأنفسهم بعدم مجاراتهم للادباء في شعرهم وإن جاءت مقطعات منه على ألسنتهم تتعلق بتخصصهم الاول وهو الفقه وقد خففوا بها من جفاف هذا العلم وربما جاءت مقطعاتهم عن معاناه شديدة وتكلف كبير فاستحقوا بهما خلود الذكر ، وأهم صفة يمكن أن يوصف بها هذا الادب هو الاستفامه والمحافظه على قوانين الاخلاق والآداب • فلا نجد مايخرج عن هذه القوانين إلا نادرا • ومن الادباء الفقهاء في اليمن من بلغ الاجاده حتى اعترف له أدباء عصره بالشعر •• كما هو الحال عند ابن المقرى الذي لم يكن سوى فقيه مارس الشعر وتعاطاه بصورة مسمرة فما كان من أهل عصره إلا أن اعترفوا له به ومع ذلك فان الفقهاء لم بكونوا جمبعهم أصحاب شعر • وربمـــا مقته كثير منهـــم •

وقد دكر لنا الاديب أبو بكر البافعي أن كثبرا من الفقهاء كانوا يلومونه على قول الشعر حتى رد عليهم بقوله :

وكم حاسد لي في الانـــام وغابط على منطقي اذ كان منطقه رخوى
يعيرني بالشـــعر قـــوم وبعضـــهم يوبخني والكل بخبـــط في عشوى
أرادوا به عيبـــي وهل هو ناقـــص اذا ما جمعت الشعر والفقه والنحوا
وأصبحت في علم العروض مجودا وقدم قولي في الحكومة والفتوى
وما كنـــت مداحا لنفســـي وانما لأجعل أكباد العدا بالغضا تكوى

وكان والد ابن المقري لما علم بميل ولده الى الشعر تأثر كثيرا وكتب يحثه على الاخذ بالفقه والتبحر فيه قبل دخوله جانب الشعر(١) .

وكثير من الفقهاء من أحجم عن قول الشعر لا عن عجز وعدم مقدرة ، وانما حفظا لأوقاته (والاشتغال بما هو أولى وأهم من أمر دينه وخويصة نفسه)(٢). وحتى هذه الاشعار التي قالوها لاتكـــاد تخرج عن دائرة الفقه فهـــي إما مدح لأساتذة أو تحريض على طلب العلم وحفظ الاوقات أو ثناء على منون الفقه ومنهم من مال الى جانب الوعظ والتفكر فمال بشعره الى جانب التصوف .

ومن الفريق الاول الفقيه الشاعر ابن المقري الذي مدح شيخه جمال الدين محمد بن عبد الله الريمي بقصيدة طويلة يقول فيها :

خذا بي نحو الصون لاتتبعا الصدى فما كل نار عندها توجب الهدى
ولا تدعواني للفكاهة بعدها فقد ذهبت أيام عمـــري بها سدى
ثنيت عنـــاني قارعا ســـن نـــادم لأقرع ما فرطت اذ فاتنـــي الأدا
ومن جـــد في تحصيـــل هاد يدله الى الرشد لم يعدم دليلا ومرشدا
ألا ان بي للعلم علـــة حـــائم يسوت وبـــرد الماء في فمه صـــدا
ســـأهدي من التسهيد ميلا لمقلتي ومن صنعة الظلماء ما عشت أثمدا
ومن كان كســـب العلم أكبر همه طـــوى بردة الليـــل التمام مسهدا

---

(١) تاريخ البريهي ص ٢٢٣
(٢) طبقات الخواص ص ٣٢

اذا كنت في دعواك أصدق طالب لعلم فلا تستمل الا محمدا
وأعرض عن المظنون من فضل غيره ولا تعد عيناك اليقين وقد بدا
فما يسفط المكي فرض صلاته بظن ولا بعد التحري قلدا
وعند وجود الماء التيمم باطل ولا سيما ان طاب قربا وموردا
لقد نشر (الريمي) بالدرس دارسا من العلم قد أودى وطال به المدى
وأنقد باقيه وقد عكفت به صروف الليالي شاحذات له المدى
فكم من عويص حل معناه فهمه وقد كان في أسر الرموز مقبدا
وجلى ظلام المشكلات بواضح من القول خلى ناظر الشمس أرمدا
يباهي (ابن ادريس) به كل قدوة فيأسف اد لم يفتديه كما اقتدا
وصار عليهم حجة حين خالفوا ووافقه في القول أطولهم يدا
نصرت مقال الشافعي ولو نشا سلكت طريقا كنت فبها مقلّدا
وكم حجة أبرزتها لمخالف منعت بها أنفاسه أن تصعدا
اليك زجرت العزم والشوق مزعج وفي القلب منه ما أقام وأقعدا
أتيتك عطشانا وبحرك زاخر يفيض بموج قد تلاطم مزبدا
فدونك من قد جاء يعرض نفسه فإن ترض بي عبدا رضيتك سيدا

الى آخرها .. وفيها نجد نموذجا متكاملا مما كان يمدح به التلاميذ شيوخهم . فالشاعر هنا يضع مقدمة قصيرة لقصيدته لا يتغزل فيها بليلى أو لبنى كما هي عادة الشعراء في مقدماتهم الشعرية وانما تجده يأمر أصحابه أن يأخذوه نحو ذلك الصوت لا الصدى وأن لا يسلكوا به طريق الغواية والمجون فقد مرت عليه سنوات أضاع فيها أيامه سدى ثم يذكر تشوقه للعلم ومقدار مايعانيه الطالب من التعب والسهر في تحصيله العلم ، وأخيرا يصل الى غرض القصيد وهو المدح فيذكر شمائل شيخه وعلمه وفيها يستعمل أسلوب الفقهاء ويشير الى العبارة الفقهية الشهيرة (اذا حضر الماء بطل التيمم) وأن شيخه مورد صاف وأنه يباهي بعلمه علم (الشافعي) ويعيب على أهل عصره أنهم لم يقلدوه كما قلدوا(الشافعي)

وأخيرا يذكر شيخه بهمته لطلب العلم وشوقه الى ما عنده وهي فصيدة توحي لنا أن ابن المقري قالها أثناء دراسته على شيخه الممدوح •

ومن شعر الفقهاء في هذا الجانب كثير من القصائد التي قيلت في مدح الشيوخ لعل أقدمها قصيده الفقيه هارون السرددي الذي يعدد فيها مناقب شيخه علي بن أحمد الاصبحي المتوفى سنة ٧٠٣ وهي طويلة أورد نماذج منها المؤرخ الجندي في تاريخـــه •

وكما مدح الفقهاء شيوخهم نجدهم قد مدحوا كتبهم العلمية وأثنوا عليها ثناء لايقل عن مدحهم لشيوخهم وهي ظاهرة ينفرد بها أدب الفقهاء وحده فنادرا ماتجد أديبا يمدح كتابا إلا اذا جاء هذا الكتاب عرضا • وقد كانت الكتب من أهم ما يحرص عليه الفقهاء وقد عايشوها معايشة تامة حتى أصبحت جـــزءا من حياتهم لذا لانستغرب اذا رأيناهم يمدحونها بالعديد من القصائد ، فهذا الفقيه داود بن أحمد الهمداني المتوفى سنة ٨٢٩ يمدح (البيان) بأبيات يقول فيها[1] :

إن (البيـــان) بيـــان للعلوم وقد	خص المذاهب ما قالوا وما سطروا
جمـــع الامـــام العـــدل صنفـــه	لله يحيـــى فأحيـــا كل ما ذكـــروا
وقلد (الشافعي) واختـــار مذهبه	لما رأى قوله يعلو اذ افتخروا الخ

ويجمع الشيخ يعلى بن أبي بكر الكدراوي كتبه الفقهية ويمدحها بهـــذه الابيــــات :

نقرا (المهذب) للتهذب دائمـــا	ونراجع (التنبيـــه) للتنبيـــــه
وكذا (الوسيط) نروم فيه توسطا	علما صحيحـــا ليـــس بالتمويـــه
واذا قرأنـــا في (الوجيز) فموجز	لجـــوابنا قطعـــا لكـــل نبيـــــه
وكذا (البيـــان) الشرع فيه مبين	يدري بما قد قلـــت كل فقيـــه

وحض الفقهاء على طلب العلم والتمسك به فقال الفقيـــه عباس المساميري المتوفى سنة ٦٩٩ :

لا يطلب العلم إلا الحر ذو الكرم　　أو من له حسب الآباء والشيم
أو لوذعي أبي سيد فطن　　مقبل يقظ مستقبل الفهم
أما ذوو الصد ممن قد ذكرتهم　　فالفلس عندهم من أشرف الهمم
أف لهم ولدنياهم وما جمعوا　　وحبذا الجهبذ النقاد للكلم
كل امرىء راسخ في العلم عنصره　　فانه في اقتباس العلم ذو قدم

أما الفقيه يحيى بن عمران بن ثواب فيحدثنا عن شغفه بطلب العلم فيقول:

شيئان أحلى من عناق الخرد　　وألذ من شهد القراح الاسود
وأجل من رتب الملوك عليهم　　وشي الحرير مطرزاً بالعسجد
سود الدفاتر أن أكون نديمها　　طول النهار وبرد ظل المسجد
فاذا هما اجتمعا لشخص فارغ　　عن كل هم نال أبعد مقصد
وعلا المفاخر كلها وحوى المحا　　مد والمحاسن في الحياة وفي الغد

وهي على منوال قصيدة (الزمخشري) الشهيرة في الحث على طلب العلوم .. وكان الفقيه أحمد بن أبي بكر الناشري دائما ما يردد الابيات الآتية التيقالها في عراض بيتي السبكي في مدح دار الحديث وهي قول السبكي :

وفي دار الحديث لطيف معنى　　أصلّي في جوانبه وآوي
لعلي أن امس بحر وجهي　　مكانا مسّه قدم (النواوي)

فحولها الناشري الى مدح مسجد (الاشاعر) فقال :

وفي هذا (الاشاعر) لطف معنى　　به بين الانام أظل ساجد
لعلي أن أمس بحر وجهي　　مكانا مسه قدم لعابد

وتردد على ألسنة الفقهاء شعر الحكمة والتأمل وسنعرض له عند حديثنا عن أدب الصوفية والمتكلمين .. ومن الفقهاء من عني بنظم العلوم تسهيلا لحفظها فكتبوا فيه الشعر المزدوج والاراجيز العديدة حتى وصل بهم الامر الى أنينظموا كتبا فقهية كبيرة فنظم الفقيه محمد بن عبد القدوس الازدي المتوفى سنة ٦٩٣

كتاب (التبيه في الفقه) بأكمله ، ونظم الفقيه محمد بن أحمد المبارك المتوفى سنه ٧٢٧ كتاب (أبي شجاع في الفقه) المسمى (غايه الاختصار) وغيرهما كثير ومن هذا النظم الذي يقرب المسائل العلمية لأذهان الطلبة قول الفقيه يحيى بن ابراهيم العمك المتوفى سنة ٦٧٠ في حصر مسائل الزحاف الواقع في آخر العروض:

يا طالبا لزحاف الشعر معرفة ... أنا الذي عنده منه جوامعه
حد السواكن في الاسباب أربعة ... من كل جزء وما تخفى مواقعه
الخبن ثانيه ثم الطي رابعه ... والقبض خامسه والكف سابعه
وكل ما سكنوه للزحاف به ... ثلاثة كلها تنمي مواضعه
فثاني الجزء اضمار وخامسه ... عصب وسابعه الانعاف مانعه الخ

وكان من أشهر من نظم العلوم في اليمن الفقيه الشاعر اسماعيل أبي بكر المقري الذي سهل نظمه كثيرا من مسائل العلم المعقدة ، وقد ذكر السخاوي أنه وضع أرجوزه طويلة في مسألة الماء المشمس بلغت مسائلها نحو ثلاثمائة ألف مسألة وسبعة وخمسون ألف ومائة وعشرون مسألة وله قصيدة في نظم دماء الحاج شرحها كثير من العلماء ومن نماذج نظمه فى هذا الفن قوله في معرفة الوقفة من كل سنة :

ما بين كل وقفة ووقفة ... ثلاثة تكمل بين خمسة
فبعد الاثنين وقوف الجمعة ... ثم الثلاثا ثم سبت المسبت
فأربعا فأحد ثم أثبت ... خميسها للسنة المقبله
وعد الى الاثنين بعد السبعة ... وغير هذا نادر في العدة

ولابن المقري وغيره قصائد كثيرة في نظم العلوم لا مجال لذكرها هنا وقد عرفت هذه الطريقة منذ عصر النهضة الادبية في زمن بني العباس وبرع فيها من الشعراء المجيدين أبان بن عبد الحميد اللاحقي الذي وضع للبرامكة (نظم كليلة ودمنة) ثم تلاه بشر بن المعتمر وأبو العناهية بأبياته الخفيفة السهلة (وغالبا

ما ينظمون شعرهم هذا على قفلين قفلين) وقد عرف عند النقاد بالشعر التعليمي إلا أنه لم يدخل ضمن دراساتهم لبعده عن الخيال الادبي والصور الفنية ومن ثم أهملوه الاهمال التام • ولولا أن هذا الشعر عرف في التراث الاسلامي في اليمن بصورة واسعه لما عرضنا له هنا •

ابن روبك :

واذا كان لابد أن نقف عند شاعر من شعراء الفقهاء في العصر الرسولي فلابد أن نقف عند الفقيه يحيى بن روبك شيخ النحاة في زبيد وكان قد استوطن مدينة تعز وحدثت بينه وبين ابن المقري خصومة كبيره بسبب الصوفية ذكرناها فيكتابنا (الصوفية والفقهاءفي اليمن) وهو من الفقهاء القلائل الذين مدحوا ملوكالدولة (الرسولية) حتى كاد أن يزاحم بمدائحه الشاعر (ابن المقري) نفسه إلا أن شعره لم يجمع ولم أظفر بشيء من قصائده غير قصيدة واحدة قالها في مدح الملك الناصر يقــــول :

سود العيون هي السيوف البيض — تومي الى نفسي بها فتميض
مقــل تضــاعف ســقمها فنفضنه — فسرى بجســمي سقمها المنفوض
مرض الجفون يصح بين جوانحي — وجوى فؤادي من جواه مريض
من لم يغض الطرف عن ألحاظها — أرضاه طرف من (سعاد) غضيض
تفتــر عن بــرد تــزف غــروبه — أو عن أقاح روضــهن أريــــض
وتهــز غصــنا حمله في خــدها — ورد وبــين شـــفاهها اغريـــض
قد زيّــن الخــدّين تذهبب بلا — ذهــب وزيــن ثغــرها تفضبض
ان خفت في ظلــم الغــدائر ظله — يهديك للثغــر الضحــوك وميض
يا عاذل الولهــان دعــه فلومــه — من لائميه على الهــوى تحريض
حَبَّبْتَ قاتلتــي إلــيّ بعيبهــا — عنــدي وكان مرادك التبغيــض
وحسبت لي عقــل وعقلي غائب. — معها وروحــي عنــدها مقبوض
ان كان مســنونا فنــاء متيــم — ففناي في شرع الهــوى مفروض

تلك التي هي جنتي وبخدها نار عليها ناظري معروض
وهناك تفاح يزيد غضاضة ان زاد فيه اللثم والتعضيض

الى آخر القصيدة ، وهي محكمة البناء متماسكة الاجزاء وقد أشار الى أدبه المؤرخ (السخاوي) فقال : (مدح الملوك وقامت له رئاسة معهم وكان على طريقة العرب في ارتجال الشعر ، توفي بنخل (زبيد) سنة ٨٣٥) .

البديعيون

وبقدر ما حول الفقهاء أغراض الشعر لخدمة الفقه وسائر العلوم الاخرى نجد شعراء البديع قد حولوا كل العلوم لأغراض الشعر حتى إنهم جعلوا (الفن للفن) كما يقال ، ومن هنا جاء إفراطهم وتكلفهم .

ولم ترج مدرستهم في الادب اليمني إلا في فترات متأخرة حتى عدّت هذه الطرق (البديعية) من آخر ما وصل الادب اليمني من أساليب مستحدثة لم يتأثر بها إلا فئة قليلة من الادباء لعل أقدمهم حسب علمي الاديب وجيه الدين العلوي المتوفى سنة ٨٠٣ وكان أحد وزراء الدولة الرسولية ومحن بنكبات عديدة جعلته يميل الى (التصوف) وقد نظم قصيدة (بديعية) في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم أسماها (الجوهر الرفيع ودوحة المعاني في معرفة أنواع البديع ومدح النبي العدناني) يقول الخزرجي في وصفها (أودع فيها سائر فنون البديع من التجنيس والترصيع والترشيح وغير ذلك) . وقد اشتهرت بديعته شهرة واسعة وتناقلها الادباء وممن مدحها الاديب المحدث ابن حجر العسقلاني فقال :

لله درّ فاضل مبرز جاء أخيرا فتجلى سابقا
والبلغاء عن مداه قصّروا فما رأينا للوجيه لاحقا

ومدحها مجد الدين الفيروز ابادي بقوله :

هذا القصيد حوى البدائع كلها فسمى على نظم الرفاق وفاقا

حتى أقرّ الحاسدون بحسنه فأبان من أهل الخلاف وفاقا
واذا نظرت رأيت فيه جوهرا من بحر فضل أودعت أوراقا
ورقى بناظمه ذرى لم يرقها من رق لفظا في الورى أو راقا

وقد تناقلها الناس عنه فتصدى المؤلف لشرحها بعد ذلك في مجلد مستقل ويوجد هذا الشرح بين مخطوطات مكتبة الجامع بصنعاء •

وسار على نهج الوجيه العلوي في نظم البديع الشاعر اسماعيل ابن أبي بكر ابن المقري ووضع قصيدته في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وضمنها سائر أنواع البديع وهي بعنوان (الجمانات البديعية) وشرحها في جزء مختصر •

وكان ابن المقري أشهر من استعمل نظم البديع • ولا غرابة في ذلك فالرجل قد كلف بكل غريب وأراد أن يبهر أهل عصره وعلى الاخص ممدوحيه من ملوك الدولة الرسولية بتلك الاعاجيب التي يوردها في شعره • ويكثر استعمال أنواع البديع كالجناس والطباق والتورية والاستعارة في مدائحه خاصة فكان هذا مصدر اعجاب ملوك الدولة الرسولية بشاعريته •

ومن نماذج البديع في شعر ابن المقري قوله في (الجناس المركب) وهو أن يأتي الشاعر بكلمات تتشابه حروفها مع الكلمات التي تليها مع اختلاف المعنى وهو من عيوب الشعر ان كان عن تكلف• يقول ابن المقري في مدح الملك الاشرف:

سيعصيني في الحب من ولهي به بالقرب عن وجدي به ولهيبه
وتعود أيام الوصال وتنقضي من مدمعي وصبيبه وصبي به
لا تيأسن وان أضرّ بك الهوى وطففت من تثري به تثريبه • الخ

والتورية وهي من ألطف مافي شعر البديع من أساليب فنية وهي أن يأتي الشاعر بلفظ يحتمل معنيين إما حقيقة أو مجازا • وفي هذا النوع يقول ابن المقري في تهنئة الملك الناصر بعيد النحر :

يوم سرور وصفاء صدر أنجزت في الأعدا وعيد نحر

عيــد به ســعد علاك قد بــدا　　جهــرا وبــان أنــه عن ســر
ودولة الســن ببيض هنــدها　　قد أصبحت تروي حديث بشــر
ومنــزل يسافِرُ اللحظُ به　　في قطعــه مسافة للقصر.الخ

ففي البيت الاول يعني بعيد النحر العيد المعروف ووعده بنحر أعدائه .وفي البيت الثاني (السر) بمعناه المعروف والسر بمعنى الصلاح وفي البيت الثالــث حديث (بشر) يعني خبر المسرة وبشر صاحب هند من عشاق العرب له ذكر في كتاب (مصارع العشاق) (ج٢ ص ١٤٨) وفي البيت الرابع مسافة القصر بعني مسافة قصر الصلاة المقررة عند الفقهاء للمسافر ومسافة القصر مدة سيره الى قصر ممدوحه ، والقصيدة طويلة وشرحها يحتاج الى بحث واسع من هذا ، وكان ابن المقري من الشعراء القلائل الذين تفردوا بعلم (البديع) واستعملوه في شعرهم وربما لا نعدم من يستعمل البديع من شعراء العصر الرسولي غير ابن المقري إلا أن هذا قليل جدا في شعرهم وذكر (البريهي) في تاريخه أديبا واحدا هو الاديب محمد بن محمد بن ادريس العلوي المتوفى سنة ٨٢٧ كان قد نظم قصيدة عارض بها (بديعية) الصفي الحلي . ولم تظهر موجة البديع الحقيقية إلا عنــد ادباء القرنين الحادي عشر والثاني عشر وبرز فيه من أدباء اليمن أحمد بن حسن حميد الدين المتوفى سنة ١٠٨٠ في كتاب (ترويح المشوق) ويوسف بن علي بن علي الهادي المتوفى سنة ١١١٦ في كتاب (طوق الصادح) والحسن بن أحمد الحيمي المتوفى سنة ١١٥٢ في مؤلفاته الكثيرة وغيرهم كثير جدا .

اتجاهات الشعر

موضوعات الشعر في الادب اليمني خلال عصر بني رسول موضوعات عادية لا تخرج عن الحدود التي سنها لها فحول الشعراء في العربية وهم أن ذكروا بشيء جديد فهو ذلك الالتزام الذي لايخرج عن حدود الادب بمفهومه الخلقي فقد حافظ الشعراء في اليمن على قوانين الاخلاق ولم نجد ذلك الاسفاف الذي عهدناه في شعراء العصر العباسي والعصر المملوكي في مصر من الغزل بالمذكر والاباحية التي تخرجهم عن القواعد الاساسية للآداب فالادب هنا أدب خلق ومروءة وكثير منهم من سن لنفسه منهجا دينيا صارما لايكاد يحيد عنه ومنهم من ولع بمدح (الصوفية) والاولياء كما هو الحال عند الشاعر ابن حمير والبرعي.

ومع ذلك فلا بد من مسايرة الانجاهات الادبية السائدة في عصورهم فرأيناهم يولعون بمحاكاة الجيل الاول من شعراء المولدين في العصر العباسي ورأينا شيئا من شعر الخمريات يفشو بينهم وكان شاعر الخمرة في اليمن الاديب أحمد بن محمد بن فليته المتوفى سنة ٧٣٤ يجاهر بشربها في شعره ويقول :

أدرها باليمين وباليسار ... وداو القلب من داء الخمار

يطوف بها على الندمان ظبي ... يشابه خده في الاحمرار

وربما حلت الخمرة مكان الغزل العادي في مفتتح قصائد ابن حمير وابن هنيمل وكان الاخير من الشعراء القلائل الذين جمعوا بين الغزل والخمر في آن واحد فقال في بعض قصائده :

أعصرتها من مقلتيك رحيقا ... ومزجتها من مقلتيك رحيقا

وأدرت ابريقين ابريقا لها … من جوهر ومن اللما ابريقا
وهي مزاج كان ثغرك دنها … سكرا وكان شفاهك الراووقا[1]
صفقت احدى خمرتيك فلم نجد … بالرشف في احداهما تصفيقا
وجليت وجهك والمدامة فانجلت … الشمس والمريخ والعيوقا
وكأن كفك تحمل القدح الذي … طليت طهارته طلا وخلوقا
حسبي بظلمك والسلافة نشوة … بهما صبوحا دائما وغبوقا

وكان ملوك الدولة الرسولية قد شجعوا هذا النوع من الشعر حتى قال شاعرهم وهو الملك المؤيد داود بن يوسف :

خنما تراه ودع عنك الذي غابا … واقطع زمانك أفراحا واطرابا
قالوا أتاك نذير بالمشيب فتب … أما قضيت من العصيان آدابا
فقلت كيف يبالي بالمشبب فتى … لم يدر من طول سكرٍ أنه شابا

وربما ورد ذكر الخمر في مفتتح قصائد شعراء العصر (الصليحي) كالاديب أحمد بن محمد العثماني الذي تفنن في وصف الخمر . فقال في مفتتح بعض قصائده :

ما العيش الا كاعب وعقار … وأكارم نادمتهم أخبار
قم فاسقني بالكاس من تلك التي … أهل النهى في وصفها قد حاروا
واشرب ولا يلحقك خوف عقوبة … فيها ، فرب حسابها غفار
خذها فان حلت أصبت وان تكن … حرمت فمحو ذنوبها استغفار
لاتصرفوا عني الكبير فانما … في شرب كاس كبيرها اكبار

لكن وصف الخمر اختفى من شعر كثير من أدباء العصر الرسولي فلا تجد له ذكر في شعر (ابن المقري) على كثرته ولا في شعر عبد الله بن جعفر أو ابن عبد المجيد اليماني وغيرهم . وهذا يعود أساسا الى التزام أدباء اليمن بقواعد الدين

---

(١) الراووق : الكاس .

والمحافظة على الاخلاق حتى إن هذا الالنزام يكاد يخرج بأدبهم الى حظيرة أدب الفقهاء والعلماء لولا جزالة التعبير وتماسك الاسلوب •

وكانت أكثر الاتجاهات الواردة في شعرهم غالبا ما تأتي في مدائحهم لملوك الدولة الرسولية لغلبة هذا النوع على شعرهم حتى لاتكاد تجد شاعرا واحدا ينظم قصيدة لذات الشعر نفسه وانما ينظمها في مدح الملوك ليحظى عندهم بجائزة ومن ثم أتت المواضيع المرددة في شعرهم فاترة الاسلوب مكررة المعاني حتى لاتكاد تظفر بجديد عن ما أتى به شعراء العربية الأُوَل •

فشعر الغزل والخمر ووصف الطبيعة والوصف كل ذلك لم يأت لذات المعاني نفسها وانما قدم وسيله الى مدح من يمدحونهم ، وهذا عام في الشعراء المحترفين لتكسبهم بالشعر وجعله تجارة يعرضونها أمام الملوك ، وهذا الشاعر (ابن هتيمل) لم يكتف بأن يلمح لمدوحه بمطالبه المادية فبصرح لهم بذلك صراحة ويقول في احدى قصائده للملك المظفر :

لا رزق ما لم أغن منك برحمة　　　قد أغنت المحروم والمرزوقا
من أين ترمى بالكساد بضائع　　　أضحت لهن عكاظ جودك سوقا

ويقول في أخرى :

وانظر اليَّ بعينٍ منك راحمة　　　لاتقصدن غير وجه الله في النظر

وقد بلغ الامر بالشاعر محمد بن حمير أن يضايق ممدوحه بمطالبه الشرهة وكان يقصد الامراء والمشائخ ويرغمهم على إكرامه وقد قصد الشيخ عمران القطبعي المقصري فطلب منه الشيخ أن يمهله شهرا حتى يجمع له مايطلبه ثم لم يستطع ذلك وأرسل اليه رجلا شاعرا يعتذر اليه فكتب ابن حمير الى ممدوحه يقول:

حاشاك يا عمران تنقض صحبتي　　　ونصيع حق مودتي ووفائي
ووعدتني بالخير شهرا كاملا　　　وقطعت بعد النهر حبل رجائي
وبعثت نحوي شاعرا بمعاذر　　　في رحم أخت الشعر والشعراء

والله ما يثنـون عنك بمثـل ما أتني ولا يهجـون مثل هجـائي

فما كان من (القطيعي) إلا أن أخذ حصانه وقدمه اليه هدية وهكذا فـان مفهوم الصحبة عند ابن حمير يقدر بالعطاء المستمر وربما أدى حرص ابن حمير على أخذ عطايا ممدوحيه الى توتر سياسي تحدثت عنه كتب التاريخ فقد حدث أن قصد الشيخ عمار الشيباني فأقام عند بابه مدة ولم يأذن له بالدخول فكتب اليه رقعة يقول فيها :

بالباب أصلحك الله امرؤ لَسِن" أمضّـه السير والإدلاج والسهر
وافى الى أرض خولان فصادفها متل القنادة لا ظـل ولا ثمـر

فلما وقف عمار على كتابه كتب على ظهره (بل الغمامة فيها الظل والثمر) وأدخل ابن حمير وأنى به وبينما هو عائد في الطريق تعرض له بعض غلمان الشيخ عمار ونهبوا مامعه فاتهم ابن حمير عماراً وقصد الملك المظفر يحرضه على غزو عمار الشيباني في قصيدة يقول فيها :

ما شاق قلبـي احـراج واكوار ولا شـجتني أعـلام وآثار
مررت باليمن الخضراء حين صفت لابن الرسـول فما في تلك أكدار
وكان فيها غطـاريف زعانقـة فما بقي مـن بني البطراء ديـار
لكن بقي فـرد ثولول نعاب بـه والنار أسهل مركوبا ولا العـار
ان قلت لم يبق سلطان سوى عمر قالوا بلى بل بقي السلطان عمار
أو قلت لا قصر الا قصر (دملوة) قالوا (براش) يمين القصر والدار
أو قلت ما أحسن المعشار منجوه قالوا وليس الى (ذبحان) معشار
فخذ يمينك ولا تقبـل معـاذرة فالكلب حيـث خلا بالعظم جبار
لم يتفـق قط سلطانان في بلـد هل يدخل الغمـد بتـار وبتـار
ما غبت إلا رمى بالعين (دملوة) وظل ينشـد والاقـداح دوّار
مولاي لا تحتقـره فابن ملجم قد عدى بحيـدر والغـدار غـدار
بئس الخبيئـة تحت الفرش قملة والسد تر كمـين تحته الفـار

وكان ابن المقري على الرغم من عطايا ملوك الدولة الرسولية الكثيرة لـه حتى إنه كف عن أخذ بعضها استكثارا نجده يتسول الى الملك الظاهر بأن يجدد بناء بيته المتهدم يقول بعد سماعه ببناء الظاهر (قصر السدير) :

اجعل زكاة (سديرك) المعمور — اصلاح بيتي فهو أي فقير
تجب (الزكاة) على بيوتك كلها — غير البيوت لفضلك المشهور
وأحق من أدت اليه زكاتها — بيتي لمالك من هوى لضميري
بيت بناه لي المهد منعما — وأطال فيه بشرتي وسروري
ونزلت من أعلى لأسفل روعة — يا وحشتاه لمنزلي المعمور
يحيى بيحيى ما شكوت خرابه — ويعود أحسن منزل معمور

ويكثر شعر (الكدية) في أدب ابن المقري فهو يقول على لسان أحد الفقراء في قصيدة بعثها الى الملك الناصر :

ولقد وردت على مناهل جودكم — واذا الزحام بها كما وصفوه
ذا صادر راو وهذا وارد — ولو ارتوى النقلان ما نزفوه
فأقمت والاولاد ينتظرونني — من مَرّ بين بيوتهم سألوه
عشرون من ولدي ومن أولادهم — خلفي فيا لله ما لقيوه
قد ساء حالهم وضاعوا عيلة — يا رحمتا للطفل غاب أبوه
يشجي كبيرهم بكاء صغيرهم — فاذا بكى هذا بكى وأخوه
وتكاد أحشائي تفتت حسرة — مهما أعاد حديثهم راووه
ما في يدي نفع ولا لي حيلة — إلاّ صنيعكم الذي أرجوه
يا واضع المعروف في أربابه — أنت الملبي دفع ما أشكوه
فامنن عليّ بأن تقر عيونهم — واعطف عليهم بالذي فقدوه
حتى أراهم أجمعين بموقف — يدعون ربهم وقد حمدوه
يدعونه لك بالبقا وأكفّهم — مبسوطة والدمع قد ذرفوه

وشعر من هذا القبيل كثير .

وما عسى أن تكون عطايا الدولة الرسولية حتى تحول الشعر من أغراض أدبية بحتة الى مدح خالص يعدد أمجاد الملوك ومآثرهم • هنا سنجد أن الدولة الرسولية لم تنفرد وحدها في إثابة الشعراء وانما سبقتها دول كثيرة وكان القوم يعتزون الى الشعر والشعراء ويقربونهم اليهم وكيف لايكون ذلك وفيهم بقية من فصاحة وفخر عربي ، وكانت دولة بني حاتم العربية الخالصة تكرم الشعراء وتجيزهم بآلاف الدنانير فقد كرم ملكهم المفضل بن أبي بركات الحميري الشاعر محمد بن زياد المآربي بألف دينار فقال الشاعر :

ووهبت لي الالـف التي لو أنها وزنت بصـم الصخر كانت أبهرا

وكذلك فعل هذا الملك مع الشاعر موهوب بن جديد المغربي •

وكان الشاعر ابن القـم يقول في مدح الداعي سبا بن أحمـد الصليحي صاحب أشيح :

ان ضامك الدهر فاستعصم بأشيح أو أزرى بك الفقر فاستمطر بنان (سبا)

أما في الدولة الرسولية فان عطاياهم للشعراء فد تعددت وكثرت ولهـذا السبب مال الشعراء الى مدحهم وانهالوا عليهم بالعديد من القصائد حتى أطمعوا فيهم من ليس له دراية بنظم الشعر • وكان ملوكهم يقدرون الشعر ويساهمون في فحص جيده من رديئه بالعديد من العبارات الانتقادية • فهذا الملك المظفر يفضل شعر (ابن دعاس) على شعر (ابن حمـير) ويقول : (انما ابن حمير صـاحب خلاعة[1] وربما تدخل الملوك في صيغ ممادح الشعراء لهم واقترحوا عليهم اضافات أخرى فهذا الشاعر ابن المقري يطلب منه الملك المنصور أن يطول قصائده في المديح الى نحو خمسين بيتا[2] وطلب منه الملك الظاهر أن يكتب له مديحه على منوال قصيده ابن حمير في مدح الملك المنصور عمر بن علي الرسولي التي أولها :

(هل عندكم من أناس باللوى خبر) •

(١) العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٣٨٢ •

(٢) ديوان ابن المقرى ص ٣١١ •

فدل هذا وذاك على اقبـال ملوك الدولة الرسولية على مدائح الشـعراء وتفنيد قصائدهم بالنقد والاقتراح وربما وقفوا عند القصائد الجيـدة وأثابوا الشعراء عليها بآلاف الدنانير حتى بلغ الامر بالملك الظاهر أن يكافىء الشاعر ابن المقري على قصيدة قالها في مدحه لكل بيت منها ألف دبنار وهو شيء كبير فيذلك الوقت • ولهذا السبب كان تحول الشعر في اليمن الى المديح واغراقه فيه وهو جانب يقل فيه التجديد والتطور كما بقول الاستاد شوقي ضيف : (وما عسى أن يقول الشاعر في رجل كالرجال لا يتميز بصفات خلقية أو جسمية فالامر سيان وكل مافي الامر أنه يرمي من مديحه الجائزة والعطاء ولولا اهتمام الادباء بهذا الجانب من الشعر لضربنا عنه جانبا • وكان أقدم من استعمل المديح في العصـر الرسولي الشاعر محمد بن حمير وهو رجل طبع خلقه على التكسب بشعره وعدم الاحتراف بغيره فطبع الشعر بطابعه • فنادراً ما يظهر شاعر ولم يمدح الملوك ومن حسن الحظ أن الشعراء هنا لايهجسون على مدائحهم هجوما وانما يمهدون لها بمقدمات تدور حول مواضيع انسانية أو غزلية ومن هنا كانت لنا حصيلة شعرية في هذا الجانـب نستطيع أن نستخلصها من مدائحهم • وقد مـر بنا كيف أنهم استطاعوا وصف الخمر والتغزل بها من خلال مدائحهم لملوك الدولة الرسولية•

وربما وجدنا لهم مقطعات شعرية في أغراض مختلفه غير المديح إلا أن هذه المقطعات قليلة ومما زاد في ندرتها عدم التصدي لجمع أشعار الادباء في ذلكالوقت وما جمع منه فقد أكثره وضاعت دواوين كبار شعراء العصر الرسولي كالشاعر محمد بن حمير والشاعر عبد الله بن جعفر والشاعر ابن عبد المجيد اليمانيوغيرهم والذي بقي منه نجده مفرقاً في كتب التراجم وغيرها من الكتب غير المتخصصة في فن الادب وربما أتت قصائدهم في مناسبات تاريخية يجد الباحث بعضها في كتب الخزرجي مؤرخ الدولة الرسولية •

ومن هنا فالحكم على اتجاهات الشعر في العصر الرسولي بقول صارم يصعب على الباحث المدقق اذ لايتأتى هذا الحكم الا باستيعاب كل نصوص الشعر في

عصر بني رسول وهذا ما يستحيل في عصرنا الحاضر • ولابد من إلقاء نظرة على الشعر في ذلك العصر بما يكتنفه من صعوبة وسنجد فنونه قد انحصرت في الفنون الشعرية المعتادة وظهرت له اتجاهات غير الفنون التقليدية نستطيع أن نستخلص منها سمات محلية وربما وجدنا فيها من الابتكار والتجديد ما لانجده في الشعر الرفيع المعتاد لكبار شعراء العصر ، كما سنفصله فيما بعد •

وكان المديح بوتقة الشعر وكيانه العام • وقد شجع الادباء في خوض بحره بريق الجائزة واغداق الملوك وقد تعددت مصادر المدح في اليمن لا من حيث المعاني المطروقة وانما من حيث كثرة الممدوحين من الملوك ورؤساء القبائل وصغار الامراء • والمتصفح لديوان الشاعر ابن هتيمل مثلا يجده قد مدح جماعة من الاعيان على مختلف اتجاهاتهم ووجهاتهم ، حتى بلغ به الامر أن يمدح الملك المظفر الرسولي ، في حين يمدح أعداءه من أمراء المخلاف السليماني ، والإمام أحمد بن الحسين ، ونادرا ما يكون الشاعر صادقا في مدحه،حتى تكاد تلمس برودةالعبارات وتكلفها في كثير من مديحهم ولم يخرجوا فيه عن القاعدة المتبعة عند شعراء الجاهلية والاسلام الا في مواد خاصة يغلب عليها طابع المحلية وسنشير اليها فيما بعد كما لم يخرجوا في مديحهم عن قاعدة الدين فلا تجد في شعرائهم من يصف ممدوحه بذلك الوصف الذي قاله ابن هاني في الحاكم بأمر الله :

ما شئت لا ما شاءت الاقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

وانما تجد شعراء يضعون نصب أعينهم مخافة الله وتقدير رجال الدين وان كنا نجد فلتات قليلة ليست بذات أهمية توحي لنا بالغلو في المديح كقول ابن هتيمل في وصف ممدوحه :

ملك اذا رويت منه رأيته ملكا يرى في صورة السلطان
وتراه انسانا وفيه فضائل تعليه عن بشرية الانسان

فهو هنا جعله فوق درجة الانسانية لكن مثل هذا قليل في شعر العصر

الرسولي وهذا غاية ماوصل اليه الشعر في هذا المجال .. وهم وصفوا الممدوح بخصال معروفة في الخلق الانساني كالشجاعة والحكم والبصر الى غير ذلك وركزوا على وصفهم بالكرم لحاجة في نفس يعقوب . فقال الشاعر ابن حمير يصف الملك المنصور عمر بن علي :

وبحصن (دملوة) المنبع دماره ملك تسمى أكرم الكرماء
ميلوا الى المنصور لا تتحدثوا عن برمك وأبي عدي الطائي

ويصف ابن فليته ممدوحه الملك المجاهد فشبه أصابع يده الخمسة بخمس سحائب يقول :

وفي كفه للجود خمس سحائب تجود بلا برق يروع ولا رعد

ويقول ابن المقري في مدح الظاهر يحيى بن اسماعيل :

فلو أدركت أيام جودك (حاتما) طمست اسمه طمس الدجى بالظهيرة

ويفاخر الشاعر ابن هتيمل ملوك الدولة الاموية والعباسية بالملك المظفر فيقول:

نسخت ملوك الدولتين بدولة طريفهم مستهلك في تليدها
فأف على مروانها وهشامها وأف على مهديها ورشيدها

كما أشاد الشعراء بنسب ملوك الدولة الرسولية وعراقتهم في الملك من زمن الغساسنة فقال الشاعر ابن هتيمل في مدح المظفر :

ملك اذا انتسب الملوك فانه يكفيه شهرة فضله أن ينسبا

وقال ابن المقري :

لهم في الجاهلية كل ملك وجد دوخ الدنيا حروبا

وقال في موضع آخر :

أفيكم فتى في الملك قد عد مثله ثمانين جدا في القبور هم أحيا

وهذا يكثر في شعر العصر الرسولي ولا غرابة في تركيز الشعراء على نسب ملوك الدولة الرسولية إرضاء لهم فان خصومهم يلزمونهم في نسبهم الى الغساسنة ولا يعتبرونهم إلاّ من أحفاد التركمان وهذا واضح في كتابات مؤرخي مصر وغيرهم وكان النويري يؤكد على نسبتهم الى التركمان . أما خصومهم من الأئمة فلا يطلقون على الدولة الرسولية إلاّ دولة التركمان ويقول المؤرخ أحمد بن محمد الشرفي في شرح البسامة أنهم من بقايا الاتراك ولعل هذه الشائعات وغيرها دفعت المؤرخ الخزرجي الى أن يضع كتابا مستقلا في هذا الصدد بعنوان (المحصول في انتساب بني رسول) . ولا نحب الخوض في مثل هذا البحث العقيم . إذ أمر الانساب من الامور التي لاتأتي الا بالتواتر والنقل عن الناس ، وربما فرضت بعض الدول نسبا معينا كما رأينا في نسب الخلفاء الفاطميين .

وأشاد الشعراء بفتوح الدولة الرسولية حتى وصلت في زمن المنصور والمظفر الى أطراف مكة المكرمة والهند فقال الشاعر ابن حمير :

نادوا أبا الفتح الذي فتحت له ... (عدن) الدعاة ومكة البطحاء
والهند والسند البعيد ثناؤه ... فيهم وأيم الله خير ثناءِ

ويقول ابن هتيمل للمظفر :

بنيت على قرى اليمنين دربا ... بحد المشرفية لا دروبا

ويصور أبهة الدولة في عهد المظفر فيقول :

وكسوت بيت الله أشرف كسوة ... نشرت عليه وكان كالعريان
وبثثت في الحرمين من صدقاتك الـ ... حسنات ما يغني عن الحرمان
وعميد (مصر) منك يطلب نصرة ... وأخوة في السر والاعلان
والبر والبحر استتب خراجه ... بضمان والٍ أو بغير ضمان

ومواضيع أخرى تطرقها الشعراء في مدحهم لملوك الدولة الرسولية سيجدها القارىء أثناء عرضنا لشعرهم فيما بعد . وكأن الشعراء استكثروا ما قالوه في

مدح الرسوليين فكان ابن هتيمل يثني صراحة على غرر قصائده أمام ممدوحه الملك المظفر فمن ذلك قوله في آخر قصيدة له :

فدونك حـرة الاعـراف تحـلو ... بقلـب حليلها بكـرا عـروبا
تبرج ان تحجبت القـوافي ... ولم تخف (الوليد) ولا (حبيبا)

ويشبه نفسه بأبي نواس وممدوحه بالخصيب والي (مصر) الذي قصده أبو نواس :

اذا زرت المظفـر في زبيـد ... فقلـت أبـا نواس والخصيبا

ويصف الشاعر رحلته الى ممدوحه فيقول أنه سئم البقاء في بلدته وهذا المنصور يملأ مدينة الجند باحسانه فيقول ابن حمير في هذا المعنى :

ولقد سئمت على الزمان تغيبـي ... ومللـت في أرض الهوان ثوائي
وأدرت طرفي في البلاد فلم أجـد ... حـراً اذا أدعو يجيـب دعائـي
يا ركـب بالجنـد الخصيبة بارق ... تهمـي سـحائبه صباح مسـاء

ولم يقتصر الشعراء على مدح الملوك والامراء وحدهم فقد حظي عمـال الدولة الرسولية ووزراؤها بنصيب وافر من غرر القصائد في مدحهم بل نجد من الشعراء الكبار من مدح العلماء والفقهاء من الصـوفية والمتعبدين ولم يحصر شعره على مدح أرباب الرياسات وهذا الشاعر ابن حمير على حرصه في الكسب من شعره يمدح الفقيه أبا عبد الله محمد بن أبي بكر الحكمي وصاحبه محمد بن الحسين البجلي صاحب عواجة وله فيهما غرر القصائد وكذلك الشاعر عبدالرحيم البرعي مدح جماعة من أكابر العلماء والفقهاءفيعصره كالفقيه علي الاهدلوالعرابي وغيرهما وأغلب الظن أن مدح الشعراء للعلماء أتى بدافع الاخلاص والحب ولم يكن لغرض مادي • وربما اختلفت المضامين المطروقة في مدحهم عن مدح ملوك الدولة الرسولية فرأينا صورا تختلف تماما عن تلك الصور السابقة وربما اقترن بعض من مديحهم للعلماء بمدح الرسول صلى الله عليه وسلم • وهذا ماستنعرض له بالبحث عند حديثنا عن هذا الجانب من الشعر •

أما مدح الوزراء فقد انفرد به الشاعر ابن هتيمل وكانت له قرابة أسرية ببعضهم فكان يتقرب اليهم لهذا السبب ولغيره • وممن مدحهم الكاتب (خطاب) أحد وزراء الدولة الرسولية في عهد المظفر وقد وصفه بسلامة الضمير وطهارة ثوبه من الدنس فقال :

واذا الخطوب طغت فلم تر موئلا   أوفى وامنع من يدي (خطاب)
رجل اذا دنس الرجال فعرضه   عف الضمائر طاهر الاثواب

ثم عرج الى مهنة الممدوح وهي الكتابة والامارة فوصف قلمه بأنه يدير مراسم الدولة من (مصر) الى (عدن) الى (عيذاب) وأنه في مهنته تميز برئاسة السيف والقلم :

وفتى اذا غاض السماح وجدته   بحر السماح ومعدن الآداب
قلما يدبر سائر الاقليم من   (مصر) الى (عدن) الى (عيذاب)
ورئاستان اذا انتضى سيفيهما   مضيا على الامراء والكتاب

ويمدحه بقصيدة أخرى فيصفه بأنه قلب الامير وعين السلطان وزند الدولة•

وفتى للامير قلب وللسلطان   عين وللخلافة زند

وكان الشاعر ابن المقري قد اتصل ببني معيبد وزراء الدولة الرسولية وشاركهم في شؤونهم الحكومية حتى امتزج بهم وزوجوه منهم فكان يمدحهم بالعديد من القصائد كقوله في احداها يمدح الوزير نور الدين علي بن عمر بن معيبد يصف شجاعته وتواضعه وكرمه :

فتى يستقل البحر ورداً لشارب   ويستصغر الدنيا مناخاً لقادم
مكارمه تغشى محط عفاته   وآراؤه تغشى مقيل الضراغم
اذا اقتسمته نشوة الباس والندى   تموج موج اللجة المتلاطم
فأعداؤه من كرهه في مآتم   وأضيافه من جوده في مواسم
فتى لا تراه ساحبا ذيل عزة   ولا راكبا إلا ظهور العزائم
ولا اختال إلا في مجال القنا ولا   تبختر الا في وجوه العظائم

أما ابن حمير فيتجه بمدائحه الى رؤساء القبائل فيحظى عندهم بالعديد من الجوائز وكان المشائخ رؤساء القبائل يكونون طبقة عسكرية قوية لا تخضع في قوتها لسلطان الدولة ولهذا اعتبر مدحهم والتقرب اليهم نوعا من التمـرد على الدولة • وقد حرمت الدولة على كثير منهم دخول المدن الكبيرة فكان الشيخ منهم اذا أراد حاجة خاصة له وقف عند سور المدينة وبعث من يأتي اليه بطلبه • وقد تميزت قبيلة الاشاعر والمعازبة بكثرة مشائخها وتمرداتهم على الدولة حتى كادوا أن يسقطوا الدولة الرسولية في أحد الايام لولا اعتمادها على العنصر الاجنبي من المماليك ، فكانوا يصارعونهم من حين لآخر • وكان تقـرب ابن حمير الى المشائخ في إبان تكون الدولة الرسولية وعدم التفاتها لأمراء المشائخ وقد مدح منهم جماعة كالشيخ معيبد بن عبد الله الاشعري الذي يقول في مدحه يصفه ويصف قومه ومدينته :

الخصب لي والخصيب في (رمع)	ومصـر بل نيلهـا لمـن يـرد
ومذ كساني (الحسـام) نعمته	لم أبـك للبرمكيين ان فقـدوا
ومذ كفانـي أبـو العفيف فـلا	يمـلأ عينـي من الورى أحـد
ذي (رمـع) والحما وذاك معيـ	ـبـد وهذا العـدبد والعـدد
ان سار سـاروا وراء رايتـه	أو هو أومى بكفـه سـجدوا

وقد وجد ابن حمير في مدح مشائخ العرب متنفسا لنزعته العربية التي ماكاد يظهرها الا من خلال المدح لهؤلاء •

وامتزج شعرهم بنوع آخر من الفن هو ماعرف بفن الغزل ، وقلما تخلو قصيدة واحدة منه • اذ كان هذا النوع ضرورة من ضـرورات الشاعر في ذلك الوقت • وانساق وراءه جماعة الشعراء على مختلف اتجاهاتهم بما فيهم أولئك الصوفية وهم في غزلهم أصحاب صنعة وذوق ومع ذلك فلا تكاد تظفر بشيء جديد في هذا الباب وكل ما في الامر هذه الصور المعتادة في أدب الجاهلية والاسلام • ومنهم من أغرق في التقليد وتشبه بالقدماء الجاهليين ولم يخرج عن قاعدتهم حتى

في أسماء النساء ، فهنا نلتقي بسمية وليلى وزينب والرباب وغيرها • وكان ابن هتيمل واحداً من أولئك الذين ولعوا بذكر النساء في شعرهم وقلده في ذلك الشاعر عبد الرحيم البرعي وأنت تقرأ شعر ابن حمير فتجد فيه هذا النفس الجاهلي كقوله :

ما لي حفظتِ العهد من أسمائي ... وهوى ابنة البكري غير هوائي
ما رمت صاحبة سواها انما ... أسماء حاولت البديل سوائي
أبدا أحوط لها الهوى وأصونه ... وتخون فانظر غدرها ووفائي
ميالة الأعطاف بل منهالة الـ ... أرداف بل مهضومة الاحشاء

الى آخرها •••

فنحن نقف في هذه المقطوعة على وفاء الشاعر لمحبوبته وصدها عنه ثم وصفه لها بالصور الحسية المعتادة في شعر الجاهليين والاسلاميين ولا نظفر بشيء غير هذا•

وقد تفنن الشعراء في وصف ملامح الحبيب والعناية بحسن التشبيه فلا تخال نفسك إلا أمام لوحات فنية أبدع في رسمها رسام ماهر • انظر الى محبوبة الشاعر ابن هتيمل في هذا الوصف الرائع :

أغرّ في البدر شكل من محاسنه ... وللقضيب نصيب من تثنيه
كأنما الصعدة السمراء عاسلة ... في بردة ومجاج النحل في فيه
اذا تحرك فارتجت أسافله ... تحت الغلالة واهتزّت أعاليه

فنحن أمام لوحة متحركة لمرأة كاملة الوصف •

وهذه صورة أخرى :

متجلبب بغلالة من شعره ... كسِي الملاحة حاسرا ومنقبا
قمر توشح خصره بسواره ... فيجول من هيف عليه لولبا

وفي شعر البرعي شيء من هذه الصور الحسية كقوله :

ذهبية القسمات رائعة الصبا ... ترنو فيحسدها الغزال الأغيد

فمي هذه الصورة وغيرها بكثر تنسبه الشاعر محبوبنه بأشباء حسنة أو معنوية • وكأن قرائحهم قد توقفت عن الاتيان بشيء عير هذا الاسلوب ، فلا يخرج الشاعر في وصف محبوبته من ذاتها وانما يشبهها بما هو أقل منها مكانة وقيمة من حيوان وجماد حتى كأنك تخاله وهو بصفها انما يصف حيوانا أو متاعا جميلا يعرضه للبيع • ولا أدري هل انحطت مكانة المرأة عند الشعراء الى هذا الحد أم مجرد خيالات يتوسل بها الشاعر الى ممدوحه ، اذ أغلب شعرهم في الغزل انما ورد في مدائحهم لأعيان عصرهم •

وكان ابن المقري فد ساءه كثرة استعمال الشعراء للجماد والحيوان في وصف الحبيب فشبه محبوبنه بشيء آخر غير مألوف عندهم كقوله :

ما كنت أول طامح في جامح فحل اللحاظ مؤنث الاجفان

فاستعمل الذكورة لقوة الابصار والانوثة لفتور الاجفان • ومثل هذا قليل في شعر ابن المقري والا فهو واحد من كبار الشعراء المغرقين في تشبيه الحبيب بالجماد والحيوان • انظر الى هذه التشبيهات الكثيرة في هذه المقطوعة :

قوامك مثل معتدل القناة ووجهك قد أضاء على الجهات
وريق لماك خمر سلسبيل سلسل من لآلي باهرات
ومن عجب جفونك فاترات وتفعل مثل فعل المرهفات
وسيف اللحظ في الوجنات بحمي جنى الورد عن الايدي الجناة
وشعر مثل ليل البحر داجٍ على المتنان مسود الشمات
وجيدك جيد ريم في التفات الى القناص يعدو في الفلاة

وابن المقري على فقهه وتوليه أحكام الناس الشرعية فانه أكثر شعراء اليمن انغماسا في الغزل والهوى • وقد فلسف الحب في شعره ودعا الى الانخراط فيه بل ذهب الى أنه من الحمق مغالبة الهوى ومخالفته • يقول مخاطبا العشاق:

فيامعشر العشاق مهلا عن الإبا فليس لكم في قتل أنفسكم عذر

ولا تطمعوا في الصبر من بعد هذه　　　فأول قتلى هذه الوقعة الصبر
أرحني أرحني يا عذول فمسمعي　　　به عن مقالات ترددها وقر
عن الحزن تنهاني وتأمر بالعزا　　　قتلت أما هذا وفاء وذا عذر
وهل أنا بدع ان سهرت لنائم　　　وواصلت جاف حظ زائره الهجر
فقد خضعت قبلي الخلائق للهوى　　　خضوعا شكته الخنزوانة والكبر
وما الحمق الا أن تغالب غادة　　　ويرضيك أن يعطيك مقودها القبر

ومن مبالغاته في هذا الصدد :

وقال يعيش بعدي وهو يدري　　　بأن عليه في بقياه عارا
فقلت وأي يوم غاب عني　　　فعشت ولم أمت فيه مرارا
فها أنا ميت لولا عيوني　　　تدور لكنت أول من بوارى
وقالوا خذ بنفسك في هواها　　　رويدا فالسقام عليك جارا
ولولا فرط سقمي لم يكن لي　　　غدا وجه يقابله جهارا
حملت السقم أوله اضطرارا　　　واكراها وآخره اختيارا
وقد يخشى الفتى شيئا فيضحي　　　له ما خاف مما خاف جارا
سلوها هل بجفنيه منام　　　يجود به علي ولو غرارا
فاني لو ظفرت ببعض نوم　　　لخطت عليه أجفاني القصارا
وأين طريق نومي من دموعي　　　أيسبح أم يخوض بها بحارا

وربما سلكت مبالغاته الغرامية طريقة نواسية كقوله في قصيدة :

وجسم محاه السقم لولا قميصه　　　بدا شبحا كالظل كاد يزول

وكان ابن المقري مدرسة مستقلة في الغزل سلكت طريقا جديدا لم يسلكه أحد قبله من شعراء اليمن وفيها من الاصالة ماتجعله يقارع أكابر شعراء العربية من المتأخرين • وربما نعود الى شيء من هذا عند حديثنا عن ابن المقري •

أما ابن فليته فان مفهوم الحب عنده يرتبط ببقاء المحب على اخلاصه لحبيبه في جميع الحالات :

وليس محبا من يدوم وداده		على الوصل لكن من يدوم على الصدا

وابن هنيمل يربط الحب بالهوى والشهوة فيقول : لولا الشهوة لم يخدم الرجال النساء :

للهوى عزة ولولاه والشهوة		لم تخدم الرجال النساء
فتعجب من ذلة السيف للسيف		ومن خيفة الاسود الظباء

وعند البرعي أن الحب ليس الا لوعة وصبابة :

وما الحب الا لوعة وصبابة		ومهجور يحن لهاجر

ويشرح رأيه في هذا فيقول :

ولو كان الهوى العذري عدلا		لحمل كل قلب ما أطاقا

ولشعراء الغزل آراء كثيرة حول الحب فكأنهم حولوا الشعر من دائرة التكرار والجمود الى دائرة الحركة والحيوية فهنا عواطف صادقة تحس فيها معاناة الشاعر وصدقه .

وتبقى هذه الاساليب التقليدية في شعر الحب ، وهي كثيرة يزخر بها أدب الشعراء في العصر الرسولي فلا يمكننا تجاوزه الا بالبحث في جوانبها . فمن هذه الاساليب حديث الشعراء عن زورة الحبيب في خلسة الليل ، وكان أبرز من صور هذا الجانب من شعراء العصر الاديب ابن هتيمل . يقول :

ومختف في ظلام الليل نم به		تنفس الريح والخلخال والعبق
وافى ليحدث بي عهدا وأحدثه		وصاحبي في خلال الركب مرتفق
فقمت والخوف يدنيه ويبعده		أضمه بين أحشائي واعتنق

فقد أبدع الشاعر في وصف تلك الزيارة المختلسة من الرقيب . وأنت تحس بروعة التصوير في ذلك التردد من قبل الحبيب في قول الشاعر : (فقمت والخوف يدنيه ويبعده) .

ثم تتحول تلك الزيارة المختلسة عند ابن هتيمل الى غرام مفرط :

طرقت (نوار) وللظلام بقية ... نصف الظلام وللصباح شواهد
وتجلببت ورق الشباب فذائب ... للحسن في ورق الشباب وجامد
بتنا وطوق (المالكية) ساعدي ... تلوي ذوائبها وطوقي ساعد
أفرشتها جسدي فبات مضاجعي ... قمر عليه من النجوم قلائد
حتى اذا نصل الدجى وتعللت ... جزعا وهب من الهجود الهاجد
قامت تغالطني الكلام فطائش ... لا يستقيم من الكلام وقاصد

انها زيارة متأخرة جعلت الحبيب يفر مذعورا تحت ضوء الصباح فلا يلوي على شيء الا الهروب • ويطنب ابن المقري في وصف تلك الزيارة ويقول : (لم ينهها الا طلوع النهار) •

لله ليلة هب نحوي زائرا ... يدعوه نحوي ما اليه دعاني
فرعا يجر إليّ أذيال الدجى ... كالغصن مضطربا من الخفقان
(فاذا قنا) طعم الحياة لقاؤه ... فأدار خمرة ريقه وسقاني
فازددت من ظمئي اليه كأنما ... بالري أعطشني الذي أرواني
وافى به نحو الدجى فاستله ... مني ومنه الصبح رأي عيان

وتنتهي هذه الزيارة بالوداع والبكاء :

عهدي به عند الوداع كأنما ... في خده انتثرت عقود جمان
خجلا يعاود لي فواتر طرفه ... واليه ألسُنُ حالتي تنعاني
والصبح يطلع راسه بين الدجى ... وكأنه نار خلال دخان
والورق فوق الايك تصدح والضيا ... في الافق يمشي مشية السكران
والليل قد ركب النهار قفاؤه ... والنجم يكسر طرفه وبداني
فمضى وألبسني السقام وانما ... من كلما أحببته أغراني

وتنتهي الزيارة بانتهاء الليل وطلوع النهار •

وفي شعر ابن المقري كثير من الاساليب الفنية المتبعة عند الشعراء في ذلك الوقت سنعود الى ذكرها في ترجمته •

وقد احتفظ الغزل بسماته التقليدية عند شعراء العربية ولم ينحدر الى هاوية الشذوذ والمجون كما عهدناه عند جيل المولدين من شعراء العصر العباسي والعصور المتأخرة والشام • ولكن الشاعر اليمني الوحيد الذي خرج عن حدود الادب والاخلاق في شعره هو الاديب أحمد بن محمد فلبته الذي نجد له قطعاً ماجنة في الغزل بالمذكر والاستهتار بالاخلاق بل أنه لايتحاشى في شعره عن ذكر الاتصال الجنسي الشاذ • وهذا الشاعر نسيج وحده في الادب اليمني وهو صاحب ثقافة تأثر فيها بالادباء المعاصرين له من أهل مصر والاتراك الذين قدموا مع الدولة الرسولية •

وفي شعر الرثاء امتزجت العواطف بالاحساس الشعري الرقيق ولم نعدم الصنعة الفنية فيه • وربما اختفى طابع التكسب من هذا الشعر ، ووجدنا جماعة منأدباء اليمن يرثون أقاربهم لا بدافع الكسب والتجارة وانما بدافع الاحساس بالالم والمعاناة • وفي الادب اليمني جماعة من أولئك الادباء الذين رثوا زوجاتهم ووجدنا في هذا العصر من رثا ابنته وأخاه • في حين تمثل في شعر الرثاء الرسمى ــ وأعني به رثاء أعيان الدولة ــ وحدة الموضوع وتكامل الصنعة • وكان أشهر من بكى الاموات في اليمن الشاعر عبد الرحيم البرعي ، وقد أهّله لذلك طبيعة وجدانية رقيقة • وشعره في هذا مما تسير به الركبان • وقد بلغت به الصنعة في هذا الفن درجة يخلط فيها بين الرثاء والمديح فلا تكاد تفصل أحدهما عن الآخر • انظر اليه يصف ضريح أحد الأموات الذين رثاهم :

ألوذ بالمشهد المحروس منتصرا	كأنني منه في ركن وملتزم
حيث الجلالة مضروب سرادقها	والنور مبتسم يجلو دجى الظلم
لله ذا الطود المنيف ذراً	ذا العالم ابن العالم العلم

فهذا مديح خالص لا رثاء كما أردنا • ولو أنه يرثي أشخاصا ماتوا لقلنا إنه يمدحهم •

وهذا الشاعر ابن هتيمل يرثي زوجته بحرقة وألم ونسمعه يقول :

بنفسي عصر يوم السبت نعش تداوله المناكب والرقاب
تسل الى الحفيرة منه شمس تبلج في جوانبها شهاب

وتنتهي مراسيم الجنازة ويبقى قبرها ماثلا أمامه فيجدد في نفسه الحزن والالم:

يجدد قبرك المعهود حزني مطاولة ومنزلك الخراب
وعز علي أن أمسي وبيني وبينك من سوى الدنيا حجاب
أحيي بالسلام فلا أحبا وأعلن بالكلام فلا أجاب

ثم يشتط الخيال بالشاعر فيتخيل زوجته وقد أكل البلى جمال وجهها وتخللها التراب من كل صوب وهي التي كان يؤلمها مسيس الثوب :

وأسمح للبلى بجمال وجهه يؤثر في محاسنه النقاب
فما فعل الثرى ويد الليالي بجسم كان تولمه الثياب

ويعود الى هذه الخاطرة فيقول في مفتتح قصيدة أخرى في رثاء زوجته :

على مثل من ودعته ووسادة على المضجع الارضي كف ومعصم

ثم يصور أيام الوحدة ويخاطب زوجته الراحلة فيقول :

أبيت على جنب الفراش كأنني ضجيعي من بعد المليحة أرقم
أتاركتي فردا بدون قرينة وما كل موجود القرينة تؤم

وفي بكائه لزوجته يكثر تمنيه الموت ويعتبر تأخر موته من سوء حظه :

فمن لي أني في مكانك أرمل وأنك مني في مكاني أيّم
ومن ضعف حظي أنني متأخر فيا بردها لو أنني متقدم

ويقول في قصيدة اخرى :

ولو أني قتلت عليك نفسي لكان خطاي في الفعل الصواب

وهذه النغمة تتردد في أكثر مراثيه فيقول في رثاء الفقيه علي بن حسين البجلي:

فما أنا في طيب الحياة براغـب ولا أنا عن حـب الممات بـزاهد

وكان ابن المقري قد رثا ابنته زينب فقال :

تولت فما من مطمع في لقائهـا أمني به الباكـين يوم انتوائهـا

ويذكر من محاسنها محافظتها على الحجاب وعدم تبرجها وخروجها من البيت:

ولا برزت مـن خـدرها لتنـزه ولا راودت جاراتها من خبائهـا
ولا امتدت الايدي اليها مشيـرة ولا قيـل هذي زينب في نسائها
ولو لم أنـوه باسمها بعد موتها لكان خفيـا مثلـه في بقائهـا
لقد كنت أخفي في الحجاب من السها على مقلة والشمس حال استوائها

ويلقي نظرة على أولادها الذين تركتهم وراءها فيقول :

وخلفت أولادا كزغب من القطـا تدافعهـم بالكـره أيدي إمائهـا
لقد ضاع طفل غاب عن عين أمـه وان خلفنها غـيرها في اعتنائهـا

وكما رثى الشعراء أقاربهم وذويهم نجدهم قد رثوا الشيوخ والعلماء وهذا الشاعر ابن المقري يصور حسرة الطلبة على فقيدهم العلامة النحوي عبد اللطيف ابن أبي بكر الشرجي فيقول على لسانهم :

يا شيخنا في كـل علـم اننـا مثل التلامـذة اليتامى في وصـب
الضائعـون اليـوم والباكون من أخـذ لشخصك مغتصـب

ويعدد مناقبه فيقول :

العالمُ الوضاح والبحر العبـاب الزاخر الامواج والغدق الصبـب
والفذ في العلماء والفضـلاء فـي تصـوير مسـألة بلفظ أو كتب
الناسك الأواب والوهـاب والرّ غاب في بذل الرغائـب والقـرب

ويرثي الشاعر محمد بن حمير الفقيه محمد بن حسين البجلي بقصائد كثيرة منها هذه القصيدة الرائعة :

لله آيــــة ســــؤدد وجــــلال — حملوه من فوق الســرير العالــي
ماذا تــداولت الرقــاب عشيــة — من بدر أنديــة وبحــر نــــوال
كتب الجمال كل دهــــر عاطل — فاليوم عطــل كــل دهــر حالي
من للعظايم ان فقــدت تزبلهــا — عن حالهــا ويفــك كل عقـــال
من صاحب الوجه الجسيم وصاحب الـ — جــاه الجسيــم وكعبة النــزال
يا بن الحســين لكم أجبت قبيلها — صوتي وكم أصغيت عند مقالــى
كانت بك الاوقات وهــي منيرة — فاليــوم أيــام الغــوير ليالــي
فقدت (سهام) سهولها ونجودها — بك ذروتــي جبل مــن الاجبال
كان اللهيــف الى ظلالك يلتجــي — فاليوم قد أضحــى بغــير ظلال
قد كنت بــرا للجميع ووالــدا — للشيــب والشــبان والاطفــال
فاليــوم ضاع السرب بعد وفاته — سلفــت وبــت الحبل بعد وصال
لا الاثل في شطي (سهام) بمعشب — والمــاء حتــى المــاء غــير زلال
والارض غير الارض والدنيــا سوى — ما كنت أعهــد في الزمان الخالي
كنت الهــلال لغــورها ولنجدها — فاليــوم مغــربها بغــير هــلال
طود تصدع من (بجبلة) بعدما — قد شاد أي معالــم ومعـــالي
ان يحملوك الى الضــريح فطالما — قد كنت عنــهم حامل الاثقـــال

الى آخر قصيدة ابن حمير في هذا الموضوع .

وامتزج رثاء الشعراء للملوك بنوع آخر من الابتكار والجودة في النظم حيث تدخلت فيه عدة عوامل مادية ومعنوية لامجال لذكرها هنا . وكان ابــن هتيمل واحداً من أولئك الشعراء الذين أجادوا في رثاء الملوك والامراء وهو أقدم من صور الاغتيالات في شعره . كقوله في رثاء الامير محمد بن قاسم الذروي الذى مات قتيلا وكان قد قتله شخص يسمى (ابن عاطف) :

اذا استعرضته من حالتيه أجلت الفكر في العجب العجاب
ترى البازي والاسد العفرنى صريعا بابن آوى والغراب
وكم قد بب دا ظفر وناب بسائمة بلا ظفر وناب
تفرد بالقرود بني (قصي) وأفنى بالكلاب بني (كلاب)
(كوحش) أو (كنسمر) أو كأشقى (مراد) وعاطف ابن أبي التباب

ويجيل نظره الى تلك النوادب فيراها مما تزيد في شجوه :

ومما زاد في غمي وشجوي وفي كمدي وحزني واكتئاب
نوادب من نوائح ذكرتني بزينب أو (سكينة) أو (رباب)

ومن رثاء الشعراء للملوك قول الشاعر ابن المقري في قصيدة يرثي فيها الملك الناصر عبد الله بن أحمد بن اسماعيل الرسولي أولها :

ما لي أرى الغاب عن وجه الهزبر خلا وما لبدر الدجى عن برجه أفلا

ثم يصل الى بيت القصيد ويصور الفاجعة بموت الفقيد:

ما كان أفجعه خطبا وأفظعه سلبا وأسرعه في أمه خللا

ثم أنه يتقمص شخصية المرثي ويقول على لسان معزيه:

أموت ببنكم وحدي وما أحد منكم يموت معي حزنا ولا وجلا
أين المفدون لي حيا أما رجل منهم اذا قال قولا بالفدا فعلا
لا هم فدوني ولافي الموت شاركني منهم صديق ولا في حفرتي دخلا

فيجيب الشاعر عن استفساره ذلك بأن موت النفوس حزنا عليه أمر هين لولا خشية الشارع الحكيم •

ولو أجبنا لقلنا قتل أنفسنا عليك هين ولكنا نسي عملا

ويفلسف ابن المقري في رثائه مسألة الموت والحياة فيقول إن الموت يروعنا أول قدومه ثم مانلبث أن نستسلم له :

يروعنـا الموت عظما عند هجمته ونـنكر الامر حينـا ثم نعتـرف
كالشـاء قد روعت سربا فثاب لها رعبـا وألهاه عنها الروضة الانف
والدهر ما زال يبكينـا ويضحكنا بصرفه وعلى هـذا مضى السلف

وهاهم الناس قد أقاموا طيلة أوقاتهم في مأتم لهذا الموت :

راجع سلوك تسـلى الناس قاطبة فقد أقاموا على الاحزان واعتكفوا
فلا ترى غير ذي قلب بـه حـرق وغير دي مقلـة انسـانها يكـف

واذا تجاوزنا هذا النوع من الشعر سنجد فن الوصـف قد زاحم سائر الفنون الشعرية ودخل في اتجاهاته واشتهر من شعراء الوصف في ذلك الوقـت الاديب عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني والاديب ابن هتيمل الذي كان كثيرا مايصف المعارك ويصف أبطالها فمن ذلك وصفه لبعض الابطال يقول :

بكل سميـدع يضحي خضـابا بأنمـله النجيـع عن اليـرنا(١)
اذا عقـد الحيـا أبصرت أنسـا وان شهدوا الوغى أبصـرت جنا

ويصف ابن المقري معركة فيقول :

اذا ما غزا في موكب سار قبلـه من النصر والفتح المبـين مواكب
وحفت به تحت العجاج كتائـب أسـنتها فيـه نجـوم تواقـب
قد اطـردت أرسـانها وتنافست كما اطردت في السمهري الانابب
تراها جبـالا من حـديد وراءه تدافع ممـا ضقن عنها السباسب
تظل عواليهـا تظـل كأنـهـا اذا ذبن من حر الهجير الذوائب
وان حفظت في مشرع الطعن أرجيت عليهم من النقـع المثـار مضارب

---

(١) اليرنا · الحنا

وضلت تعادي الخيل فيه كأنهـا كواسر عقبان لوكـر طوالـب
هنالك لا روح تصان عن الردى ولا دم الا في فـم السيف ساكب
ولا نحر الا فيـه بالرمح طاعـن ولا رأس الا فيـه بالسيف ضارب

وكما وصفوا المعركة والابطال نجدهم قد وصفوا الهزيمة .. فابن هتيمل لايصور المنهزمين الا في صور الفارين من الموت :

حفـوا بسيدهم فلما أيقنـوا بالموت طـاروا عنـه كل مطـار
صبوا السـياط على قوارح خيلهم هـربا مـن المهـرات والامهـار
فكأنهم شـهب البـزاة تبلبلت بالغيث فانقضـت الـى الاوكار

ومن الشعراء من مال بشعره الى وصف الرياض والحدائق والقصور وكان ابن فليته واحداً من أولئك الادباء الذين برعوا في هذا الجانب فقال في وصـف بركة مـاء :

الزهـر يبسـم عن ثغـر بتبديد والطـير يطبع آصناف الاغاريـد
وللنسيـم على الاشـجار نحنحة فكل غصن عليها مايـس الجيـد
وللجداول بـين الروض رقرقـة والماء ما بين تخدير وتصعيـد
في بركة لعبـت أيدي الرياح بها حتى غدت بين تسليس وتجعيـد
دارت تماثيـل طير في جوانبهـا تسـج ماء ولم تنطـق بتغريـد
كالبحـر أضحت عليه الطير واقعة تبـدد الـدر فيـه أي تبـديد
وجاذب القصـب الاوتار اذ نطقت فأطربـا بـين ترجيـع وترديـد
وكان أعجب من هـذا وذلك في صوت الطبول مع الناقوس والعود
فكل نفس بحمد الله مـن طـرب ترتاح ما بـين مسموع ومشهود

ويصف ابن المقري احدى النزه فيدقق في وصف ما فيها من أثمار ومباهج:

ونحن في روضة يجري النسيم بها فيلبس الماء درعا ضـيق الحلـق
تحكي الغصون بها الاحباب ناحلة ما بين مغتـرف منهـا ومغتبـق

والورد فيها خدود ضرمت خجلا والنرجس الغض كالاجفان في الحدق
وللرياحين والازهـار اذ نشـرت لون الزبرجـد والياقوت والورق
راقت ورق جلابيب النسيم بهـا لما بدا الغيـم في أبراده الصفق
وغـردت خطبـاء الطـير ساجعة على الغصون بلحن مطـرب أنق
فالطير تشدو لتصفق الغدير لها والدوح برقص رفص النائه الملق
والكاس تلثم ثغرا عن لآلئهـا عجبـا وتلبس جلبابا من الشفق

وصفوا القصور فقال ابن عبد المجيد يصف قصر (المعقلي) :

تلك الجنان أما ترى أنهـارها قد أعربت بالطيب عـن ثمراتهـا
تحلـى زواهرها ويشـرق زهرها فكأنهـا الاقمـار في هالاتهـا
مثـل المجرة في انتظام قصورها أيـن المجـرة من سـنا زهراتها
برزت بها الاغصـان شبه عرائس نظمت عقـود الدر في لباتهـا
في كل عود من سواجع طـيرها عود يريك اللحـن من نغماتهـا

ويقول اشاعر عبد الله بن جعفر يصف نفس القصر السابق الذكر :

هل في الخلافة آيـات تشاهدها وقوف سـقف ولا شيء به دعما
وابصر التبـر مبذولا لطـالبه فنال مـن دونه ذوباً به رقمـا
بين الحدائق والاعناب قد نشرت منهـا ثياب تلف الوهد والاكما
كأنمـا عـاد غمـدان كمبـدئه وأظهر الله مـن أسـتاره إرمـا
كأن أربعـة الجـوزا رواشـنه و (الجركتان) كأن الفرقدين هما
بين الشبيهين (شاذرمان) قبلته همـا الجناحان وهو القصر بينهما
تظل منـه صفوف المـاء ساجدة مؤديات لسـلطان الورى خـدما
الى سواقي رخام فوق (فسقية) فاعجب لجامد ماء فيه ذائب مـا

وأنت تجد في هذه القصيدة مدى تأثير الكلمات الحضارية على أدباء اليمن في ذلك الوقت وقد جاءتهم مع دخول الدولة الايوبية . فنحن هنا نجد أسماء

أعجمية غريبة على الشعر اليمني كلفظة (رواشن) جمع روشن وهي كلمةفارسية معناها الكوة • ولفظة (جركتان) لم أقف لها على معنى • و (فسقية) ومعناها الحوض باللاتينية الى غير ذلك •

أما ابن المقري فانه يصف قصرا عجيبا بناه السلطان الناصر ويضمن فيوصفه بعض الآيات القرآنية :

(مقعد صدق لمليك مقتدر) كأنه من جنة الخلد اختصر
متسع الارجاء طاووشيها يقيد اللحظ بمنظر نضر
سامي المباني بكواكب السماء متوج وبالسحاب مؤتزر
كأن وشيَ الطرس في حيطانه رقم يذوب التبر في طرس سطر
سقف نضاري يسر من رأى على أواوين بها العين تقر
قد أبرز « الابريز » من مرقومه في طرزها محاسن لا تستتر
وبركة تقابلت عقودها عرائسا مجلوة للمبتكر
تظلها قبة تبر زخرفت متى تجل في وشيها الطرف أسر
مترعة ماء يظل ينطوي فيها على حكم الهوى وينتشر
وكلما مر النسيم فوقها فاضت على الطرق بماء منهمر
بين رياض يشكر الصاحي بها ظل مدير وهواء مستمر
سخونة الجو وبرد ظلها كسى النسيم لذة لا تنحصر
تنتشر الروح اذا جرى الصبا فيها عشيا فضل ذيله العطر
حدائق خضر الربا أنهارها من تحتها تجري بماء منهمر
دانية قطوفها للمجتني طائعة أغصانها للمهتصر
بديعة أوصافها رحيبة أكنافها نعم مقر المستقر
قد صاحت الورق على أغصانها يا معشر العشاق هل من مدكر
هذي غصون كالقدود تجتلى و (جلنار) كالخدود يستعر
ونرجس مفتح جفونه محدق عيونه كالمنتظر

فنحن أمام وصف كامل جمع بين وصف الرياض والقصور ، قد صحبنا الشاعر في أول القصيدة الى داخل القصر ووصف حيطانه وسقوفه ثم خرج بنا الى الحديقة ووقف وقفة متأنية عند « بركة » القصر ووصف ماحولها من عجائب كتلك القبة التي وضعت فوقها وزخرفت بنقوش هندسية جميلة وهذا الماء الذي يتحرك بتحرك النسيم ، وأخيرا ألقى نظرة على الحديقة وما فيها من جو عليل وورود وأزهار متنوعة .

ومن الشعراء من مال في شعره الى وصف الخمر ويعتبر الاديب ابن فلبته شاعر الخمره في الادب اليمني خلال عصر بني رسول ومع ذلك فاننا نجد لابن هتيمل مقطوعات شعرية جيدة في وصف الخمر سنذكرها في ترجمته .

ودخل في الشعر اليمني في ذلك الوقت اتجاهات أدبية جديدة استحدثوها قبه من الشعر المعاصر لهم في مصر والشام . وكان من أهمها شعر « الموشح » الذي دخل الى اليمن عن طريق مصر وليس عن الاندلس كما يظن البعض . فقد نشط في مصر خلال ذلك الوقت شعر الموشحات وبرع فيه من أدبائها جماعة نذكر منهم الاديب ابن سناء الملك صاحب « دار الطراز » وهو أول مصنف وضع في أصول هذا الفن . وفي هذا الصدد يقول الاديب محمد كامل حسين إن « المصريين هم أول من صنف في فن الموشحات بالرغم انه فن دخيل عليهم[1] » . والاصل في الموشح الاندلسي انه كلام منظوم على وزن مخصوص يتألف في الاكثر من ستة أقفال وخمسة أبيات تتردد في الموشح ويقال له الموشح التام وفي الاقل من خمسة أقفال وخمسة أبيات ويقال له « الاقرع » ، أما في الموشح المصري فانهم لم يتقيدوا بهذا العدد أو ذاك والتام يبتدىء بأقفاله والاقرع يبتدىء بأبياته أما الاقفال فهي أجزاء مؤلفة يجب أن يكون كل قفل منها متفقا مع بقيتها في وزنها وقوافيها وعدد أجزائها والابيات أجزاء مفردة أو مركبة يلزم في كل بيت منها أن يكون متفقا مع بقية أبيات الموشح في وزنها وعدد أجزائها لا في قوافيها بل

(١) محمد كامل حسين . دراسات في الشعر في عصر الايوبيين ص ١١٤

يحسن أن تكون قوافيها في كل بيت منها مخالفة لقوافي البيت الآخر وأقل ما يتركب القفل من جزئين الى ثمانية أجزاء والبيت ثلاثة أجزاء •

ومن أمثلة الموشح عند المصريين هذا الموشح التام لابن سناء الملك :

أهوى قمر　　أحوى أغر　　حلو الرضاب　　ألمى
وعاذلي　　لما نهى　　عن التصابي　　أعمى
البس ضناك جهرا　　واكتم هواك سرا
واذر الدموع نبرا　　وارم العذول برا ؛ الخ

وكانت صلة اليمنيين بالمصريين قوية في ذلك الوقت فلا غرابة اذا استحدثوا عنهم « فن الموشح » وكان مؤسس هذا الفن في الادب اليمني هو الاديب أحمد ابن محمد بن فليته وقد وصف المؤرخ الخزرجي ديوانه بأنه اشتمل على عدة أنماط من الشعر كالموشح والساحلي والدوبيت والبالبال والحمني ، ومن حسن الحظ أن ديوانه الحميني قد وجد أخيرا عند أحد الادباء وهو غير ديوانه الفصيح المحفوظ بمكتبة الجامع بصنعاء •

ودخل الشعر الملحون المعروف في اليمن بالحميني سائر فنون الشعر وان كان تميز على وجه الخصوص بشعر الموشحات والمسمطات فان ذلك كان لاستعماله في الغناء والموسيقى وأقدم قصيدة ملحونة غناها المطربون في اليمن كانت للشاعر ابن فليته صاحب هذا النمط من الشعر وهي التي أولها :

لي في ربى حاجر غزيل　　أغيد ساجي الرنا[1]

وحسب قول المؤرخ يحيى بن الحسين أن أول من قال الشعر الحميني في اليمن هو الاديب ابن فليته والمزاح[2] • وهذا أقرب الى الواقع لان هذا الفن من الشعر لم يعرف إلا في العصر الرسولي وهما من أدباء هذا العصر •

(١) من مقال للاستاذ عبد الله البردوني في مجلة الغد•

(٢) يحيى بن الحسين غاية الاماني ص ٥٧٢

ومع ذلك فان شعر العامة لم يكن حكرا على فئة من المتأدبين بل زاحمهم في ذلك شعراء الصوفية وكان الصوفي محمد بن عمر النهاري يقول شعرا ملحونا من ذلك قوله :

سمعت الناس في رنه ... يقولوا باكر العيدي
وعيد الناس دنياهم ... وعيدي أنت يا سيدي

وهذا الشعر وغيره يسمه الشرجي بالكلام المسجوع[٣] . أما الشعر الهزلي فهو نوع آخر من الفنون العربية التي عرفها الادب اليمني في عصر بني رسول وشهر فيه خلال ذلك الوقت الاديب أحمد بن محمد بن سالم بن الامام الذي خصص حياته لاضحاك الناس بشعره وسلوكه حتى عرف اسمه بين الناس بالمجن ومن شعره الهزلي قصيدة في هجاء فأر كان قد أتى على كتبه :

مديح الفار خير من هجاه ... رجا شيئا فأدرك ما رجاه
وأعطي ما أراد وما تمنى ... وأحظى الخلق من يعطى مناه
بدار الشيخ أسعد حيث كانت ... اكيتبتي وقد عظموا وتاهوا
وقالوا قط ليس لنا مغد ... من المحراب فهو لنا بناه
اذا ما الهر وافى فرد يوم ... أغاروا كلهم وجروا وراه
وأطبق وهو في وجل عظيم ... وولى ولم يلفت وأعطاهم قفاه
وجيش لو استقام لهم فأبلى ... لطاح وأطعموه اذا أذاه

وبلغ الامر بأدباء العصر الرسولي أن يسخروا حتى من أنفسهم فهذا الاديب محمد بن حمير ينظم قصيدة في هجاء نفسه ويبعثها الى الملك المنصور بعد أن أصدر أمره بأخذ خيول العرب بما فيها خيل ابن حمير فقال :

مولاي نور الدين لا ... لاقيت صرف النشوب
وعشت ألفي سنة ... في خفض عيش خصب

(١) الشرجي طبقات الخواص ص

سمعت منكم خبرا — أطلت فيه عجبي
ان كان من قصدكم — أخذ خيول العرب
فانني من ساعتي — أخلع منهم نسبي
أكون زنجيا ولا — أدخل في ذا النسب
وما اختلاطي بهم — هذا أشد التعب
والمرء معذور اذا — جانب أهل الريب
لان عندي فرسا — من خيل أهل الادب
أبغي التسحاذات به — لبس لطعن السرب
ولا لحمل الدرع لا — بل للعصى والجرب
أحسكته في (صفر) — ومرة في (رجب)
ولم أزل أوعده — بكل وعد كذب
لجامه من سلب — وسرجه من خشب
ولو تراني فوقه — كمثل جعس الكنب
فتارة بعثر بي — وتارة يربض بي
وتارة أضربه — وتارة بضرب بي
وليس عندي عيره — والله من مرتكب
لا ابلي لا بقري — لا فضتي لا ذهب
ولا كرا عندي ولا — رمحي طويل العذب
لست « ابن كلثوم » ولا — « عمرو بن معد يكرب »
ان أنا إلا شاعر — أطلب فضل العرب
كالطير يسترزق من — خيول أهل الحرب
كالفار بمسي ليلة — حول رغيف ثلب
لا تخلطوني بهم — فقد عرفتم نسبي
ان آدم جدهم — فان ابليس أبي

يكفك عن ذا فرسي	كل جواد سلهب
وكل جردا أعطل	وكل ظرف مغرب
كتائب معقوده	مثل الخضم اللجب
ما جبه من حشف	بين سلال الرطب
ومن رأى الرأس فلا	يرضى بأخذ الذنب
بالله محفوظ أنا	والمدح مذ كنت صبي

انظر الى هذه السخرية التي بلغت بالادب حتى أنه تجرد من نسبه بل ومن آدمينه ليحظى بفرسه . وهذه غاية السخرية فهو لم يكتف بأن سخر من نفسه بل صور خيله ذلك التصور المضحك وانه ليس لحمل سلاح أو درع وانما يسعى به للتسول عند الناس وانه يعلفه في صفر وتارة في رجب ولايزال يوعده بوعود كذب وتارة يعثر وتارة يربض به الى آخر شعر ابن حمير الهزلي •

ويكثر في شعر الادباء في ذلك الوقت استعمال الحوار والقصص وكان أشهر من برز في هذا النوع من الادب الشاعر ابن المقري الذي يقدم لنا فيشعره قصصاً طريفة من ذلك قوله :

أتاها رسولي فاسمعوا ما جرى له	لقد رابني لما سمعت مقاله
رأته فقالت أنت من بعض رسله	فقال نعم قالت فصف لي حاله
فقال كئيب القلب قالت فجسمه	فقال نحيل من رآه رثا له
فقالت وزدني قال أما نهاره	فيبكي وأما ليله لا كرى له
فلما وعت ما قال قالت قتلته	وان دام هذا راح لا لي ولا له
ووالله ما فارقته عن ملالة	ومن ذاك يمناه تمل شماله
ولكن وشاة كثروا في حديثهم	فبعدا لقوم أحرموني وصاله

فنحن أمام قصة متكاملة الاحداث تبتدي بوصول رسول الشاعر الى صاحبته واستفسارها عن حاله ثم تنتهي بأمر الوشاة وعيب الحبيبة لهم •

وبحدثنا البرعي عن فراقه للحبيب فبصور دلك في قصة حوارية يقول فيها:

بأبــي مودعة تخافــت صــوتها — خوف الرقيــب وعينهــا تتمــالا
سارقتها طــرف الحديث وربمــا — التفتت يمينــا والنفــتُ شــمالا
قالــت تفارقني فقلــت لها نعــم — قالــت فتنســانا فقلــت لهــا لا
قالت فأيــن تــربد قلــت مــن — لم يخش زائــر ســوحه اهمالا

وهذه قصة أخرى تجدها في شعر البرعي :

لله موقفنــا بمنعــــرج اللــوى — في الشعب من دون الفريق المنجد
جاذبتهــا طرف العتاب فأعرضت — عني وقالــت ما أراك بمســعدي
فطففت أثنــي عطفهــا متغــزلا — بالأبرقــين وبالعذيــب وتمهــد
وطمعــت منها بالحديث وقلت هل — من شربة يا أهــل هذا المــورد
فأت بــه مــن جيبهــا وكأنهــا — شمس •• تمــد بكوكب متوقد
فسرقــت من حسن المليحة لمحــة — قطعت عــرى كبدي بغير مهنــد

تلك قصة طريفة يطلب فيها الشاعر الماء لالظمأ ولكن ليرى صاحبته• ويكثر مثل هذا القصص في قصائد الشعراء وربما عرفها الشعر العامي بشكل أوسع كما هو الحال عند الخفنجي في قصيدته (تفرطه ببيت البسبيس)[1] •

(١) انظر بحثنا في مجلة الثقافه الجديدة سنه ١٩٧١ •

شعراء العصر الرّسولي

حظي الشعر في عصر بني رسول بمكانة عالية فلا غرابة اذا كثر الشعراء في ذالك العصر وأصبح بنعاطاه جماعة من فئات الادباء على مختلف مستوياتهم الاجتماعية والعلمية ولم يكن محصورا على الادباء المحترفين فقد قال الشعر من طبقة الفرسان وشيوخ القبائل الشيخ علوان الجحدري والامير ادريس بن علي وغيرهما . ومن طبقة الفقهاء والعلماء الشاعر عبد الله بن جعفر وابن المقري وشعراء آخرون ليسوا أصلا من أصحاب حرفة الادب وانما جرهم الى قوله مواهبهم الفطرية وميولهم الى هذا النوع من الفن حتى أصبح الشعر يتردد على ألسنة الملوك من سلاطين الدولة الرسولية وهذا الملك المجاهد ينظم شعرا جيدا في الفخر يقول فيه :

نلت أنا بالعز أطراف القنا　ليس بالفخر المعالي تجتنى　نحن بالسيف ملكنا اليمنا
كل فخر يدعي الناس لنا　أعرق العالم بالملك أنا
أنا شبل الملك زين الكتب　يوسف جدي وداود أبي　والشهيد القرمزاكي الحسب
وعلى القبل عالي المنصب　جدنا بعد رسول جدنا
ان تكن أضحت علاهم خبرا　فالعلا مني بالعين يرى　أنا كالليث اذا مازأرا
أنا كالبحر اذا ما زخرا　المنايا في يميني والمنا
ابذل المال فلا أجمعه　كل عاف نحونا منجعه　واذا القرن طغى أصرعه
واذا ولى فلا أتبعه　واذا لاذ بعفوي أمنا
شيم تشبه تلك الشيما　يسن لي من جدودي القدما　ثم ملك الشام من ماء السما
يعشرون الناس طرا أرغما　من هنا أو من هنا أو من هنا

ويقول الخزرجي ان للملك المجاهد ديوان شعر ..

والآن مع شعراء العصر الرسولي على أننا سنرجيء الحديث عن كبار الشعراء في فصول مستقلة ستأتي فيما بعد •

ابن العليف

من شعراء الطبقة الاولى عاصر ابن حمير وجرت بينهما منافسة كبيرة وكان من الشعراء الرحل الذين يقصدون الملوك والرؤساء بالمدائح وقد لقي عناية كبيرة عند بنى معيبد رؤساء الأشاعر بوادي « رمع » فأكرموه بعطاياهم الجزيلة حتى حسده ابن حمير على ذلك وذهب الى ممدوحيه يغري به •

ورغم ان ابن العليف انما هجاهم في معرض المدح ثم استأذنهم في هجوه فقال قصيدة طويلة أجاب عليها ابن العليف ونحن نوردهما هنا لنعرف نوع ذلك الهجاء المتبادل بين الادباء في ذلك الوقت • يقول ابن حمير :

غيري تغيره الفتاة العيطل ... ويشوفه الجادون حيث تحملوا
وسواي يشديه الحمام اذا شدا ... ويهيج لوعته الصبا والشمأل
أقصرت عن عي التساقي وكأن لي ... فيه الترسل والعنان المرسل
أيام ما كان الشباب غرانق ... بوصال من أهوى وسعدي مقبل
لكنني أبكي علي ومن مضى ... بالرقمتين فدمع عيني يهمل
ولقد جريت مع الصبا جري الصبا ... وسقاني الصهباء أحور أكحل
وأحق خلق بالملامة شاعر ... يلحي على البخل الرجال ويبخل
هيهات لي نفس تعز وهمة ... من دونها يدنو السماك الاعزل
أبلغ مسلم أن بلغت مسلما ... فالكلب ليس بفاعل ما يفعل
واردد عليه مروة من شعره ... فالزبل في وسط المزابل يجعل
أتلوم قوما كنت يا ضبع الفلا ... بالامس بين بيوتهم تتظلل
أغنوك اذ لم يدر كفك ما الغنى ... وسقوك اذ لا ماء قومك سلسل
ورأوك في«حوك» يساوي درهما ... فبنوك تخطوك في النسيج وترفل
وقدحت في مدح «السهيلي»الذي ... اذ باله من هام قومك أطول

وزعمت أن الجنــح أكبر جفنــة من حاتم ومــن السموءل يهــدل
لو كنت حاضرها غــداة روسهــا يا بن العليف لرض" فاك الجنــدل
وليتــك وصحبــك صــواعق مــني تحل اذا حللــت وترحــل
لكن خلوت وحشو أرضك نسوة فوقفــت بين بيــوتهم تتغــزل
واذا الاجادل غيبــت من بلــدة وقف الغراب بها يصيح ويحجــل
واذا الحمــار بأرض قوم لم يرى خيــلا بها قالوا أغــر محجــل
شــعر كجوف الطبل مافي جوفه شيء ولكــن للســامع يشــغل
والله ما أعطــوك أنــك مغلــق في الشعر لكن في المواصل توصل
وعجبــت اذ قالوا فــلان شاعر وتغامــزوا فعجبــت ألا تخجــل

فأجابه مسلم بن العليف مخاطبا الشيخ بن معيبد :

لأيــة شــيء بعــدكم أتعلّــل ومن أي وجــه نحوكم أتجمــل
وما العذر حتى لا آلام على البكا عليكــم ولا فيما أجد وأهــزل
أحاول بعد الطاعنــين تجمــلا وحسبك يوم البين من يتحمــل
فما لي والريحــين أبكــي لهــذه ومن هــذه من لوعــة أتملمــل
اذا أحببت أحببت عن أحسن العزا وتشمل جسمي رعدة حين تسمل
وتهمــل عيني بالبكا وأكفها محاذرة من أن ترى وهي تهمــل
أفي كــل يــوم انــني متغــزل أمثلي شيــخ أشيــب يتغــزل
يليــق التصابي بالشباب وانما ولا حرَج أن يعشق المتكهــل
مناقلة لا جــرأة السير إن مشــت ولا يتبطــى خطوها حــين ترفل
ألكني الى أشيــاخ يعرب كلهــا ألوكة من يألو ومــن يتمثــل
وقيــل بنان الناصح الندب أنها أجل بنــان للسمــاح تقبــل
وأهــدي له مني ســلاما كأنــه فتبت من المســك الذكي ومندل
أسركم ما قــال في ابن حمــير وان كان في أقواله لا يطــول
ومن بعض ما يرويه أني هجوتكم وذلــك مكــر ظاهــر وتحبــل

فـلا وانـى لاخبـرن سبنـه — بأنـي فبـا سـاءكم آنتصـل
وما الليث ان لم يفرس اللبن أرنبا — على الخبـر المتهـور فبا بدلل
بعيرني في لبس حـوك كسبنـه — فقـل لي لـه لا درّ درّك حنبل
وكان لباسي الروح عبسى مسوحا — عليه فما أزرى بـه وهـو مرسل
فما فضل أصحاب النبي مجانـب — بعلمك في ثوب الغنـاء مزمل
وأشياخ قحطان وأشباخ بعرب — يفض كـل فـرده ويفمـل
وما الفخر في لبس الحرير وانمـا — فخار الفـى فبما يقـول ويفعل

والقصيدة طويلة . ولولا سقم النسخة التي بحوزتي لأكثرت من نقلها . ولابن العليف قصائد شهيرة في المفاخرة بين قحطان وعدنان من أشهرها قصيدته (العلبفيـة) .

أخو كنـدة

ذكره المؤرخ محمد بن حاتم في تاريخه السبط الغالي الثمن ولم يؤرخ لحيانه أحد من المؤرخين بل لم يصرحوا حتى باسمه الكامل واكتفوا بنسبته الى قومه كنده ولاشك أنه من كبار شعراء عصره وقد مدح الملك المظفر بعدة قصائد يهنئه فيها بانتصاره على خصمه صاحب ظفار الملك سليمان الحيوظي . ومن شعره :

هو في انتقـاد البيض طب صيرف — فتنح عنـه فربمـا هو أعـرف
يرتاح مـن كل الملاح الى التي — في تغـرها بـرد برف وقرقـف
واسأله عما شئت من ألـم الهوى — يخبـرك فهـو المسهام المدنـف
ما فارق العلمـين حتـى علمـا — أجفانه كيف المدامع تذرف
أبدا ولا عنـت بعسـفان المهـا — الا وعَنّ له هـوى منعسف
ولطالما سـارت غرائـب نظمـه — وسمت فكان لها البقاع المشرف
مدح اذا رويـت أنشـاد بذكرها — عمر وشرفها المليـك الاشرف
عقل به وسمـت ومن تنكـيرها — أضحت بطيب ثنائـه تتعـرف
وبضاعة جلبت فشـتى ربحها — فيما لديه مخضـب ومعـرف

ملك بيمن قدومه نلت الرجا ... فتح وسحب الجود جود وكف
فرم تنذر في الوغى مشبوبة ... والخيل تعدو والركائب توجف
ومعود للنصر مشهور به ... راياته بدم الفوارس ترعف
وافى ولي العهد جاد عهادنا ... وأماننا من كل ما نتخوف
وافى الخليفة بعد نص نصه ... في عنفوان حياته المستخلف
برد تفصه المهد خصه ... بلباسه الملك المظفر يوسف
قل للألي زعموا بأن عنادهم ... ما كان حتى كلفوا فتكلفوا
لبعد الى المحبوب كل مكلف ... فلديه ملك بالرضا متعطف
أو فليثق ان لج في طغيانه ... بعقاب يوم ليس فيه منصف
هذا ملاذ الخائفين وهذه ... عين الحياة فمن أحب فيعرف
هذا ابن سيد يعرب ومليكها ... هذا الجواد السيد المتغطرف

الى آخر هذه القصيدة الفريدة .

ابن عقبة

الحسن علي بن عقبة الزبادي الخولاني من أهل الهجرين بحضرموت وفد الى الملك المظفر ومدحه بعدة قصائد وله منه مرتب سنوي يعتاده ثم سجن وأفرج عنه ومن قصائده الشهيرة قصيدته الفخرية التي أولها :

أصبرت نفس السوء أم لم تصبري ... بيني وما تهوين يوم المحشر
اني امرؤ عف الإزار عن الخنا ... لم أغش منذ نشأت باب المنكر
والله ما صافحت كف بغية ... كلا ولا نادمت شارب معصر
الا على كسب العلوم مخيسا ... وبكاي في طلب العلا وتحسري
ما همنى الا اقتناء مكارم ... قصر الزمان وهمتي لم تقصر
وقسمت حالاتي ثلاثاً دونها ... يكبو الهمام المضرحي السري
كرما تدين له العفاة وحالة ... ظهر الجواد وحالة للمنبر
فكفى بذا فخرا على كل امرىء ... يسعى على أثري ليدرك مفخري

الى آخر هذه القصيدة وكلها في الفخر ، وله في الحكم قصائد أخرى ذكر بعضها المؤرخ الجندي في تاريخه .

أبو حنيفة النقيب

كان هذا الشاعر من كبار أدباء العصر الرسولي إلا أن أغلب شعره ضاع ولم يبق منه إلا نتف يسيرة أوردها الجندي في معرض كلامه عن السلطان عبد الرحمن بن راشد صاحب حضرموت ويقول إن له ديوان شعر أغلبه في البال بال، من ذلك قوله في مدح السلطان المذكور :

أنا أشهد شهادة حق ... ان ابن راشد من احدى المعجزات
هيكل الملك حرز المملكة ... فارس الخيل معدوم الصفات
تعبت عيس وفاده وما ... أتعبته العطايا والهبات
أنت قولك خذوا والغير ... هاتوا وأين قول خذوا من هاتوا
ألف مولاي مني اسمع مديحي لك ... على رغم آناف النسات
بل لسان العلى والمجد انطق ... بأفعالك المستحسنات

وله قصيدة في تفضيل الشحر على عدن .

عنفوني وقالوا أطلت التغرب ... وأوحشت الوطن
وتبدلت عن صيرة صبغت ... واعتضت الاشعا من عدن
ويسمعون الصرخة تناسيت ... حقات والخان الحسن
والقصور التي تبندر منها ... الجنود التي صيغت فنن
قلت قد غاب عنكم أمر ما ... يفطنه غير أرباب الفطن
ورضيت ابن راشد عبد الر ... حمن عن كل من هو في اليمن
من حباني وأدناني وقرب ... مكاني ولي ما ظن ظن
اصطفاني وأطلعني على ... مضمون سره والعلن
ان توليت بعد الله في الخلق ... غيره أكن عابد وثن

وشعر من هذا القبيل في مدح السلطان ابن راشد .

الجحدري

علوان بن عبد الله بن سعيد الجحدري كان قبلا من أقبال اليمن وكان كريما شجاعا ملك ناحية عظيمة من شرق اليمن وهي حجر ونواحيها واستولى على حصن العروسين وحارب ملوك الدولة الايوبية عند وصولهم الى اليمن وكان السلطان نور الدين عمر بن علي الرسولي في مدته قد حط عليه عدة محاط ومن قصيدة له في التأليب على السلطان نور الدين :

من تاب عن حرب نور الدين من جزع — فانني عنه ما عمرت لم أتب

وراسل السلطان الكامل ملك مصر وسأل منه الاعانة في حرب المنصور فأعانه بأموال جمة ولم يزل المنصور يتلطف اليه ويبذل له الاموال حتى آتى به أسيرا فحبسه في حصن حب فلما صار في السجن تضرع الى الله حتى فك من سجنه واشتهر بين قومه بالكرم والشهامة . توفي سنة ٦٦٠ والشيخ علوان أحد فرسان الشعراء وفحولهم وله عدة قصائد جيدة أوردها الجندي والخزرجي في تاريخهما منها قصيدة يقول فيها :

والله لا استوطنت أرضا تربها — مسك إذا حظي بها مهضوم
وعلام أوطنها وعرضي وافر — والرزق من أفق السما مقسوم
لا آمن الايام وهي معارة — وكذا الليالي السود وهي هموم
واذا الليالي أخلفتني بالذي — فوق التراب فحسبي القيوم

ومن شعره قوله :

إذا كان قول الحق والحق قوله — بمحكمه والملك في آية الملك
معز لمن شا والمذل لمن يشا — فكيف اعتراضي قوله الحق بالشرك
ونفسك فاتركها عن الهم والاذى — فراحتك العظمى لك الله في الترك
فما الامر الا للذي صير الورى — وتسييرهم في لجة البحر والفلك
وموجدهم من غير وجدان سابق — ومفنيهمو بعد التكاثر بالهلك
ولا تشك مالاقيت من غير منصف — الى مثله لكن الى منصف تشكي

ومن شعره قصيدة بعثها الى الامير أسد الدين :

سلام على الدار التي في عراصها معاهد قوم لا بذم لهم عهد
أناخوا علينا نازلين وفيهم طوال القنا والمترفية والجرد
ليوث شرى خاضوا الرمال فذللوا مفاوزها فارتاع من خوفهم نجد
رموا مطلع الشمس احتسابا لأنفس أمانيها موت على العز أو حمد
الى أن ترى البرق اليماني لامعا بدملوة العز التي ما لها ند
فزموا له بزل الركاب على الوجى وقادوا اليه الخيل من فوقها السرد
بقودهم الملك الذي في يمينه غوارب منهن المنية والرفد
تحف به القوم الذين سيوفهم عقائق حمر لا يلائمها الغمد
رأوا موردا عذبا فلما دنوا له وقد أسرعوا فلن المقادير لا ورد
وجاش عليهم للمظفر عارض له البيض برق والطبول له رعد
همام أبى أن يسلم الملك فانبرى وحوليه أرباب الزعامة والجند
يسوقهم سوق السحاب يحثها نسيم الصبا حتى ألمّ بنا الوفد
أكارم كانوا لي عدوّاً فأصبحوا ينادون يا علوان هل ذهب الحقد
فقلت لهم في فرع تيما فأنزلوا لأمر حبا هذا السموءل والفرد
مددت لهم ظل «العروسين» دانبا بسطت به أيدي الرجاء التي مدوا
فشكراً لمن أدنى ركاب محمد اليّ وأهدى لي الفلك السعد
وأصبح أرباب المماليك حولنا وما رابني منها الوعيد ولا الوعد
ملوك دنا بعض لبعض فأصبحت كتائب عزمي وهي بينهم سد
وأسد إلى أسد تدانت فصدها على حنق ما بينها الاسد الورد
فمن لفخار العرب مثلي ومن لها كمثل مقامي في المكارم ان عدوا
فحسبي أني الحر من آل يعرب وأني لمن يأوي الى كنفي عبد

ومن شعره في آخر عمره يعاتب نفسه :

وقد كان ظني ألغي اللهو انما يكونان في عصر الشباب الغرانق

فلما أتاني الشيب وانقرض الصبا		نظــرت وذاك الغــي غير مفارق
فقال بلــى لكــن رأيتك ربمــا		تكون بإحــدى الحالتين موافقي
فقلــن له لا مرحبــا بك بعدها		وإنــك منــي طالق وابن طــالق
فقال سمعنا ما حلفــت به لنــا		وكم مثلــه قد قلتــه غير صادق
فقلت : أمن بعد الطلاق فقال لي		وأي طــلاق للنســاء الطــوالق
فقلت له لي منك جار يجيرنــي		فقال ومن دا قلت ذو العرش خالقي
فولى له منــي ضجيــج فقلت لا		تصيح وبادر نحــو كل منافــق

ابن دعاس

الفقيه سراج الدين أبو بكر بن عمر بن دعّاس من العلماء الشعراء برع في فقه المذهب الحنفي ونال مكانة عالية عند الملك المظفر وبنى مدرسة في مدينة زبيد لأتباع مذهب أبي حنيفة وكان من جلساء المظفر ومستشاريه وكان يفضله على الشاعر ابن حمير ومن الادباء في زبيد من ينسبه الى سرقة الشعر ولما دخل المظفر الى زبيد بعد رجوعه من الحج مدحه الشاعر ابن دعاس بقصيدة قال فيها :

هاك دراً منظما		لم أغر فيه على مصحف ولا ديوان

فقال المظفر نهيناك عن الدواوين فتعديت الى المصحف .. وفي آخر عمره حدث منه ادلال على السلطان المظفر فأقصاه عن مجلسه وتوفي مهجورا في زبيد سنة ٦٦٧ .

وله شعر كثير . وقد قصده الادباء بالمدائح الكثيرة فقال الشاعر ابن هتيمل في قصيدة يمدحه :

يا أبا بكر بن دعاس أنت البــدر		ضــوءاً فلــم كنيــت الســراجا
فعســاهم يعنــون ما ذكـــر		الله تعــالى ســراجه الوهاجا
أنت عــذب حلو المـــذاق		فان قوسيــت كنــت ملحاً أجاجا
قــد وردناك خضــرما فنبذنا		الدلو والعقو والرشا والعناجا

ومن شعر ابن دعاس قصيدة يمدح بها الملك المظفر ويهنئه بالملك وانتصاره على ابن عمه الامير فخر الدين :

ان غاب نور الملك عن أفق العـلا ... فانظر ضياء الشمس قد ملأ الملا
أو كان جفن الدهر أمسى أرمدا ... فاليـوم أصبح بالمظفر أكحلا
لا تجزع الدنيا لفقـد مليكهـا ... رزئت برضوي واسنعاضت تذبلا
ماكان رزء الملك إلاّ غيهبــا ... عم الورى وافاه صبـح فانجلى
بالملك عاد الكسر جبـرا وانثنى ... جيـد العلا حالٍ وكان معطـلا
هي دولة غرا وهـذا مالـك ... أضحى الزمان به أغـر محجـلا
لم ترض غـيرك يا أبا عمر لهـا ... فاستجلهـا ان العـرائس تُجتَلى
ما زلت معترفا بنعمـة ربهـا ... متضرعا لقـدومها متبتـلا
أو ماتراها في زبيـد تزدهـي ... وتميـس في حلل المفاخر والحلا
أمهـرتها وافي الصـداق فما لهـا ... كفؤ سـواك ولا تريد تبـدلا
جاءتك طائعـة ولـم تهـزز لها ... رمحـاً ولم تشـهر عليها منصلا
قل للذي رام التملـك جاهـلا ... وسعى فضل عن الطريق فضلّلا
ما أنت والملـك الذي لا سـره ... باد عليـك ولسـت فيه مؤهـلا
ارجع الى كأس الطلا ودع العـلا ... للمغمدين السيف في هـام الطلا
ولصاحب الجيش الذيسد الفضا ... وفلا بحد العزم ناصيـة الفـلا
وأعاد ريحـك حـين هبت أزيبا ... نكبا بريـح منه هبـت شـمألا
أولى الورى بالملك والده الـذي ... ما انفـك في سـبب المفاخر أولا
هي دولتـي وأنا الذي أملتهـا ... والله يعطي سـؤله مـن أمّـلا

العنسـي :

هذا الأديب يسميه الخزرجي شائق الدين يوسف بن محمد العنسي ولم يترجم له في كتابه وانما أورد له قصائد جيدة في مناسبات تاريخية ولا شك أنه

من فحول الشعراء ويبدو لي أنه كان أحد رجال الدولة في عصر الاشراف والمؤيد ومن غرر قصائده مديحه في الملك المؤيد يهنئه بتولي العرش :

القوس مونــرة في كــف باريها ... فليعلم النــاس قاصيها ودانيهــا
وليلبس الكل منهم درع مسكنه ... كي يصبحوا في أمان من مراميها
وكل نعمة قوم من نــدى ملــك ... البغي ســالبها والبذل كاسيهــا
يهنــى المؤيد بل نهنــى خــلافته ... اني أهنيــه منهــا ما أهنيهــــا
خليفــه الله من بعد الخليفــة يا ... ملك الملوك جميعــا لا أحاشيها
ان الخلافــة ما قرت ولا هدأت ... حتى رمــت نفسها في كف حاميها
أضحت محجــلة الايام مذ وقعت ... في كــف داوودها غــر لياليهــا

وله قصيدة يهنىء الملك المؤيد بالعيد ويذكره بانتصاره على بعض أعدائه:

الملك ليس ينــام منــه عيــون ... حتى يسيــل مــن الدماء عيون
لولا أدالنــك المصون من العدى ... ما بات وجــه الدهر وهو مصون
ضمنت لك الملك السيوف وكل ما ... ضمن السيوف فانــه مضمــون
وافبتــه بكتائــب أعــــلامها ... النصــر والتأييــد والتمكــين
من كل أرعن مكفهــر اصبحــت ... منه سهــول الارض وهي حزون
لو شئت تورد بعضه جيحون ما ... أرواه جيحــون ولا سيــحون
كم نقع ليل قد دجا من ركضــه ... مجلاه سرد دلاصــه الموضــون
ضاقت لكثــرته البسيطة كلها ... فمقامهــا في الشرق أين يكــون
فدع الحصون بَلاقِعاً من أهلها ... فلقد أصلتهــم عليــك حصــون
ملوا السكون بها وظنــي أنهــم ... قد ملّهم أيضــا هناك ســكون
فاطحنهــم طحــن الردى بكتائب ... هــي للطغــاة جميعهم طاحــون
فالارض ارنــك كلها مــن تبــع ... فاعقل حدبثــي فالحديث شجون
غمــدان قصركم القديم وقصركم ... صرواح كان وقصركم بينـــون
أظهــرت بالجيــش العرمرم كلما ... أخعت ظهــور منكــم وبطــون

الاحـــوم

هو الشاعر الكبير أبو عبد الله محمد بن مصعب عرف بالاحوم . كان شاعرا فصيحا حسن الشعر جيد السبك وهو من شعراء الدولة الرسولية في عهد المظفر وربما أدرك زمن المؤيد . ولم أقف على تاريخ وفاته . ومن سعره الجيد :

أراك تعـرض عـن ذي الاراك ونـم سجـون لقلبـي أراك
وعـن طلـل كـان قلبـي بـه أسـير هـوى ما له من فكاك
أما شـاقك اليـوم ما شـاقني بليلـى ولا ما عنـاني عنـاك
ولا ما شـجاني غـداة اللوى بليلـى وأسـراب ليلـى شجاك

ومنها في المدح :

أبا أحمـد أنت أعلـى الـورى وأبن سنـا فرعهـم من سنـاك
فـلا نصـر الله الا ذويـك ولا خـذل الله إلا عـداك
لك المايتـان صنيعـا إلـيّ نعم ربمـا زاد عـن ذا عطـاك
دنانـير جـدن بهـا من يديك وما تم الأ القـوافي جـزاك
وانت امرؤ لم تخيـب رجائـي فـلا خيـب الله بومـا رجـاك

ومن قصيدة له أخرى في مدح أمراء حلى :

سل البرق اليماني الـذي لمعـا عن صوب ذاك السحاب الجون ما صنعا
هل جاد أخدار ليلى باللوى وسقى للعامرية مصـطافا ومرتبعـا
وهل سحبن ذيولا من سـحائبه فجدبه وسقـين الواديين معـا
أمسى على البعد يطويني وينشرني حتى تقطعـن احشائي به قطعـا
وبات يقدح في قلبـي وفي كبدي نارا فما هجعت عيني ولا هجعـا
لي بالحمـى شجن شطت منازله عن ناظري فسقى الله الحمى ورعا
يعطي الوصال قليـلا تم يمنعـه ألا رعـى الله من أعطى ومن منعا
لقد ولعـت به والدار دانيـة فعندما شط عنـي زادني ولعـا

أشكو الى الله أن الرجع مارجعت | أيامه والصبى العذري ما رجعا
وان نفسي لم نفنع وقد منعت | ما تنتهيه وبعض الناس قد قنعا
مروعي بنو الاحباب معتمدا | مهلا فقد صنع البين الذي صنعا

ومن شعره أيضا هذه القصيدة :

حنين الفلاص الهيم دون حنيني | وفوق جنون العامري جنوني
ولما شدت فوق الغصون حمايم | بعثن من الاشواق كل دفين
ودكرتني أيام صبف ومربع | بحزوى ودار الحي غير شطون
فبت كأني فوق أنياب ضيغم | أقلب والدمع المعين معيني
وناديت خلف الرائحين بزينب | نشدتكم يا رائحين خذوني
ولما رأيت الارحبية واللوى | شمالي وبانات العقيق يميني
تبادرن في تلك الطلول مدامعي | على ذكر أيام مضت وسنين
وقفت على الوادي الشآمي وقفة | وقوف قريح الناظرين حزين
وأبدت بالوادي اليماني دمنة | واذكر أحبابي كما ذكروني
وأمدح من عك فتى لايضيق بي | قناه ولا يلوي لديه ديوني
وما أنا الا كلما زرت يوسفاً | منيت بحبل للسماح متين
أغر عميسي كأن جبنه | تفتح من شمس الضحى بجبين
أمين على أصحابه وجواره | وليس على أمواله بأمين

وشعر الاحوم كله جيد وفيه من التصوير والتشبيه ما لايجاريه شاعر آخر .

ابن سحبان

أبو محمد منصور بن عيسى بن سحبان شاعر بليغ وقد اشتهر بين أدباء عصره ومدح المؤيد الرسولي وسائر أمراء عصره ويصفه الخزرجي بأنه كان مداحا هجاء وعرف بقبح لسانه فكان أكثر الذين مدحهم عاد فهجاهم ومن جملة من مدحهم وهجاهم الملك المؤيد والامام محمد بن المطهر وموسى بن عيسى الحرامي

لأحد أمراء حلى بن يعقوب ومن قصيدته في هجاء المذكور قوله :

اليك تحدى المطايا يا أبا عيسى عجـا ووسـحا ونهجيرا ونغليسا
جواملا لك منـي كـل مخـزية تزيد وجهـك نقتيرا وتعبيسا
يا أسمر القرن يا من دون نائله نوال كفيـه ما ينفك محبوسا
أوضحت لي طرق الهجو التي درست وكان منهاجها من قبل مطموسا
كم سار فيك الجواري المنشآت بما بغادر الشرف العلوي مطموسا
وكم غنتك بنات النعش من كلمي بما يصم حداه العيـس والعيسا
من كل شاردة المعنى اذا رويـت كانت على وجهك الملعون تحريسا
تنسى خروج المواضي وهي مرهفة وجرحها قط لا ينسى ولا يوسى
والله لا طاب لي حلى ومسكنها مادام ربعـك مأهـولا ومأنوسا
ولا صـفى يا أبـا داود مشربها حتى أراك على الحدباء مغروسا
والجل في راس سود وهي باكية ثكلى تلطم خديها على موسـى
فما على أخت ابليـس بمنقصـة اذا بكـت بغزير الدمـع ابليسا
وانما أنتمـا من حيـت طبعكما جعلتما لكمـا بئـس الحراميسا
جفوتنـي لا وقاك الله كاينـة وما جفوت المخانيـت المجارسا
وقمت تحبس حظي منك مجتهدا لا زال حظـك عند الله منحوسا
وجاءني حظك المنحوس في حرض بالكف لاكف عنك الضر والبوسا
أمـا علمـت بأن الله خولنـي جاها ومالا ومركوبا وملبوسا
أفنيت في هجوك الاقلام لا ظفرت يمنى يديك وأفنيت القراطيسا

والقصيدة كلها من هذا النوع هجو مقذع • ثم عاد فمدح هذا الامـير واعتذر اليه في قصيدة طويلة يقول فيها :

الصفح منك ومني الجهل والزلل والحلم منك ومني الطيش والخلل
فان أسأت فمثلي من أسا وهفـا وان عفوت فمنك العفو مبتـذل
فلست أول من زلت به قـدم ولسـت أول من يعصى فيحتمل

لا تستبـــح بكلام الباغضين دمي ففد أذاب فؤادي الخوف والوجل
والله يشهد يا ابن الشم من مضر ما قلت أكثر ما قالوا وما نقلـــوا
وانما ناقص المقـــدار أولع بـــي وناقص القدر بالاحـــرار مشتغل
هب انني يا أبا داود جئت الـــى عظيمة ضاق منها السهل والجبـــل
وجئت معتـــذرا منهـــا ومبتهـــلا أليس تقبل جـــان جاء يبتهـــــل
جد بالتغطي الى من لا شفيع لـــه الى تغطيك الا الصمت والخجل
واعطف علي بمن سواك من علق ومن اليـــه الورى تحفى وتنتعل

والقصيدة طويلة أوردها الخزرجي في طبقاته .

ثم تطرق شعره الى هجو الامام محمد بن المطهر وتسفيه مذهبه وانتشرت قصائده في ذلك حتى أدى به الامر أن يصبح صريع لسانه فقتـــل سنة ٧٢٥ . وهـــذه القصائد التي قتلته يمكن الرجوع اليهـــا في كتاب طراز أعلام الزمن للخزرجي فلا حاجة الى التطويل بنقلها هنا .

ابن زنقـــل

والآن الى شاعر فحل آخر من شعراء العصر الرسولي هو الشاعر أبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن زنقل الذي يتميز شعره بسهولة الالفاظ وخفة الاوزان وقد اتصل بالملك المجاهد ونال منه حظوة كبيرة حتى إن المجاهد كان يغار اذا مدح أحدا غيره ويغضب عليه بسبب ذلك . وكان شاعرا فصيحا له معرفة بفنون الادب وأيام العرب وقد برع خصوصا في شعر الموشحات والمكسرات مع اجادة تامة في نظم الشعر الفصيح ومن قصائده الجيدة قوله في مدح المجاهد:

أعد من لعـــوب وتلك الملاعـــب وعـــن عـــرب المنحنى والاعارب
حديثا وصـــرح بذكـــر القطـــين وعرض بهنـــــداته والزيانـــب
فتلـــك الجـــآذر بيـــض المحابر ســـود الغدائر زج الحواجب
ثقـــال الروادف لـــدن المعـــاطف خضر المطـــارف خمـــر المضارب

وأحلى الحدبث أحاديثهن فزد لا قضى الله منها مآرب
فهن الصوادق ان أوعدنك وان وعدنك فهنّ الكوادب
وهن الندامى اذا ما الدنان لها حبب مثل نار الحباحب
سلاف اذا ماج فيها المزاج يحبط بها المزج من كل جانب
وازعاج ركب أباريقها بأيدي السقاة رأيت العجائب
يظل الزمرد من كرمها بساقط في الكاس والنبر ذايب
اذا الشمس صاغت جمان الحباب على راسها هالة من كواكب
فيا ربع ما لنتشاط الربيع شقائقه الحمر خضر الذوائب
وما بال نواره ضاحك وعهدي به أمس باكى السحايب
وقد نسج الجو في جانبيه مطارفه الدكن نسج السبايب
ويا خجل الورد من شبهه بأيدى الجناة خدود الكواعب
ويا صاحب اللهو هات الهزار أقمه على منبر اللهو خاطب
وهات ابنة الكرم في مذهبي نرى العقل ما مر بالعقل ذاهب
وساق بسل ظبا مقلتيه كسل المجاهد بيض القواضب

ثم يدخل في مديح مليكه ، ويكثر في شعر ابن زنفل وصف الربيع والازهار والبساتين فهو شاعر الربيع والخضرة بحق في العصر الرسولي .

وقبل أن نغادر شاعرنا الى شاعر آخر نقف قليلا عند قصيدته العجيبة هذه :

شاقتك بكاظمة عرب برماحهم تحمى عرب
أم عين مها صدع فتل ضربتْ لهم بقبا قبب
غنج دعج مزج دمج نفح مرتج بها حقب ؟
أنس شمس مبس نعس لعس بمحببها لعب
ردح صبح سمح وضح صدح بمعارفها خطب
بانوا فالقلب بهم ابل أسف شغف كلف كئب
بكر نحدى بهم ابل دمل ذلل بزل صهب

فعليــك بهــا ان عضــك أو ان نابك مــن دهــرك نــوب
واقصــد ملكاً يهــمي بــدراً كفــاه كما تهمى السحــب
ما قــول الشــعر وقائــل ذلــــك معترفون ولا عجــب
(فطويل) الشعر و (كامله) و (مديد) لــه (والمقتضب)
وكمثل (بسبط) و (منسرح) معه (رمل) (رجز) (خبب)
وشوارد تلك إذاه دعا رقصــت وأتتــه لها طرب
مــا فارسهــــا إلاه اذا لموارســها خفقــت عــذب
(فمرقشــــه) و (مهلهلــه) وفرزدقـــه فهـــه أدب

الى آخر هذه القصيدة العجيبة الفريدة .

ابن العليف

وهو غير الاول السابق ذكره وهذا ترجم له السخاوي وابن أبي الرجال والخزرجي ويقول الاخير في ترجمته أبو عبد الله محمد بن الحسن بن العليف أوحد شعراء العصر وفصحاء الدهر وكان شاعرا فصيحا بليغا حسن السبك . ويقول أيضا : الا أن فيه عنجهية ويدعي أنه أفصح من المتنبي وكم بين الثـرى والثريا ولكنه أشعر أهل عصره وكان شيعيا كبيرا ومن شعره :

قبلــت رضيــت بالاســلام دينا وتوحيــدي لرب العــالمينا
وتفــديمي على زيد وعمــرو وتفضيلــي أمــير المؤمنينــا
أقــول لمــن يقدمهــم عليــه خطيبــا قائمــا في المسلمينــا
صــددت الكاس عنا أم عمــرو وكان الكــأس مجراها اليمينا

وله قصيدة جيدة عارض بها قصيدة المتنبي في سيف الدولة التي أولها :

غيري بأكثــر هذا الناس ينخدع ان قاتلوا جبنوا أو حدثوا شــجعوا

فقال ابن العليف :

الله لي عوض عن قصر مافطعوا … رزقي عليه فلا ففد لما منعوا
وان هموا وضعوا قدري ومنزلتى … رجوت ان يرفع الله الذي وضعوا

وهى قصيدة طويلة جيدة .

مطهر بن محمد

من الشعراء وهو ابن الإمام محمد بن المطهر بن يحيى وقد برع في نظم الشعر وقصد الملك الافضل ومدحه بعدة قصائد وكان أكثر شعره في نظم المكسرات والموشحات ومن نظمه قصيدة في مدح الوزير عمر بن أبى القاسم بن معيبد يقول فيها :

خزام وورد ولينوفر … يرقصه زمر أطباره
اذا ما الحمام تبدا بينه … أجاب الهزار بمزماره
وزهر الاقاح يحاكي التنفيق … حداد التحرف في ناره
وزهر البهار[1] له صفرة … كلون النظار لنظاره
ونرجسه شاخص كالعيون … أعالي الغصون بأشجاره
تضاحك زهرا بأفنانه … لباكي الغمام بأمطاره

ومن شعره قصيدة في مدح الملك الافضل يقول في أولها :

غزال أزال لاهٍ ليس يدري … بأن محله سوداء صدرى
غزال دونه غزوات (أحد) … وبدر دونه وقعات (بدر)
تسلك مهجتي بفتور طرف … وحمرة وجنة وبياض ثغري
يهز على الكتيب قضيب بان … ويستر شمسه بدجوج شعر
وأقسى من صسيم الصخر قلبا … فقلبي للتبجا (خنسا) و (صخر)
يلومني الحسود عليه جهلا … وعدري أنني في الحب (عذري)
وحبسني الغرام عليه لما … سباني من ملامحه بسحر
كان على نواظره السواجي … جزاز (الافضل) الملك الهزبر

(١) البهار بىت طىب الرائحه ويقال له عىں البقر .

ثم يتناول أوصاف ممدوحيه وهي قصيدة طويلة •• ومن غزلياته في مفتتح قصيدة له قوله :

ما غنت الـورق على ساق ساق ... الا سقاني كأس الاشـواق ساق
والبرق ما شـق قميص الدجـى ... الا وشـق القلـب منـي وشاق
والريـح ان هبـت (يمانيـة) ... أو حيب روحي قد يرى في العراق
كـذا اختراق البـرق مهما بـدا ... لاقيتـه في مهجتـي باحتراق
حملنـي ظامـي مناط النطاق ... من الاسى والوجد ما لايطـاق
يأمـر هف الخصر دقيق الحشى ... مهفهف المتنـين راوي النطاق
يا ماذي الرشـف يا منتهـى ... سؤلي ويا حالي مـذاق العنـاق
عبـس النوى شدت بأكوارها ... وأزمع القـوم على الانطـلاق
هل لي الى مغنـاك من عـودة ... أو لا تلاقي غـير يـوم التلاق
هـب لي اذا حان وداعيك لـي ... رشف ثناياك العـذابِ المـذاق

توفي الشاعر مطهر بن محمد سنة ٧٩١ •

شعراء آخرون :

وفي أواخر العصر الرسولي نبغ جماعة من الشعراء غير من ذكرناهم سابقا وهم الشاعر محمد بن أبي بكر السراج الشهير بالحكاك وقفت له على ديوان ضخم أغلبه في شعر الموشحات والمكسرات والشاعر عبد الزحمن بن عمر العطاب المتوفى سنة ٨٦٤ هـ • والاديب رضى الدين أبو بكر بن ابراهيم الحكاك من أهل حيس وغيرهم كثير من الادباء الذين لايكاد يحصرهم البحث •

النثر الأدبي

من الصعب معرفة الاسلوب الفني لكتابة النثر في عصر بني رسول اذ لم تصلنا نصوصه ، وكل مافي الامر كتابات علمية تبحث في الدين والاخلاق لاترقى الى جانب الادب بأي حال من الاحوال وقد مر بنا في فصول سابقة أن العصركان عصر انتاج تأليفي كبير حيث ترك لنا عدة مجلدات نثرية وهي ذات طابع تعليمي علمي واذا كان لابد من البحث عن تلك الكتب الادبية التي لاتتصل بالادب الشعري فسنجد هناك بضعة كتب يغلب عليها طابع الجمع والتبويب ، فقد كتب في هذا العصر الادب عمر بن علي العلوي المتوفى سنة ٧٠٢ موسوعته الادبية المسماة (منتخب الفنون) في سبعة مجلدات ومن المؤسف أنه لم يصلنا من هذه الموسوعة سوى مجلد واحد • ولا أعرف غير هذا الكتاب • وأغلب الظن انه من نوع السفن التي تعنى بجمع الفائدة من عدة كتب •

وظهرت كتابة الرسائل الادبية لتتصل اتصالا وثيقا بالجانب السياسي فعرف مايسمى بديوان الانشاء يخصص فيه جماعة من الكتاب همهم الاول الاجابة على الرسائل الواردة الى السلطان بأسلوب انشائي بديع • ولم يصلنا من هذه الرسائل التي كان يدونها كتاب الانشاء في ذلك الوقت سوى نص رسالة واحدة أوردها القلقشندي في كتابه (صبح الاعشى) وهي على لسان الملك الاشرف بعثها الى السلطان (الظاهر برقوق) صاحب مصر في سنة ٧٩٨ • وهي هذه :

أعز الله تعالى المقام الشريف السلطان الظاهري وزاده في البسطة والقدرة وضاعف له مواد الاستظهار والنظر وجعل الظفر مقرونا براياته أينما يممت مابينهما تميز ومحبوبا الى عساكره المنصورة حيث توجهت وفتح ببركة أيامه

كل مقفل ممتنع بأمر وجيز ولا زال ممتثل الاوامر والمراسم رافلا في أردان العز والمكارم ممدوداً على الأمة منه ظل المراسم بمنه وكرمه •

أصدرها اليه من زبدة (زبيد) المحروسة معربة عن صدق ولائه متمسكا بوثيق أسباب آلائه ناشرة طيب ثنائه مترجمة ناظمة لمنثور الكتاب الكريم (الظاهري) ، الوارد على المجلس العالي (البرهاني) بتاريخ ذي الحجة عظم الله بركاتها سنة سبع وتسعين وسبعمائة أحسن الله خاتمتها فتلقيناه باليدين ووضعناه على الرأس والعين ، واستدللنا به على شريف همته وصفا مودته وتأكيد أخوته، وسألنا الله تعالى أن يمتعنا ببقاء دولته القاهرة ، وينشر في المشارق والمغارب أقلامه الزاهره ، ففضضنا ختامه فوجدنا فيه من نشر السلم الأريج أذكاه، ومن أنوار ما مجه القلم الشريف مايخجل نوار الربيع وبهاه فانشرحت به الصدور وتزايد به السرور وقرت الاعين وكثر التهجد به لما استعذبته الالسن وامتثلنا المرسوم الشريف في تعظيم المجلس العالي ذي الجلالتين (برهان الدين ابراهيم بن عمر المحلى) ومراعاته في جميع أموره وسرعة تجهيزه على أنا نجله ونوجب حقه ولانجهله فهو عندنا كما كان في عهد الوالد المرحوم الملك (الافضل) بل أمكن وأفضل فهو لدينا المكين الامين ، وجهزنا له المتجر السعيد (الظاهري) ، وبرزت مراسيمنا الى النواب بثغر (عدن) المحروس ان لايعترض في عشور ونول) •

ثم تنسرح الرسالة للملك الظاهر بروق حالة (اليمن) السياسية فتقول :

ويوضح لعلمه الكريم ما أفاء الله علينا من النصر الذي خفقت بنوده وأسفرت سعوده وبرقت سيوفه في رقاب المارقين ، واطردت في راياته المآرب فتناولها باليمين (نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين) وفتح القلاع والمصانع والاستيلاء على المرابع والمزارع واستئصالنا شأفة المارقين واسترجاع حصن (قاف) المحروس بعد طول مكثه تحت يد العرب فكم من كمي مقتول وأسير مكبول وحصان ترك سبيلها ورب حصان كثر عليه عويلها فخربنا المعاقل وأطلقنا العقائل وأوطناهم الحسيم (وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم وما النصر الا من عند الله

العزيز الحكيم) ثم تشرح الرسائل بعض المسائل السياسية الدائرة بين اليمن ومصر فلا نطول على القارىء بايرادها هنا .

وهذه الرسالة نموذج من الكتابة الانشائية التي كان يتفنن في كتابتها كتاب الانشاء في ذلك الوقت وقد وصلت الى درجة كبيرة من القدرة ويقول (القلقشندي) : إن كتاب الإنشاء في اليمن يحتذون طريقة كتاب مصر في رسائلهم فتبتدىء رسائلهم بلفظ أعز الله المقام العالي المولوي السلطان الفلاني بلقب السلطنة ثم يقول أصدرها من مكان كذا ويذكر المقصد ويختم بالدعاء ونحوه ويكتبون في قطع الشامي الكامل بقلم الثلث .

وكان الاديب العيدي أحد من طور هذه الصنعة في اليمن وكانت قبله ضعيفة المستوى من الناحية الادبية . وهو واحد من فرسان هذا الشأن . وتسلم الكتابة في عهد الدولة الرسولية جماعة من أعيان الكتاب أغلبهم من الوافدين الى اليمن وهم بعض ممن ذكرناهم في أول البحث .

وكتابة الرسائل هي الاثر الوحيد الذي بقي لنا من نثر العصر الرسولي الادبي وهذا لا يعني أن الاسلوب الادبي قد تلاشى من كتابات الكتاب في ذلك العصر فأنت مثلا تقف على ما يشبه الاسلوب الفني في تلك المقدمات الرائعة التي كتبها علماء الكلام والتصوف لكتبهم ، ولعلنا سنعرض الى شيء منها عند كلامنا على الادب الصوفي في ذلك الوقت .

ابن عبد المجيد اليماني

والكاتب المبرز في صناعة النثر الادبي خلال العصر الرسولي هو الكاتب عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني . ولد في عدن على أصح الروايات سنة ٦٨٠ ونشأ بمكة فتلقى العلوم بها ثم عاد الى عدن سنة ٧٠٤ ليتسلم كتابة الانشاء للملك المؤيد وحضر الاحتفال الكبير الذي أقامه المؤيد بساحل (حقات) وبقي ابن عبد المجيد في اليمن حتى وفاة المؤيد سنة ٧٢١ واتهم ابن عبد المجيد بميله مع الثائر الملك الظاهر فصادره المجاهد ونفاه من اليمن فرحل الى مصر سنة ٧٣٠

ومنها الى الشام حيث درس في المسجد (الاموي) فن المقامات وفي الشام توفي سنة ٧٤٣ •

وابن عبد المجيد هو كاتب اليمن الوحيد في عصر بني رسول وقد اشتهر بين معاصريه بكتابة الرسائل الديوانية حتى استخدمه الخليفة العباسي المستكفي بالله في الكتابة الى صاحب اليمن • وقد أثنى عليه كل من ترجم له فقال البرزالي في وصفه : (كان من أعيان الادباء نظما ونثرا) • ويقول ابن شاكر الكتبي : (كان قادرا على النظم والنثر) • ويقول ابن حجر العسقلاني (كانت له قدرة على النظم والنثر وكان يحط على القاضي الفاضل في استعماله البديع ويرجح ابن الاثير عليه) • أما النويري فقد أطنب في الثناء عليه ووصفه بأنه (أتقن صناعة الادب في غرة شبابه وسما الى سماء البلاغة فكان نجمها الزاهر وارتقى الى أفلاك البراعة فكان نيرها الباهر) •

ومن نماذج نثره الادبي قوله في رسالة بعثها الى ملك اليمن على لسان الخليفة المستكفي يقول في أولها :

(أما بعد حمد لله مانح القلوب السليمة هداها ومرشد العقول الى معادها ومبتداها وموفق من اختاره الى محجة صواب لايضل سالكها ولاتظلم عند اختلاف الامور العظام مسالكها وملهم من اصطفاه اقتفا آثار السنن النبوية والعمل بموجب القواعد الشرعية والانتظام في سلك من طوقته الخلافة عقودها وأفاضت على سدته الجليلة برودها وملكته أقصى البلاد وناطت بأحكامه السديدة أمور العباد وسارت تحت خوافق أعلامه الملوك الاكاسرة وسرت بأحكامه النيرة مناجح الدنيا ومصالح الآخرة وتبختر كل منبر من ذكره في ثوب من السيادة معلم وتهللت من ألقابه الشريفة أسارير كل دينار ودرهم • الخ ••

وله رسالة أدبية طريفة جعلها على لسان طفيلي بوصي ابنه ويلقنه أسرار المهنة ونحن نثبتها هنا لطرافتها :

(هذا عهد عهده زارد بن لاقم ، لبالع بن هاجم استفتحه بأن قال : الحمد

لله مسهل أوقات اللذات وميسرها وناظم أسباب الخيرات ومكثـرها ، وجاعل أسواق الأفراح قائمة على ساق ، جابرة لمن ورد اليها بأنواع الإرفاد وأجناس الارفاق ، أحمده على أن أحلنا في منازل السادات أرفع الدرجات وأحل لنا مـن الاطعمة الفائقة الطيبات ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشـريك له ، شهادة نهدينا الى المقام الرفيع ، وتخصنا بالمحل الجسيم المنيع ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله رب المكارم الجسام ، ومعدن الجسارة والإقدام الجامع بين فضيلتي الطعان والطعام ، صلى الله عليه وعلى آله أهل السماحة والكرم والاكرام ،صلاة تحل قائلها في غرفات الجنان في دار السلام ، وبعد .

فان صناعة التطفيل صناعة مهوبة ، وحرفة هي عند الظرفاء محبوبة لايلبس شعارها الا مقدام ، ولا يرفع خافق علمها إلا من عد في حرفته من الاعلام،ولايتلو أساطر شهامتها الا من ارتضع أفاويق الصفاقة ، ولايهتدي لمنار علائها إلا من نزع من منكبيه رداء الرقاعة والحماقة وكنت والفود غدافي الاهاب ، والغصن ريان من ماء الشباب والقد يميس في حلة النشاط والقـدم تذرع الارض ذرع الاختباط لايقام سوق وليمة الا وأنا الساعي اليها ولا ترفع أعلام نار مأدبة إلا وكنت الواقف لديها أتخذ الدروب شباكا للاصـطياد وحبائل أبلـغ بها لذيذ الإزدراد قد جعلت المعطس حلف الهواء والقلب نزيل الاهواء فحيث عبقت روائح الأبازير من أعالي تلك القصور وتمندلت تلك الشوارع بزعفران البرم.والقدور ألقيت عصا المسير على الباب ، وخليت بحسن أدبي قلب البواب ، وأوسعت في وصولي ألف حيلة وجعلتها على ماعندي من حسن فنونها مخيلة فلا دعـوة إلا وكنت عليهم دعوة ولا وليمة ختان الا وقد طلعـت على أرجائها مثل الجان ولا سماط تأنيب إلا وكنتاليه الساعي المنيب ولا مجمع ضيافة إلا وكنت عليه أشد آفة ، ولااملاك عرس مشهود الا وانتظمت في سلك الشهود،يحسن فيّقول القائل:

لو طبخـت قـدر بمطمـورة　　موقدها الشـام وأعلى الثغـور
وأنـت في الصـين لوافيتهـا　　يا عالـم الغيـب بما في القدور

واليوم قد مال القويم الى الاعوجاج وعز بازى الشيب غراب الشعر الداج وقيد الزمن أقداما ومنعت الشيخوخة أقداما وصرت لحما على وضم ، بعدأن كنت نارا على علم وقد أفادتني من هذه الصناعة فنونا وتلت علي من محاسنها متونا وقد أبقيت لكل مجمع بابا وفذلكت لكل مشهد حسابا وقد اقتضى حسن الرأي أن أفوض اليك أمرها ، وأودع تأمور قلبك وحسك سرها ، علمي بأنك الكبس الفطن بل الالمعي الذرب المرن لو عقدت أكلة الولائم بغاب ولجة لأحسن بتأتيه الجميل مدخله ومخرجه • وقد شاهدت من أعمالك الصالحة ما يقال (فيه) عند ذهابي : ما أشبه الليلة بالبارحة وقد عهدت اليك واستخرت الله في التعويل عليك فمثلك من يخطب للمناصب ويتسنم ذروة المراتب ودونك ما أنطق به من الوصايا وأحفظ ما يسرده لسان القلم من جميل المزايا واياك وموائد اللئام وانزل بساحات الكرام واتخذ الشروع في الشوارع حرفة وأظهر على مشيك صلافة وعفة وميز بعينك حسن المساطب ونقش الستور وجمال الخدم وقعود الصدور واقصد الابواب العالية والاكلة المنقوشة الجالية فان دللت على مأدبة نصبها بعض الاعيان وجمع اليها أصحابه الاخوان فالبس من ثيابك الجميلة قشيبها وضوع بالمندل الرطب طيها واتقن خبر صاحب الدار وأخباره وقف في صدر الشارع من الحارة ، واذا رأيت الجمع ، وقد تهادوا بالهوادي والاقدام، تهادوا فيما بينهم لذيذ الكلام ، تقدم اليهم بقلب قلب الامور وعلم بحسن تطلعه وتضلعه داء الجمهور وقل لهم رب الدار قد استبطأكم فما الذي أبطأكم حتى اذا قاربوا صعود العتبة ولم تبق هنالك معتبة تقدم رافعا لهم الستور ومعرفا بمقدار أولئك الصدور فالاضياف يعتقدون أنك غلام المضياف ورب الحلة يعتقد أنك رفيق السادة الجلة وان ولجت مجتمع ختان وقد نصبت فيه موائد الالوان وذرفنت الابواب واكفهرت وجوه الحجاب فاجعل تحت ضبيك المجمع واخدع قلوبهم فمثلك من يخدع وقل : رفيق الاستاذ ومعينه ورجله التي يسعى بها بل يمينه فحينئذ ترفع الستور وتقدم لك أطايب القدور وان رماك القدر على باب غفل عنه صاحبه وسها عن غلقه حاجبه وقد مدوا في إوانه سماطا وجعلوا

لأوائل من يقدمه فراطا وقد نقاربت الزبادي وامتدت الايادي ورأيت السماط روضة تخالفت ألوانها وامتدت أفنانها والموائد فبما بينها أفلاك تدور بصحونها بل بروح ثابتة تشعر بسكونها فلج على غفلة من الرقيب وابسط بنان الاكل وكف لسان المجيب فان قيل لك : أما أغلق الباب دونك ؟ فقل : (ما على الكرماء من حجاب) واياك والاطالة على الموائد فانها مصايد الشوارد واياك والقذرة عليها فانها امارة الحرمان لديها وان وقعت على ولبمة كثيرة الطعام قليلة الازدحام فكبر اللقمة ولا تطل علكها ، ومر الفك في سرعة أن يفكها ، فانك لا تدري ما تحدث الليالي والايام خيفة أن يعثر عليك بعض الاقوام فتكتسي حلة الخجل وتظهر على وجهك صفرة الوجل واجعل من آدابك تطلعك الى أثوابك ولا ترفع لمستجل وجها وجيها وقل لمن يحادثك : ايه • ولا تقل ايها وجاوب بنعم فانها معينة على اللقم واجعل لكل ما يناسبه من الحيلة ومل على أهل الولائم والمآدب ميلةواسأل عمن ورث من آبائه مالا وقد جمعه بوعثاء السفر وعنائه مورثة حراما وحلالا أيعتقد مقاما ؟ أم يبلغ من دنياه بالقصف مراما ؟ فان قيل : فلان الفلاني رب هذه المثابة وصاحب الدعوة المجابة فكن ثالثة الاثافي في لبابه وانتظم في سلك عشرائه وأترابه،وتفقد الاسواق خصوصا اللحامين ومواطن الطبخ ومساطب المطربين ومجمع القراء ومعاهد محال الوعاظ وكل بقعة هي مظنة فرح يعود عليك نفعه وكن أول داخل وآخر خارج ومل الى الزوايا فهي أجمل مالهذه الحرفة من المزايا ونقل ركابك في كل يوم فتارة في سوق اللحم وتارة في سوق الثوم وغير الحلية وقصر اللحية وابرز كل يوم في لباس فهو أكثر للالتباس وجدد البهت حتى تتخذه عصاك وتجعله ذريعة لمن عصاك واتقن الفنون التي تحتاج اليها من غناء ونجامة وطب وشهامة وتاريخ وأدب وكرم أصل وحسب وحالتي التوقيت والتنزيل فاجعلهما دأبك فاذا عرفوك وحضر الجمع وكشفوك فطرز كل محفل بمحاسن أقوالك وكل جيد كل مأدبة بجواهر أفعالك واعلم أنها صنعة دثرت معالمها وقل عالمها ولو لم أر على وجهك مخائل بشرها وعلى أعطاف أردانك روائح نشرها لما ألقيت اليك كتاب عهدها ولا حملت لبابك راية مجدها فتلق رايةهذا العهد بساعد

مساعد وعضد في الولوج على الاسمطه معاضد ووضـــت البك أمر من نحلى بجواهرها المنظومة ولبس حللها القشيبة المرقومة وبسطت لسان قلمك في رقم عهودها وأذنت لك أن تجريهم على سنن معهودها واياك أن تعهد الا لمن ملـــك خصالها وجاس واستجلى هلالها وانقن أحوالها ولاية عامة وكلمة مبـــرمة تامة حرس الله بك الادب واللطافة ومحابك معالم الثقافة والكثافة .

أدب الصوفيــة

كان نشوء الطرق الصوفية في اليمن محاكاة لطرق صوفية كبيرة نشأت في مصر والشام والعراق • وكان صوفية اليمن يعترفون بتبعيتهم لصوفية العراق كالصوفي الكبير عبد القادر الجيلاني والشاذلي وغيرهما وقد بينا مدى الصـلة الكبيرة بينهما في كتابنا (الصوفية والفقهاء) والذي يهمنا هنا هو الاشارة الى الجانب الفني من التصوف اليمني وما له صلة وثيقة بالادب فقد عرف الصوفية الادب بشكل واسع وطبقوه عمليا في السماع والرقص حيث كان السماع هو الميدان العملي لتلحين الشعر والقصائد المطولة وقد أقامه صوفية اليمن منـذ القرن السادس وما بعده وشجعت الدولة الرسولية هذا الفن بمشاركة ملوكها فيه ومنهم من وقف ضد منتقديه من الفقهاء وقد ذكر ابن المجـاور في أواخـر القرن السادس انه يخرج كل ليلة من أبواب مدينة زبيد نحو سبعمائة راقص من الصوفية يحيون الليالي بالاناشيد والاغاني في ذكر الله وتبجيله وربما شاركت النساء في احدى هذه الحفلات بالرقص والغناء حتى أنكر عليهن هذه الناحيـة جماعة من العلماء ومع ذلك فالصوفية نادرا ما يلتفتون الى منتقديهم وكانـوا يعلنون السماع أمام الناس ومنهم من أقامه في المساجد حتى قال الشاعر ابـن المقري في الرد عليهم :

برغم سنة خـير العجم والعـرب ... أضحت مساجدها للهو واللعب
ماكان صـلى عليـه الله يأمرنـا ... بضرب دف ولا زمـر ولا قصب
بل سد عن مزمر الراعي مسامعه ... صونا لهـا ولنا عن هذه اللعب

وهي قصيدة شهيرة في نقد الصوفية •

وكان الصوفية يركزون على فهم المعاني الواردة في السماع ويقول أحد كبارهم : (من لم يعرف المعاني فالسماع عليه حرام) ومنهم من يتواجد حال السماع ويغيب عن حواسه وكان الشيخ عمر المسن يتواجد حتى أنه قذف بنفسه مرة من سطح البيت لشدة الوجد ولم يصبه أذى الى غير ذلك من أخبار تدل على تذوق صوفية اليمن للسماع •

وليست بأيدينا نصوص شعرية لما كان يغنى أثناء السماع وكل ما ظفرت به بيتين أوردهما الشرجي في طبقاته وهما قول القائل :

قدمتم فمال البان والضال والاثل
حللتم رُبا نعمان واجتمع الشمل

ولاشك أن كثيرا من قصائد ابن علوان وابن أبي الغيث كانت تنشد أثناء السماع مع قصائد ابن الفارض والتلمساني وابن عربي وغيرهم من صوفية العالم الإسلامي ، إلا أن هذا لا يعززه مصدر تاريخي ، ومن يتأمل مؤلف المزجاجي المتوفى سنة ٨٢٩ في سماع الصوفية يجد أن الصوفية قد أقاموا السماع بشكل واسع • وكان الصوفي محمد بن عيسى الزيلعي المتوفى سنة ٧٨٧ هـ يقيم السماع في كل قرية من قرى وادي سردد ومور وكذلك الفقيه محمد بن أبي بكر الحكمي صاحب عواجه المتوفى سنة ٦١٧ هـ وصاحبه محمد بن الحسين البجلي المتوفى سنة ٦٢١ هـ والشيخ علي الاهدل المتوفى سنة ٦٠٦ هـ وأحمد بن علوان المتوفى سنة ٦٥٥ هـ • يقول المزجاجي : (وكلهم كانوا يعملون السماع في نواحي اليمن وذراريهم وتابعوهم على طريقتهم الى الآن) • وقد شهد مسجد ابن عبد الملك في (زبيد) أغلب تلك الحفلات السماعية التي كانت تقام في هذه المدينة وكان الشيخ يحيى القاهري يحضر السماع على الرغم من كبر سنه ويتواجد ويرقص وكان عارفا بقواعد العربية فاذا حصل من المنشد مايخالف قواعد الاعراب يقوم من موضعه ويأتي الى الحادي ويصلح له ذلك •

وكان الشيخ اسماعيل بن أبي بكر الجبرتي المتوفى سنة ٨٠٦ من أكبر

القائمين على أمر السماع واحيائه ، وقد بلغ الامر بأحد تلامذته أن تدركه الوفاة أثناء السماع نتيجة تأثره البالغ ، فقد ذكر المزجاجي أنه لما وصل الحادي الىقول:

يا مؤنسي في وحدتي   يا شاهدي يا ناظري

ادرك الشيخ محمد بن شافعوجد كبير ولم يزل يتحركوالحادي يكرر له القصيدة حتى لوى بيديه على رقبة الحادي ونزل الى الارض قليلا وجلس وغطى وجهه بثوبه فحركوه فوجدوه قد مات .

واتفق للشيخ اسماعيل الجبرتي أنه أقام السماع بزبيد شهرين وبضعة أيام متواصلة وربما أقام السماع في بعض البيوت مع فقرائه لمناسبات عائلية ودينية . وهكذا أقبل الصوفية على السماع اقبالا تاما فنمى فيهم الذوق الفنيوالتأثربه.

وقبل شبوع القهوة والقات بين صوفية اليمن كان بعض الصوفية يتعاطون الحشيش بخفية فاذا علم الشيخ بها أنكرهاعليهم[1] وكان الصوفي محمدبن عيسى الهتاري المتوفى سنة ٧٨٨ ينكر على من يدخل الحشيش الى زاويته من الباعة والمتسببين[1] ولما عرف القات في اليمن احتضنه الصوفية وحل محل الحشيشة فلا يكاد يذكر الحشيش بينهم الا نادرا . وقد استعانوا بالقات والقهوة كوسائل مساعدة على النشاط في القيام بعباداتهم ومنهم من أطنب في مدح القهوة والقات فقال شاعرهم يمدح القهوة :

قهوة البن يا أهل الغرام   ساعدتني على طرد المنام
وأعانتني بعون الله على   طاعة الله والناس نيام
(قافها) القوة و (الهاء) الهدى   (واوها) الود و (الهاء) الهيام
لا تلوموني على شربي لها   انها شرب لسادات كرام

ولهم فيها شعر كثير ليس من موضوعنا درسه لانه من أدب ما بعد العصر الرسولي حيث لم يشتهر أمر القهوة والقات الا في القرن العاشر ومابعده .

---

(١) الاهدل : تحفه الزمن ج٢ ص ٧١ .

وللصوفية في اليمن وغيرها علوم ومواجيد وأذواق لايتسع المجال لبحثها هنا وقد كونوا لأنفسهم سلطة روحية وفكرية عظمة نعتمد أساسا على الانغماس الكلي في عبادة الله ومجاهدة النفوس واشتهرت بينهم كتب خاصة يتداولونها في القراءة والاذكار وكان كتاب (إحياء علوم الدين) للغزالي من آشهر الكتب الصوفية عندهم ولاقى عناية كبيرة منهم • وقد دخل الى اليمن في حياة مصنفه حجة الاسلام الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ واختصره في ذلك الوقت الفقيه يحيى ابن أبي الخير العمراني المنوفى سنة ٥٥٨ ثم الفقيه محمد بن سعيد القريضي المتوفى سنة ٥٧٦ وغيرهما ثم أقبل عليه الصوفية اقبالا منقطع النظير•

وترك صوفية اليمن في ذلك الوقت بضعة كتب فنية تعتمد في علومها على فقر من الكلام المسجع في الحكم والوصايا وتناقل الناس كتاب الشيخ ابن أبي الغيث في هذا السبيل واعتمدوا عليه في سلوكهم الصوفي ومن قبله وضع الصوفي الكبير محمد بن الحسين البجلي المتوفى سنة ٦٢١ كتابه اللباب ، وهو في نفس موضوع كتاب ابن أبي الغيث ، ثم تلاهما الفقيه محمد بن عمر بن حشيبر فوضع كتابا في التصوف على نفس الاسلوب • ومع ذلك فان المؤرخ الحسين ابن عبد الرحمن الاهدل ينكر على هذه الكتب بضعة جمل توحي بميل أصحابها الى فكرة الحلاج وابن عربي ، وكان الناس يتداولون هذه الكتب بشكل عام وعندما ظهرت مؤلفات ابن علوان الوعظية مال الناس اليها حتى كادت آن تنسى كتب السابقين ، ثم جاء الصوفي عبد الله بن سعد اليافعي المتوفى سنة ٧٦٨ هـ ووضع عدة كتب صوفية جيدة غطت شهرتها على سائر كتب التصوف في اليمن ولاقت عناية كبرى في البلاد وخارجها ، وسنفرد هذين العملين بالبحث فيما بعد • ووضع الصوفي أبو العباس أحمد بن عمر الزيلي المتوفى سنة ٧٠٤ كتابه في التصوف بعنوان (ثمرة الحقيقة ومرشد السالكين الى أوضح طريقة) وهو من الكتب الهامة في هذا الباب وقد أسس زاوية شهيرة في قرية المحمول • وكان من سلوكه في التصوف أنه لايشتغل بشيء من أمور الدنيا ولا يتكسب ولا يطلب

من أحد شيئا واذا علم بأحـد من الناس يطلب شيئا طرده وعرف بين أتبـاعه بكثرة اقامة السماع •

ومن الكتب الصوفية الشهيرة التي وضعها صوفية اليمن في العصر (كتاب اللطايف) للصوفي طلحة بن عيسى الهتار المتوفى سنة ٧٨٠ هـ • وكان من ذوي الوجاهة عند الناس ، وكان السلطان يقدر جانبه حتى ان الخارجين على الدولة اذا احتموا به لايستطيع السلطان أن يصل اليهم بأي حال من الاحوال •

واشتهرت في العصر الرسـولي أسرة علمية جمعت بين جانـب التصوف والاخلاق منذ جدهم الاول الفقيه أبو محمد عبد الرحمن بن عمر الحببشـي المتوفى سنة ٧٨٠ الذي وضع عدة كتب في التصوف منها كتابه (الاعتبار لذوي الابصار) جمع فيه بين النثر والنظم بحيث ضمنه قصدة في مائتي ببت في كل بيت ثلاثة أشطر ثم ألحق بكل بيت كلاما مسجوعا موافقا لما في الابيات من المعنى وله كتاب (التوشيح والثبات والذكر والرحمات) وغيره من الكتب • وكان بالرغم من انشغاله بالتأليف والتدريس وتولي القضاء لاىترك قيام الليـل منذ شبابه الى أن أدركته الوفاه • وكان يصلي بأكثر القرآن قائما وهوفي سن كبيرة • توفي رحمه الله سنة ٧٨٠ وخلف ولدين كلاهما من العلماء المصنفين وهما الفقيه أحمد ابن عبد الرحمن الحبيشي المتوفى في حياة والده سنة ٧٦٩ وله من الكتبالصوفية كتاب (رياضة النفوس في فضل الجوع وترك اللذات الشهية) وكتاب (تحفة الطالبين وتذكرة السالكين) والابن الثاني هو الفقيه محمد بن عبد الرحمن بن عمر الحبيشي المتوفى سنة ٧٨٢ والد صاحب كتاب الاعتبـار في التاريخ • وقد اشتهر هذا العالم بعدة كتب صوفية لعل أهمها كتاب (البركة في فضل السعي والحركة)وهو من الكتب الجيدة في بابها • أما أسرة بني الاهدل فهي على الرغم من كثرة متصوفيها ومؤلفاتهم في هذا الباب ، الا أن أفرادها لم يشتهروا الشهرة الواسعة الا بعد العصر الرسولي فلن نشير اليهم هنا[1] •

---

(١) ونحيل القارىء الكريم الى بحثنا المنشور بعنوان : جهود بني الاهدل في خدمة العلم •

وعلى العموم فان صوفية اليمن في مؤلفاتهم كانوا أصحاب مجاهدة ومواجيد وقد جمعوا في كتاباتهم بين الجانب الشعري والجانب النثري وهو الامر الذي لا نكاد نجده عند غيرهم من الفقهاء والمتكلمين وربما وجدنا من تفرد فيهم بالشعر كالاديب عبد الرحيم البرعي والشيخ حاتم بن الاهدل ، الا أن هذا نادر جدا وإلا فانك تقف على كتابات علوان فتجد ديوانه الحافل بالشعر الجيد بجانب كتاباته النثرية التي يمزج فيها أحيانا بين الشعر والكلام المسجوع وكذلك الحال عند اليافعي وهو أقل الصوفية موهبة شعرية .

ابن علوان :

فأما ابن علوان فهو الشيخ أحمد بن علوان إمام الصوفية وفيلسوفهم في العصر الرسولي ، نشأ في أحضان الرئاسة والعلم وكان والده من خدمة السلطان ومن كتابه ، وكاد ابنه أن يصبح مثله ، إلا أنه تحول الى طريق التصوف تحت تأثير خارق[1] ولزم الخلوة والعبادة وألقى الله له القبول والمحبة في قلوب الناس وتبعه خلق كثير وكانت له كرامات ومكاشفات واشتهر بين أتباعه بحسن الوعظ وتصريف القلوب اليه وكان يسلك في وعظه طريقة ابن الجوزي حتى كان يقال له جوزي اليمن وجمع كلامه في مجلدات أطلقوا عليها أسماء منها كتابه (الفتوحات المصونة والاسرار المخزونة) وكتاب (المهرجان) وكتاب (التوحيد الاعظم) ، وغيرها ، عدا ديوانه الشعري . ويقول الشرجي : وعندي من ديوانه وغالبه في التصوف . ومن شعره ماكتبه الى الشيخ أبي الغيث بن جميل :

جزت الصفوف الى الحروف الى الهجاء حتى انتهيت مراتب الابداع
لا باسم (ليلى) أستعين على السرى كلا ولا (لبنى) تقل شراعي

توفي سنة ٦٦٥ هـ .

واذا نظرنا الى انتاجه الصوفي وجدناه يتميز بطريقة فريدة خاصة بابن علوان

(١) يقول صاحب طبقات الخواص . انه سمع هاتفا يقول ليس لهذا خلقت.

نفسه وفيها من ايجاز العبارة وبلاغة اللفظ . استمع الى قوله في تعريف الصوفي ليتضح لك ذلك :

(الفقير أرق من الماء وأعلى من السماء وأخف من الهواء وألطف من الصبا وأحلى من الجناء وأصفى من الجوهر وأذكى من العنبر وأعذب من الكوثروألين من العبقر اذا خاطب ألان واذا خوطب أبان واذا استعين أعان واذا قيل له اتق الله دان ينصف من نفسه ولا يتصف لها ويفتخر بربه ولايفتخر لها عزمه أحد من السيف وهمته أسرع من الطيف وجنابه أخصب من الصيف وأحكامه مجانبة الحيف يألف ويؤلف ويعرف ولا يعرف ويعطف ولا يستعطف ويتكلف بما يكلف ومثله كالبحر ظاهره يحمل الركبان وباطنه الدر والمرجان يأكل من سمكه الآكل ويتطهر بمائه الغاسل يقرب براكبه المسافة ويأمن فيه من المخافة ذلك هو الفقير الكامل الخلق والشمايل)...

ونثره كله من هذا النوع مع بلاغه وتصويب للمعانى . أما شعره فهو البحر الخضم والمعاني الجليلة وربما أوهم شعره ميله الى فكره الحلاج الا أن هذا بعبد جدا لمن يتأمل معانيها على حقيقتها . ومن شعره في تلك المعاني البديعة قوله :

نَفَسٌ جَرى بنسيمكم ... فأطار نوم سليمكم
وأفاده بهبوبه ... كلفا بدار نعيمكم
شرب الهوى بكؤوسكم ... وأدارها بعلومكم
لما ملين بحبكم ... ومزجن من تسنيمكم
أضحى سقيما بعدها ... فارنوا لما بسقيمكم
متحركا لسماعكم ... سكران من تكليمكم
ويلومه من لم ينل ... ما نال من تكريمكم

ومن شعره في المعاني الصوفية :

معانيَ الحب سقياها ... لمن يعطي عطاياها

أتتك الخـود خـود الحب   تتلوها هدايـاها
معانيهـا مغانيهـا   وريـاها حميـاها
فكن نبتاً لمرآها   اذا أبـدت محيـاها
بسـلطان كسلطان   بـه فاقت بريـاها

ومن شعره :

نبـوية رفعت لهـا الاعناق   علويـة علقت بهـا العشاق
محجوبة كشفت لها عن وجهها   فتلألأت بشموسها الآفاق
تدعو الفروع الى الاصول بلهجة   عربيـة فتميـدها الاسـواق
روحيـة من أجلها خلق الثـرى   والماء والافـلاك والاطباق
تصفو بجوهرها جواهر بحـرها   فلهـا عـلى ظلمـاتها إشـراق
فاذا صفت وصفت غرائب حسنها   وجمالها وبـدت لهـا أخـلاق
لاحت لنـا بدلاله ومـلاله   حوراء كمل خلقها الخلاق
تفتر عن معنى عنت لجماله   منا الوجـوه وفاضـت الآمـاق
الشمس والبدر المنير جبينها   والطوق منها العهد والميثاق
والكوكب الدري غرة وجهها   وعلى يديها الاسر والاطـلاق
تشتـاق أحبابا لها وحبابيا   أفما الى سبحاتها مشـتاق
تمحو الابوة والامومة والفنى   وتميط ما تتضمن الاوراق

اليافعي

عبد الله بن أسعد اليافعي نشأ في ناحية يافع ثم نقله والده الى عدن وهو لايزال في سن الصغر فقرأ القرآن على الفقيه البصال وعلى غيره واشتغل بالعلم وحج سنة ٧١٢ وعاد الى بلده وهو متأثر بعلوم الصوفية فآثر العزلة والسياحة في البراري ثم عاد الى مكة واستقر بها حتى أدركته الوفاة سنة ٧٦٨ واشتهر اليافعي بمصنفاته الصوفية الكثيرة ومن أشهرها كتاب (روض الرياحين في حكايات الصالحين) ونشر المحاسن الغالية والارشاد والتطريز وغيره من الكتب وقد لقيت

قبولا كبيرا عند صوفية اليمن ومصر والشام والحجاز وهو على الرغم من كثرة انتاجه الشعري الا أنه شعر لايرقى الى درجة الابداع والاصالة وكمثال علىهذا الشعر الكثير نورد هنا هذه النماذج :

قفا حدثاني فالفؤاد عليل — عسى منـه يشفى بالحديث غليل
أحاديث نجد علاني بذكرها — فقلبـي الى نجد أراه يمبل
بتذكار سعدى أسعداني فليس لي — الى الصبر عنهـا والسلو سبيـل
ولا تذكرا لـي العـامرية إنّهـا — يوله عقلي ذكرها ويزيـل

وفيها يقول :

ولما توادعنا بوادي النقـا وقـد — علانا على بعـد اللقـاء عويـل
بدا بـرد قد عض عناب سندس — وفي الورد در البحر صار يسيـل
فان لا أمت منهـا قتبلا فانني — لمن حـل في وادي النقاء قتيـل
الى كم على ليلى وسعدى وفي النقا — ونجد ونعمان هواي أحيل
وليس دمي في بطن نعمان سـائلا — ولكن لـه وادي العقيق مسيـل
رمت مقلتـني غر لهـا بين رامـة — وبـين المصلى مسـمر ومقيـل

ومن شعره :

أترجى البقا ما بين سـلع وحاجر — وبيض النقا ترمى بسود المحاجر
حذار حذار يا خليـا عن الهوى — تجوز بذياك الحمى غـير حـاذر
فما جـاز ربع العـامرية خاطـر — ولادار مـي قط غـير محـاذر

وله شعر غير هذا كثير :

الـرداد

ومن أدباء الصوفية وعلمائهم الفقيه الصوفي أحمد بن أبي بكر الرداد كان من العلماء الافاضل وهو من كبار أصحاب الشيخ اسماعيل بن أبي بكر الجبرتي وخليفته بعد وفاته وكان المناضل مع الصوفية في حادثة ابن المقري الشهيرة وقد

فصلناها في كتابنا (الصوفية والفقهاء) وأخذ التصوف على الجبرتي السابق وبعد وفاة والده آلت اليه ثروة كبيرة أنفقها على أصحابه من الصوفية وزهد في الدنيا وانقطع الى صحبة الشيخ الجبرتي حتى نسي أهله وأولاده فكان يتفقدهم شيخه الجبرتي وما زال على المجاهدة والسلوك سنين كثيرة ومع ذلك كان يحج كل سنة على قدم التجريد بصحبة الفقراء وفي بعض حجاته أحرم من مدينة زبيد الى مكة ثم انكب على مطالعة الكتب الصوفيه وطالعها وعلى التصنيف فوضع عدة كتب جيدة في علم التصوف من أشهرها كتابه (موجبات الرحمة وعزائم المغفرة) وبلغ فيه درجة كبيرة من العلم ومن مؤلفاته كتاب (السلطان المبين والبرهان المستبين في ظهور الحجة على من كفَّر أهل السماع من أولياء الله المقربين) وكتاب (ذي الفقار المامور بيد ذي الفقر المنصور) وكتاب (طوالع الجبروت وطلايع الملكوت) وكتاب (لوامع الانوار المقفلة في شرح معاني الروضة المشكلة في الفقه) وكتاب (الشهاب الثاقب) وكتاب (القواعد الوفية في أصل حكم خرقة الصوفية) وغير ذلك من الكتب الجيدة في بابها وقد اسندت اليه الدولة ولاية قضاء الاقضية فلم يستمر الا بضعة شهور ثم توفي سنة ٨٢١ وللرداد ديوان شعر كبير أسماه (نحلة الطالب ومنحة الراغب) ومن شعره قوله في التصوف :

ليس التصوف مثل ما زعم الدعي الاحمق
شيخ ومسبحة وسجا د ودعوى تحرق
ان التصوف كله خلق لمن يتخلق
وهوى يجود بلا هوى وحشاشة تتحرق
وعزائم من دونها يكبو الجواد المطلق
وتدفق وتعفف وترفع وتعلق وتخلق وتحقق
ولباس ثوب العري من كل الوجود ممنطق
وشراب كأس الصبر في الـ ـعمر الصريح مروق
هذا التصوف ليس ما قالوا وقولي أصدق

ومن شعره :

دع الشعراء لا تنظر اليهم ... وخلهم لعلام الغيوب
(ألم تر أنهم في كل واد ... يهيمون) الحقوب مع الحقوب
وانهم يقولون الذي لا ... تقوم به الفعال من الكذوب
ستشهد ألسن منهم عليهم ... بما أجروه من قبح الذنوب
فلا تطلب لهم خصما قويا ... يخاصمهم سوى الرب الرّقيب

وقد توسع صديقه العلامة محمد بن محمد المزجاجي في أخبار الرداد وشعره في كتابه (هداية السالك) .

أعلام الشعراء في عصر بني رسول

ابن حمير :

الشاعر محمد بن حمير من شعراء الجيل الاول في العصر الرسولي واذا ذكر هذا العصر فلا بد أن يذكر شاعره ابن حمير أشهر من نظم القصائد الجيدة .وكان ابن حمير يسلك في حياته جانب الفروسية والاقدام وربما عد نفسه نداً لجماعة المشائخ على الرغم من مدحه لهم وتقربه للملك المنصور وكان يفتخر بشعره واعتبر نفسه رب قصائد لاتجارى يقول :

شاب ابن حمير وهو رب قصائد ‏ ‏ ‏ عرب كواعب مثلها لا ينظم

ويصفه من ترجم له بقوة البديهة وفظاعة اللسان وقد حدث أن اجتمع هو والشاعر المصري ابن العطار في مجلس الملك المنصور فقال ابن العطار للمنصور يامولاي اني شاعرك من الديار المصرية وأراك تفضل ابن حمير علي وتنعم عليه أكثر مني . فقال المنصور : انه حاضر البديهة ، وأنتم يا أهل مصر وان كنتم أهل فضل وأدب الا أنكم تبطئون . ثم التفت الى ابن حمير وقال له : ما تقول ؟ فالتفت ابن حمير الى العطار وقال ارتجالا :

مستشعر بعمامة معقودة ‏ ‏ ‏ لو بعثرت ملت الفضاء خميرا

وأبوك عطار فما بال ابنه ‏ ‏ ‏ يهدي الصنان الى الرجال بخورا

وكان ابن العطار به شيء من ذلك فضحك السلطان المنصور وقال أجبه فافحم .. والامثلة على قبح لسان ابن حمير كثيرة وقد اكتسب دلك من اقدامه وقوة شخصيته وقد اعترف ابن حمير بهذه الخاصية في شعره فقال مخاطبا أحدهم:

والله ما يثنون عنك بمثل ما ‏ ‏ ‏ أثني ولا يهجون مثل هجائي

وقد لقي أذى كبيرا بسبب لسانه فقد حدث له أن هجا أحد مشائخ الاشاعر أو نسب اليه هجاءه فتخوف وهرب الى الجبال مدة طويلة وعمل قصيدته (المعذرة) يعتذر فيها عن ما نسب اليه فيها ويقول :

خليلي ما جانبت فومي عن علا — ولا عن ملال حار فكري فيه
ولا لي بالقيل اليماني عائض — وأي أب للطفل مثل أبيه
ولكن مقال من سفيه مذمم — وحسبك أن ترضي مقال سفيه

فقبل عنه ذلك الشيخ عذره بعض الشيء ثم أنه اجتمع به ذات يوم فسمعه ابن حمير ينشد أبيات المتنبي حيث يقول :

واحتمال الأذى ورؤية جانيـ — ـه غذاء يشوى به الأجسام

فلما سمعه ابن حمير نفر عن البلاد وفارق أولاده واحتمى ببعض مشائخ العرب في الجبال والتهايم واستشفع بهم فساروا معه الى الشيخ ناصح الدين بن معيبد الى مدينة (فشال) واستشفعوا له حتى عفى عنه هذا الشيخ ونظم ابن حمير في هذا المناسبة قصيدة جيدة يقول فيها :

أعاني هوى ليلى وكيف أعاني — وأدنو الى من ليس بالمتداني
وأدعى لها وأذام اذ هي جارتي — واذ خدرها المضروب قيد عنائي
وما خنت ليلى يعلم الله سرها — ولا ملت للواشي غداة لحاني
ولا غيرتني شقة البعد بعدها — اذا غير الاخوان جور زماني
ولا اعتدت تسهيد الجفون وانما — جفتني ليلى والمنام جفاني
دعاها النوى لما دعاني لها الجوى — فلبيت كما لبيت لما دعاني
وكم من محب وهو غير محبب — وحان على من لا يرق لحاني
خليلي من سعدين بت رقدتما — وبت أنيم البرق وهو يماني
فلو كنتما مثلي مشوقين أدمعي — لأشجاكما مسراه حين شجاني
أعينا على مابي من الهم واشكرا — على ذاك من عافاكما وبلاني

فان خليلي من يقاسمني الاسى | ويشركني في نائب الحدثان
أتتني من القيل اليماني هدة | تشيب رأس الاسود بن قتاني
وزأرة ضرغام ببيتة لو دعا | بنجران لانهدت سقوف عمان
ومن أنا حتى أجحد ابن معيبد | نداه وكم بر لذاك أتاني
ومن أنا حتى أجحد الشمس نورها | وأغمط جود الغيث ذي الهملان
وما كان مني في أبي بكر ماروا | ولكن شأني عنه أحقر شان
أأركب أمواج الهلاك تعمدا | وأفتح شدقي والرماح دواني
أأكل لحوم الافعوان مسمما | ولو مس جلدي جلده لكفاني
وأكفر احسان الذي في زمانه | عرفت وأعمى الحاسدين حساني

ثم تمضي القصيدة في الاعتذار لهذا الشيخ وفي آخرها يشير الشاعر الى أولاده وأسرته التي تنتظره بفارغ الصبر فيقول :

وخلفي يا ابن الاشعري صبية | كزغب القطا كل يود يراني
وشيخ حنته النائبات وشيخة | بعز عليهم أن يشط مكاني
وقد راعهم ما قلت فيك فكلهم | على خده عيناه تنهملان
تصدق عليهم أو علي لأجلهم | وسكن قلوبا جمة الخفقان
وآمن فكم آمنت روعة نافر | وأطلق فكم أطلقت روعة عاني

وقد عرف ابن حمير بمهاجماته مع أقرانه من الادباء ومر بنا هجاؤه لمسلم بن العليف وهو هجاء يدل على طبيعة ابن حمير المتحفزة ويقول الخزرجي إن أكثر شعر ابن حمير في المجونيات والخلاعة وكان من الشعراء المحترفين بشعرهم وله خيل هزيل يرحل عليه الى شيوخ رؤساء القبائل ويمدحهم بالقصائد الجيدة بغية الجائزة وقد مدح جماعة من هؤلاء المشايخ منهم الشيخ ناصح الدين أبو بكر بن معيبد شيخ الاشاعر بفشال والشيخ راشد بن مظفر السنحاني شيخ سنحان والشيخ عون بن حسن الزميلي وسهيل بن الوليد المزني وأولاده ومفرج بن الجندب ومدح من أعيان الدولة الرسولية الملك المنصور عمر بن علي والملك المظفر

في أول حكمه ومدح الامام أحمد بن الحسين ومن الصوفية الحكمي والبجلي صاحبي عواجة وفي أواخر أيامه تحسنت حالته المادبه وقصده الشعراء من كل صوب حتى قال فيه الشاعر ابن هتيمل :

سيدي ما دمي عليك حرام   ليس في سفكه عليك أثام
أنت أولى مني بروحي فاحكم   لك فيها فما الي كلام

الى أن يقول :

لا نبا الغيث عن (سهام) ولازل   يمج المباه ريا (سهام)
بلد توجد المروءة والثروة فـ   يها ويعدم الاعدام
جمعت في محمد آله الفضل   فحارت في وصفه الافهام
الجواد الجواد والسيد السيد   والصارم الحسام الحسام
راعف السيف والبراعة تمضي   بيديه السيوف والاقلام
ساحة يشبع الضيوف ويربو الـ   طفل فيها ويرتع الايتام
واذا ما عددت في شرف السعي   عصاما فأين منه عصام
انما لابن حمير قدم السبق   وحيدا أو تستوي الاقدام
قمت فردا بدولة المنصور   بالشعر حين عز القيام
بقواف تهز من أعجز الجيش   الرسولي وهو جيش لهام

وفي هذه القصيدة اعتراف من شاعر لشاعر وقد أبانت عن كثير من حياة ابن حمير على الرغم من ندرة المصادر التي ترجمت له فقد عرفنا أنه صاحب سيف وقلم لا كما يوحي به شعره من تضرع واستعطاف لشيوخ القبائل وانه صاحب ثروة ورخاء مادي بحيث يقصده الضيوف والاطفال والايتام في كل يوم وانه قام بجانب الشعر في أول الدولة الرسولية مع قلة الشعراء فأيد بهذا ما قلناه في أول حديثنا عن ابن حمير من أنه أقدم شعراء الدولة الرسولبة .. واذا عدنا الى اعترافات الشعراء بفضل ابن حمير نجد الشاعر ابن سحبان وفيه شبه كبير من ابن حمير يفضله على الشاعر ابن هتيمل فيقول :

أما فصائد قاسم بن هتيمل — فمذاقها أحلى من الصهباء
هو شاعر في عصره فطن ولكن ابن حمير أسعر الشعراء

شعره :

لابن حمير شعر كثير لكن أكثره قد ضاع من بين ماضاع من تراث العصر الرسولي والموجود من شعره لايخرج عن دائرة المدح والرثاء ، وبقاء هذا النوع من قصائده يتصل أساسا بالاشخاص الذين مدحهم ورثاهم ، ومن المتبقي من شعره نستطيع أن نكون رؤية صادقة لهذا الشعر فهو شعر يتميز باشراق الديباجة، وقوة المعاني وجزالة الالفاظ وربما حاكى في ذلك أسلوب المتنبي إلا آن أثره ضعيف عليه فيما عدا ذلك .. وابن حمير مقلد مغرق في التقليد حتى انه ربما أمعن في تقليد الشعر الجاهلي ، ويبدو أثر المدرسة العباسية جليا عليه . انظر الى قصيدته في مدح المنصور عمر بن علي الرسولي فلا تجد فرقا بينها وبين قصائد العصر العباسي في عصره الزاهر . يقول ابن حمير في قصيدته :

مالي حفظت العهد من أسمائي — وهوى ابنة البكري غير هوائي
ما رمت صاحبة سواها انما — أسماء حاولت البديل سوائي
أبدا أحوطه الهوى وأصونه — وتخون فانظر غدرها ووفائي
ميالة الاعطاف بل منهالة الا — رداف بل مهصومة الاحشاء
كالظبية الأدماء بل كالبانة الـ — ملداء بل كالرملة الوعساء
خلت الصباح على الاقاح وبردها — فبه قنا ونقا من الانقاء
لم يدر عن ليلي الطويل وما بها — ما بي من الاشواق والبرحاء
كبد يحرقه النسيم ببرده — وأظالع طويت على الرمضاء
ولقد سئمت على الزمان تغيبي — ومللت في أرض الهوان ثوائي
وأدرت طرفي في البلاد فلم أجد — حرا اذا أدعو يجيب دعائي
يا ركب بالجند الخصب وبارق — تهمي سحائبه صباح مساء
وبحصن (دملوة) المنيع ذماره — ملك تسمى أكرم الكرماء

ميلوا الى المنصور لا تتحدثوا عن برمك وأبي عدي الطائي
نادوا أبا الفتح الذي فتحت له (عدن) الدعاة وبكة البطحاء
والهند والسند البعيد ثناؤه فبهم وأيم الله خير ثناء
ذا ثالث العمرين هذا تالت القمرين هذا أعظم العظماء
من حيت سار رأيت وابل عسجد أو حيث صال رأيت بحر دماء
الله ملّكه وليس بسالب منه الذي أعطاه من نعماء
ما بال علوان نبحن كلابه وعوى عوي الذئب في البيداء

ثم تمضي القصيدة في تمجيد الملك المنصور ومآثره .. ومديح ابن حمير من هذا النمط حيث يسلك في ديباجته طريقة الشعراء الجاهليين من غزل وتشبيب ثم يعود الى ممدوحه ويذكر مآثره وأعماله وربما أفادت هذه القصائد ناحية تاريخية لم تتحدث عنها كتب التاريخ . وقد رأينا في آخر بيت أوردناه من القصيدة اشارته الى حادثة تاريخيه وهي خلاف الملك المنصور مع الشيخ علوان الجحدري السابق الذكر .. ونظرا لقيمة قصائد ابن حمير وندرة وجودها في المصادر سنحاول إيراد كثير من القطع الشعرية التي وصلتنا من شعر ابن حمير .. يقول في قصيدة يمدح بها الشيخ الفضل بن مظفر بن مسعود السنحاني :

أغيب بقلب عنك ليس يغيب وأهجر منك الربع وهو حبيب
وأبكي اذا عفى الحمام وحاله وحالي شيء ثاكل وطروب
يغرد فوق الايك والنوح ديدني قلوب بكت لما سررن قلوب
وفارق ليلى وهو ينظر إلفة وما يتساوى آهل وغريب
ولا حين لي لاموا على الحب قل لهم كذا الناس قبلي مخطىء ومصيب
يقولون لي تب هل بعد خمسين صبوة فقلت هل الشيخ الظريف يتوب
رأتني ليلى والبباض بعارضى فصدّت وانكار الشباب عجيبُ
وهل هو الا لونها صبغت به ذوائب رأسي والفؤاد يذوب
أطلت مقامي بالغوير فكان لي بأشيخ مصر قبل ذا وخصيب

وكنت اذا ناديت يا فضل مرة   أجاب فنى للهاتفين يجيب
فقد مر بي عام وعام ولم أزر   جوانب داك السوح وهو رحيب
حبست القوافي دون سيدها الذي   لها في يديه منصب ونصيب
بحبت العطايا البيض منهن منفل   فسيح وطماح اللجام حنبب
وحيث الجلال الضخم والرجل الذي   تنادي العوادي باسمه فيجيب
فلم يمس جار الفضل تحت مذلة   ولا فاته منع هناك وطيب
وليس يقول الفضل للضيف ان غدا   ترحل فان الحي منك قريب
ولكن هبات عن مظفر أسندت   قديما وفي ابن النجيب نجيب
وبيت سماح كالقناة تتابعت   كعوب على آثارهن كعوب
توارثه آل اليماني هكذا   فأنجب شبان وأنجب شيب
وحل بيمنى الفضل ذاك جميعه   فما لجسال الدين قط ضريب
أتنكر (سنحان) مقامك بعدما   طلعت وقد وارى أخاك غروب
أثرت هناك الثأر يوما خصيصة   تشقق جيوبا عنده وقلوب
أمرت جياد الخيل تمحو ديارهم   ففي كل دار ناعيان وذيب
وقمت مقاما سر (راشد) في الثرا   فطاب لهم نفسا وأنت تطيب
فقد عاد بالشرق السماح كعهده   ولم يبق في وجه (السماح)قطوب
فأشيح ممنوع الذمار كعهده   وبرت (خدار) للسماك نسيب
نعم لاتغب يا فضل عنا ولا تزل   مقيما بخير ما أقام عسيب
فكل مديح في سواك مضيع   وكل رجاء في سواك يخيب

في هذه القصيدة يشير الشاعر كعادته في مدحه الى حادثة تاريخية وقعت للممدوح وتتعلق بالثأر وأخذ الشيخ القصاص من قتلة أخيه الشيخ راشد • ولا أدرري اذا كان الممدوح قد رحل من مدينته سنحان الى بلد آخر كما تشير اليه أبيات ابن حمير أم مجرد تشبيه عادي • ومن مدائحه قصيدة في الشيخ محمد ابن أبي بكر الحكمي المتوفى سنة ٦١٧ هـ أحد شيوخ التصوف في ذلك الوقت:

رأى البرق من نجد عشيــة رفرفا فأمسى عميد القلب حيران مدنفا
وهجن له شوقا حمايم هتـــف كشمن دفين الوجــد حتى تكشفا
لقد كلفــوه فــوق ما يستطيعه ولو قنعـوا بالبعض مما به كفى
خليلي من سعد عفا الله ما مضى فلا تحدثا شـرا جديدا وقد عفا
أمستحسن عذلي اذ الورق لي شدا على البان من نجد أو البرق لي هفا
وهل صاير دمعي اذا جـاد دمعه ذكرت بها إلفـا قديمـا ومألفـا
فان امرأ القيس بن حجر بعلمكم دعا صاحبيه يوم سقط اللوى قفا
وقيس بكى الاظعان يوم عبورها على جبلي نعمـان حتـى تلهفـا
وللناس أشجان فلو هـان نازح على فاقد لم يبك يعقـوب يوسفا
وما لمت قلبي يوم سار مسـيرهم ولكن ألوم الجسم حـين تخلفا
وقد كنت أخفيت الهوى وشجونه فأظهر هذا الدمع منـي ما خفى
فيا بانة الروحـاء نامي بغبطـة فعيني عنها قد نفى النوم ما نفا
ولم تر عيني بعدهم حسنا يـرى ولم تلق نفسي عن هوى القوم مصرفا
أبوها فلم تـأب الحنين اليهـم جفوها فقالت يا فديت على الجفا
وما حيلتي فيهم وفي وكم كـذا أنوح على ربع وفي طلل عفـا
ذكرت زمان ابن الحسين وكان لي بمعرفتيـه قبلـة ومعـرفا
وعصر رفيق الخضر اذ كان فالذي أخا لأخٍ باق على حالة الصفا (الخ)

ومن مدائحه في الشيخ المذكور:

من مجيري مـن شـبيه القمـر مايسـا فوق الكثيب النضـر
من عذيري من هوى ذي حـور لحظـة يفعـل فعـل القـدر
لو رأيتـم خـده مهمـا بـدا لرأيتـم أسـمرا في أعفر
لـو شهـدتم عطفـه في ردفـه لرأيتـم زهـرا فـي نهـر
عامـري أصـله من عامـر دارهم بين الغضا والسمـر
سكنوا منـي السوادين فهـم في فـؤادي ان نأوا عن بصـري

وأعاضوني بنومي سهرا فالى كم أشتهي واسهري
يا خليلي الى كم ذا وذا تنقضي في الاماني عمري
كلما لاح بريق بالفضا قل عن أهل الغضى مصطبري
كلما عرض ركب بالحمى قلت يا ركب عسى من خبر
فسقى الله قبابا بالغضا وسقى الله الغضا من شجر
بدعي الشعر رجال طالما أغرقتهم قطرة من مطري
لا زهير فيه يقفوني ولا لجرير مركض في أثري
ليس من ينزفه من زاخر مثل من ينحته من حجر
أنا في القوم أخير أول وخيار الليل وقت السحر
وادا ما امندحوا أمثالهم فامتداحي في رفيق الخضر
وعلى الطور (العواجي) أرى نار موسى في الدجا المنعكر
لجناب الشيخ حجي حبذا هو من حاج ومن معتمر
ذاك سر الله والقلب الذي هو ظل الله فوق البشر

ومن شعره في مدح المنصور :

علي تعتب سعدى في تنائيها فاسمع شكيتها واسمع تجنيها
قالت رضيت ببعدي عنك لو قبلوا مني الفداء بروحي كنت أفديها
لم يبك يعقوب إذ جاء بنوه عشا بلا أخ كبكائي يوم فقديها
بيني وما بين سعدى شاهدين على ما كان سرحة نعمان وواديها
أيام كنا جميعا تحت ظلهما أضم تلك وأملي في من فيها
وفوق وجنتها خدي ولبنتها زندي وسر قميصي في تراقيها
ثم افترقنا فما من تلك لي خبر يا سعد اين حدى الانضاء حاديها
أسائل البرق عنها في ترفرفه والسحب حين غدت ودقا غواديها
حتى الحمايم في الاغصان انسجعت لإلفهنّ حسبت الورق يعنيها
بالله أقسم اني من تذكرها تمضي على صلاتي لا أصليها

يا ليت أن النوى يدني تباعـدها أولينها تسـسع الداعـي فأدعيها
يا رائح السرق عندي حاجة ومعي رسـاله فعسـى عنـي تؤديهـا
بلغ الى عمر شوقي وقـص لـه توقي وعبنـاك منهـل مآقيهـا
ما هبت الريـح الا قمت أرسلها يا ريح ان جزت في صنعا فحييها
وان مررت بقصـر حلـه عمـر فقبـل الارض تعظيمـا وتنزيهـا
وشاهدي ثم ملكا حـل أو ملكا أدنى مواهبـه الدنيا وما فيهـا
مولى التهايم مذ فارقت موحشة حتى القصائد قد ضاعت قوافيها
ان القصـائد في الدولات تحلية بمـن أعـزك لا أهملت أهليهـا

ومن مدائحه في المظفر :

يا معلم الاحبـاب نعـم المعلـم أتـراك عما في ضـميري تعـلم
يا معلم الاحبـاب خبـرني بهم أي المواطـن من تهـامة خيموا
هم شرقوا في سيرهم أم غـربوا أم أنجدوا في بينهم أم أتهمـوا
ما أنصـفوني يرقدون وسـاهر طرفي وما كالسـاهرين النوم
وكل حالي إن وفوا أو إن جفوا لا أوحش الله المنـازل منهـم
قالوا بكيـت دما ونحن مدامعـا قولوا لهم ما الدمع يشـبهه الدم
قالوا كتمنا الحـب حـين أذعته من سـره في خفية هـل نكتـم
ولو اننـي أخفيـت حب رفاقتي نـم السـقام وفازع لا يسقـم
وأهالهم عـرب اذا ما بـارق شاموه حشـوا للرحيل وأورمـوا
ما كان لي أسف على ترحالهـم لولا غـزال في الهوادج أحـوم
يمشي به غصـن ويقعـده نقـا ويبـين من تحت القناع ويظلـم
لم أنـس قولهـم بجرعاء الحمى والعيس تحدو والقلايـص تنهـم
شاب ابن حمير وهو رب قصائد عـرب كواعب مثلها لا ينظـم
ماذا يضـر الباز شـهبة لونـه وبما ترى افتخر الغراب الاسحم
أنا مادح الملك الرسولي الـذي يمنى يديـه من السحائب أكرم

وخدمت منصور الملوك وبعده … أنا لابنه الملك المظفر أخدم
سلمان هذا البيت لا متأخر … لي عن محبته ولا منقدم
ولئن بكى عني الغوير وأهله … وعدمت من فيه يزار فبنعم
فتعز بل حب امام ركائبي … وهناك يوسف والغناء ومغنم
والخيل تصهل في المرابط حوله … هاتيك شيظمة وهدا شيظم
ودروع داود اليه مضافة … والبيض تلمع والرماح تقوم

ومن شعره :

ما ان ذكرت الزمن الأوّلا … وعصر ليلى والصبا المقبلا
الا جرى دمعي حتى يرى … في كل خد واحد جدولا
قد كنت أغليه فأرخصته … والدهر قد يرخص ما قد غلا
يا ذي التي ترنو بعين المها … كمثل ما يعطو نجيد الطّلا
حسنك يكفيك حليا فلم … دملجك الصايغ بل خلخلا ؟
وشعرك الفتان يا تلك لم … عثكله الماشط بل رجّلا
وثغرك السلسال لم حرموا … علي ذاك البارد السلسلا
قالوا هويت العيس من أجلهم … نعم وقصدي الهودجَ الأوّلا
لأن فيه غادة طفلة … ترمي فتصمي مني المقتلا
ما أتعب العذال يلحونني … فيكم ومن ذا يسمع العذلا
لم تشرعي نهدك الا ثنى … سنانه العسالة الذبلا
وسيف ألحاظك لا تنتضى … إلاّ وأفني السيف والصيقلا
آه على عيش برمل الحمى … وهل مفيدي قول آه علا
يا صاحبي رحلي كم ذا الكرى … ما تسمعان الديك قد حيعلا

ومن شعره وفيه اقتباس لبعض الآيات القرآنية :

لون الرياحين ولين الغصون … أرخصن مني كل دمع مصون
وعاذلي في لومه عادلي … قلت لقد هونت ما لا يهون

يفتنني تفتير ألحاظه وما فتور اللحظ الا فتون
تقول عيناه لعشّاقه (هيهات هيهات لما توعدن)
وردفه يقرىء من خلفه (لمثل ذا فليعمل العاملون)
ومنه فوق الخد سطر ترى ما لكم يا قوم لا تعشقون
قلت وقد تيمني حسنه وأهله عني لا يشعرون
ما ذا جمال هذه فتنة ما ذا هوى يا قوم هذا جنون
يوسف ان قطع أيد فقد قطّع ذا أكبادنا بالعيون
ماذا يشاهد ردفه والحشى وحاجبيه أقسمتك الشجون؟
تنظر نقا تهتز فيه قنا ونرجسا حوليه نون ونون
يا رايد الحي بحديث لنا اين استقل الحي والظاعنون
هم أوحشوني بعد أنس وهم خانوا وما خلت مليحا يخون

ومن شعره :

نوح الحمايم على الاغصان يشجيني والبرق يضحك أحيانا فيبكيني
ما كان لي ولخوط البان أعشقه ما كان لي وسهام اللحظ ترمبني
يا دار زينب والدنيا مفرقة حييت فيك غزالا لا يحييني
يا دار زينب بي داء أكتمه فليت شعري من منه يداويني
أظهرتمو لي نكرا بعد معرفة وكان أهون من ذا الشيء يكفيني
وقد أطلت عبوري حول داركم عطشان لو سمح الساقي فيسقيني
عرضت في قنوات اللحظ عاسلة هيفاء تلعب عطفاها من اللين
ما دى العجائب ماهذي الذوائب ما هذي الترائب في حسن وتحسين
لدن القدود ورمان النهود الى ورد الخدود ونفاح البساتين
وعادل فيك لما ان وصفت له عينيك عاد بعنيه يواسيني
بكيت حتى بكى مثلي وأحزنه ما بي وعناه مثلى ما يعنيني
تبمته مثلما تيمنني بفم وحاجب مثل قوس الترك مقرون

سبحان خالق هذا الخصر منجدلا جدل العنان وهذي أعين العين
ذا الثغر ذا الشعرهذا النحرهذبني ذا الخصر أخرجني والله من ديني

وشعر ابن حمير كله جيد وهو في الذروة من أدب العصر الرسولي عامة •

ابن هتيمل :

الشاعر القاسم بن علي بن هتيمل ثاني الشعراء الكبار في العصر الرسولي وخليفة ابن حمير وتلميذه وكان قد تعاصر معه وان كان الاول قد تقدمه بسنوات قليلة • وهو يعترف بفضل شيخه الاول فيقول :

أنا لولاك ما عرفت وما السيل بشيء في الأصل لولا الغمام

ويبدو أن ابن هتيمل كان صاحب نقافة واسعة بجانب موهبته الشعرية وربما استعمل في شعره بعض المصطلحات العلمية المتداولة عند علماء الكلام والفقه ، كقوله :

يا صفقة الغبن غرتني جويرية فبعت قلبي منها (بيعة الغرر)

وكقوله :

عشقتك أبكار العلا فنكحتها طفلا وليس نكاحها (بشغار)

ولم تحدثنا المصادر عن حياته بأكثر مما حدثنا هو عن نفسه في شعره •• فمن شعره نستطيع التعرف على أهله وأسرته • وكانت له زوجة يحبها حبا جما ماتت أثناء الوضع فرثاها بالعديد من قصائده ، فمن ذلك قوله في احداها :

بنفسي عصر يوم السبت شمس تبلج في جوانبها شهاب
من الخفرات يخفى الليل منها اذا ما جن ما لا يستراب

ومن شعره نعرف أن له ولد اسمه (سلطان) وله اخوة وأخوات الى غير ذلك ولم تشر المصادر الى سنة ميلاده ووفاته إلا أن الباحث العقيلي يخمن أن ميلاده في أوائل القرن السابع ووفاته نحو سنة ٦٩٦ هـ •

شــــعره :

تأصل شعر ابن هتيمل في التراث اليمني ومنهم من قلده وعارضه ومنهم من غناه في المجالس ولا أدل على ذلك من قصيدته الرائعة التي أولها :

أنا مـــن ناظـــري عليـــك أغـــار   وارِ عني ما حال عنــه الخمـــار
يا قضيبـــا من فضـــة يقطف النر   جس مـــن وجنتيـــه والجلنـــار
صـــن محيــــاك بالنقـــاب والا   نهبتـــه القلـــوب والابصار
من معيري قلبا صحيحا ولو طـــر   فة عـــين إن كان قلبـــاً يُعـــار
إنما العيـــش والهـــوى قبـــل أن   ينجـــم نـــدي أو يـــدب عـــذار

وقد غناها في اليمن أكثر من مطرب وتفنن في تلحينها كبار الملحنين مـــن القدماء ، وكان الشاعر الغنائي عبد الرحمن الآنسي المتوفى سنة ١٢٥٠ يشبـــد برقة قصائد ابن هتيمل وعذوبتها فيقول :

يضاهي قديمـــا رقـــة ابن هتيمـــل   على شرفاء المخلاف منـــه برود

وقد اشتهر شعر ابن هتيمل شهرة واسعة حتى أن النساء كـــن في عصره يحفظن ديوانه وكاد أن يغطي على شعر شيخه ابن حمير ولا نجد سببا لذلك سوى هذه الشاعرية القوية التي تميز بها أديبنا وكأنه أحس في نفسه هذه الموهبة فقال مخاطبا شيخه ابن حمير :

نحـــن سيـــفا غمد وقد علـــم العـــا   لـــم أنا ذو النـــون والصمـــام

فهو قد وضع نفسه في مصاف ابن حمير .

وكما هي عادة الشعراء في ذلك الوقت فقد اتصل بأكابر عصره لمدحهـــم وكانت مدائحه في أول الامر لأمراء بلده من أشراف المخلاف السليماني ولم يتصل بملوك الدولة الرسولية الا في أواخر أيامه أو في سن الشيخوخة ونحن نستدل على ذلك من شعره حيث يقول متغزلا :

نأى عن لمتـــي البيضـــا خضيبـــا   وعرض اذ رأى شـــعري خضيبا

وقال أتجمع الأهواء فيما علمت بكونه رشأً وديبا
وأفسد ما طلبت له صلاحا سوى جمع التببية والمشيبا

ويكثر ممدوحيه من أمراء المخلاف السليماني وملوك الدولة الرسولية وكتابها ووزرائها وعلمائها ومدح الأئمة في الجبال وبعض شيوخ القبائل وربما مدح الخصمين في آن واحد فأتى شعره متناقضا مع نفسه فهو حين يعرض بالملك المظفر في قصيدة مدح بها خصمه الامير قاسم بن علي الذروي ويشير الى قتل المظفر فيقول :

لم يكن يبلغ المظفر لولاك رؤوس صدرن من « خان داره »

نجده يمدح المظفر بقصيدة يهنيه فيها بانتصاره على ممدوحه السابق الامير قاسم بن علي الذروي •

وهو في كل مدائحه صاحب صنعة أدبية وثقافة واسعة وربما استغل كل ثقافة الشاعر ليستعين بها في مدحه فهو مثلا يركز على الناحية التاريخية فيشير الى حوادث مشابهة لتلك التي يتحدث عنها ، فيقول في مدح الامير أحمد بن المتوكل صاحب ظفار :

غير بدع إن أخلدت فرق الكفـ ـر الى زخرف الحياة اعترارا
قوم موسى من بعده اتخذوا العجـ ـل إلهاً واستعجلوه خوارا
وأصموا الآذان عن نهي هارو ن وضلّت عن دين عيسى النصارى
ودعا نوح قوم نوح جهارا فأصروا واستكبروا استكبارا الخ

ومافتىء يفاخر بشعره ، شعر كبار الادباء في العصور الزاهرة مما يدلنا على كثرة مطالعته لدواوين الشعراء فهو قد قرأ ديوان البحتري وأبي تمام بدليل قوله في بيوته الآتية :

فدونك حرة الاعراق تحلو بقلب حليلها بكراً عروبا
تبرج ان تحجبت القوافي ولم تخف الوليد ولا حبيبا

ويقـــول :

أتاك وان كنت الغني عن الـــذي يجيء بتوفيـــق الصنـــاع المحيّر
من اللاء ما غنى الوليد بن بلبـــل بهن ولم يخلع على ابـــن مديـــر

فدل كل ذلك على شغفه بمطالعة دواوين الشعراء في العصور الزاهرة •

وربما استعمل شيئا من الفلسفة وأبان عنها في شعره • فهو من رأيه التغرب عن الاوطان فان صفو العيش لايكون الا في الكد والاجتهاد ، فيقول:

تغرب فصفو العيش فيكدر النوى وباعد فلولا البعد ما عشق القرب
ولا تكترث ان ناب خطـب فربما أتاك الرضا منحيث أعجزك الخطب

ويفلسف الحياة والشباب فيقول : إن صفو العيش وسعادته لاتكون الا في فورة الشبـــاب :

انما العيـــش والهـــوى قبـــل أن ينجـــم ثـــدي أو يدب عذار

وهذه فلسفة عادية لانجد فيها مايلفت الانتباه وهي غاية ما يأتي من شعر ابن هتيمل وربما أعار المجتمع والناس بعض اهتمامه فهو يصور فقر أهل بلدتـــه وجوعهم فيقول انهم لايعرفون من الجوع والفقر ما هو (القمح) فيقول :

وأغنيتني من معشـــر لو سألتهم عن القمح لم يدروا من العي ما القمح

وكان ابن هتيمل واحدا من أولئك الادباء الذين دعوا الى أخذ نصيبهم من الحياه والتمتع بمباهجها وربما وجدنا عنده ما يشبه المجون الذي عرف في أدب العصر العباسى لكن هذا قليل جدا في شعر ابن هتيمل وأنت لاتكاد تظفر بشيء من هذا الا في اعترافاته القصيرة كقوله :

فقل للنفس ان طمعـــت جمـــاحا تمادي في الغـــواية ثـــم تـــوبي
ولا تستشعرى أبـــدا قنوطا فان الله غفار الذنـــوب

وكقوله :

العمر عارية فاغنم سرورك ما　　دام السرور له دول الحزن
تمضي الحياة كأن لم يكس لابسها　　عن بزة المهد الا بزة الكفن

وهذه نغمة نواسية سنجد ابن فليته من بعده يتوسع فيها ويدعو الى الاستهتار جهارا .

ومع ذلك فان ابن هتيمل قد شرب الخمرة في شعره وتغنى في وصفها ودعا الى شربها في قوله :

قم فبادر بها صياح الدجاج　　واسقنيها صرفا بغير مزاج
وأدرها كأنما القدح الدا　　ئر ملآن من نجيع الشجاج
بنت كرم تسعى بها بنت عشر　　لم تعالج بالماء أدنى علاج
صبغت زرقة الزجاج الى أن　　صار لون السلاف لون الزجاج

ويقول إن أحلى مافي الحياة البكور بالكأس :

أحلى الحياة وأحلى العيش ما بكرت　　فيه الكؤوس على شرب وجلاس

وكما تفنن في وصف الخمر فانه تغزل في الساقي :

من كف أغيد في خديه مفسده　　منحمرة الورد أو منخضرة الآس
يرتج حقف النقا من تحت مئزره　　عن قد أملد كالخروب مياس

وهذا الساقي يكون في الغالب فتاة جميلة يفتتن الشاعر في وصفها فيقول:

وساقية عقدن الحقف منها　　بخوط البانة اندمج اندماجا
وان قبلتها لم تلق الا　　مجاج النحل في فيها مجاجا
تظن الكف منها مشط عاج　　مقمعة البنان وليس عاجا

ومع ذلك فهو أحيانا يستعيض عن شرب الخمر بمواصلة الحبيب فيقول :

ومالي والمدامة وهي حجر　　ومفسدة وريقتك المدامة

والغزل مادة كبيرة في شعره ، وفي هذه المقاطع خير دليل على مانقول :

ناب عــن عــذره ســواد عذاره اذ إزار الشبــاب تحــت إزاره
ورمتــه العيون فالنــوم يخطــو ه لإدبــار ليلــه مــن نهــاره
عوضــته الايام بالمســك كافــو را وعفــت سفاهة بوقاره
يا لقومي كم لا يزال من الحــب قتيــلا لا تأخــذون بثــاره
ما دمي في طــلا الرجــال ولا عنـ ـد عــزيز أطله بمغــاره
في خصاص النقاب من فتن الأعــ ـين مــن خصــره من زنــاره
قمــر أطلعتــه في فلــك الأز رار أطــواقه على أزراره
تقطف الورد بالنواظر من خــديه بــين احمــراره واصــفراره
وَقَدُّ قلبي من وَقْد وجنته الغــض ومــن جلنــاره جــل نــاره

ومن شعره في الغزل:

يا ملبســي ثــوب الغــرام وسالبي بالحســن قلبــي خــل ســلبي
ما قلــت قــولا لم أطعــه وهل دعوت فلــم ألبي دون صــحبي
ما الفرق انك لم تحلــل نهبهــم وتحــل نهبــي ايــش ذنبــي
أنا مــن وعيدك والوعود أحيص في صدق وكــذب فاحتفظ بــي
الله حســبك في الــذي زخرفت من ملــق وعتب وهو حســبي
بالله والشــعر الاثيــث والخصــر الاقــب لــم شــعبي

وأرح علي فما اصطميت من الايام يكفيك كربي غير حبي
أوصيك يا ريح الجنوب اذا قضيت الآن نحبي لا تهبي
لا تنفضي عذب البشام على غدير غير عذب

وله غير ذلك من الشعر الجيد في الغزل ولو أن ديوانه طبع وتداوله الناس لأكثرنا من نقل شعره هنا •

ابن فليته :

لم يرج مذهب التهتك والمجون في الشعر اليمني فأنت لا تكاد تقف على قصائد لشعراء اليمن في المجون كالتي عرفت عن أبي نواس وابن سكره الهاشمي وغيرهما من شعراء العصر العباسي والمملوكي في مصر والشام • واذا وجد للشعراء في اليمن شيء من ذلك فهو لايكاد يخرج عن دائرة الغزل البريء ووصف الخمر والتغني بسقاته وندمانه ، وهو أمر لايكاد يذكر بالنسبة لما للشعراء خارج اليمن من تهتك واستهتار :

وعدم انتشار هذا النوع من الادب يعود في رأيي الى أمرين :

أولهما : عدم استساغة أدباء اليمن لأدب مدرسة البديع الرائجة في مصر في ذلك الوقت ، ومن ثم لم يتأثر الادباء بأصحاب تلك المدرسة كالقاضي الفاضل والعماد الاصفهاني وابن نباته الحفيد والصفدي ومن سار سيرهم بل نجد من أدباء اليمن من لم يكتف بعدم مجاراتهم في طريقتهم وانما استهجنها كالاديب ابن عبد المجيد اليماني الذي عاب مدرسة البديع وعلى الاخص مدرسة القاضي الفاضل وفضل عليه صاحب (المثل السائر) •

وثانيهما : طبيعة البلاد العربية التي لاتشجع شيئا من ذلك المجون ، واذا وجد هذا الشعر بينهم فانما يكون تداوله بخفية تامة وسرية ••

ومن هنا اختفى هذا الشعر في الأدب اليمني،فلا تكاد تظفر بشيء منه في أدب كبار الشعراء في العصر الرسولي فهو انعدم أو كاد في شعر ابن حمير وابن المقري وعبد الله بن جعفر وغيرهم ، واذا كنا وجدنا لهم بعض القصائد الغلمانية فانها في عمومها لاتخرج عن نطاق الغزل البريء •

على أن الفضل يعود في وجود هذا الادب في العصر الرسولي الى الاديب أحمد بن محمد بن فليته الحكمي الذي استفاد كثيرا من نتاج الادباء المعاصرين له في مصر وقلدهم في كثير من طرقهم وربما احتك ببعض الادباء القادمين الى اليمن ومكة فحاول سلوك طرقهم ونجح في ذلك غاية النجاح •

وابن فليته ولد بنواحي زبيد وأحب زبيد حبا جما وله فيها نظم جميل من ذلك قوله :

زبيد كل الجمال فيها	وعندك العالم الخبير
والنخل والبحر من زبيد	يفديهما الخوخ والصخور

وتولى للملك المجاهد كتابة الانشاء فقام بها خير قيام ورغم فصاحته وبلاغته فقد أتقن اللهجة العامية وقال النظم الحميني الدارج فنزل بالادب اليمني الى دائرة الشعب والناس وربما كان قد أتى استعماله للعامية لأسباب تتعلق ببعض المماليك الذين قدموا الى اليمن مع الدولة الايوبية والرسولية وهم غالبا من ذوي الثقافات المحدودة فكانوا يجدون مشقة كبيرة في فهم أسرار اللغة العربية الفصحى فأتى نظم ابن فليته عاميا ليفهمه أولئك الامراء ••

وقد أهله ميله وثقافته الادبية أن يحدث في الادب اليمني بعض التجديدات غير المألوفة عليه ، وكان من نصيبه أن فتح باب المجون والاستهتار بشكل واسع حتى أنه أفرد الاتصال الجنسي بمؤلف مستقل هو كتابه « رشد اللبيب الى معاشرة الحبيب » وهو مقسم على فصول كلها في اثارة الغرائز الجنسية • وقد ترك هذا الجانب ظله حتى على شعره فلا تكاد تسلم قصيدة من ذكر المعاشرة

العادية والشاذة ولولا خشية الخروج عن قواعد الاخلاق لأوردنا الكثير من هذا الشعر الماجن •

وكان ابن فليته أثيراً عند الملك المؤيد لتلك الخاصية التي تميز بها أدبه حتى إنه جعله من جلسائه،وماكان ابن فليته يستطيع التوسع في ذلك الادب المكشوف، لولا أنه لقي ميلا كبيرا الى نظمه من ذلك الملك ، وقد ساعده على قوله طبيعته الحضارية وثقافته الواسعة وكان قد استفاد من شعراء الموشح في مصر ليحدث هذا الفن في الادب اليمني فاستحق بذلك فضل السبق والريادة ، وكان قد عاصر جماعة من شعراء الموشح في مصر والشام كالاديب شرف الدين بن أسد المتوفي سنة ٧٣٨ والاديب ابراهيم المعمار المتوفي سنة ٧٤٩ وغيرهما •• فما كان من ابن فليته الا أن استفاد من هؤلاء الادباء في ادخال هذا النظم الى الشعر اليمني • وقد وصف الخزرجي ديوان ابن فليته انه اشتمل على ألوان من الشعر لم تكن معهودة بين الادباء وهي غير شعره الفصيح كالدوبيت والحلاوي والموشحات والبال بال والساحليات والحمينيات وهذه ألوان من الشعر الشعبي بعضها ينسب الى خارج اليمن كالدوبيت الذي انتشر في العراق والشام والموشح الذي يعود الفضل في ابتكاره الى أهل الاندلس • أما الحلاوي فلم أقف له على أصل •• وأغلب الظن أن هذه الانماط من الشعر لم تستحدث الا لغرض الفن الموسيقي الذي لقي اقبالا كبيرا بعد احتضان الصوفية له وتناولوه على شكل سماع ورقصات تقام داخل المساجد حتى إن بعض الصوفية غنى في سماعه موشحة عبادة القزاز الاندلسي التي أولها :

بـدر تـم — شـمس ضحى
غصـن نقا — مسـك شـم

فحولوها الى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتركت هذه الانماط من الشعر ظلها على سائر الفنون الغنائية حتى أن نظم (البال‌بال) بقي يـُغنى على أغلب الظن فيما يعرف (بالبالية) وهو نوع من أنواع الحداء • ويقول الاستاذ

زغلول أن « الموشحات تصنع ليتغنى بها وغالبا ما يكون الوشّاح مغنيا أو عالما بالموسيقا أو عازفا على آلة من آلاتها ، ويراعي في بنائها أن يكون طبيعة اللحن تقبل مايدخله عليها الموسيقي من فنون النغم » •• ومن هنا تأتي الصلة بين هذا النوع من الشعر والفن الموسيقي •

ويتضح لنا من هذا أن ابن فلبنه كان صاحب حسٍّ موسيقي ، ولعله احترف الغناء كما هو الحال عند كثير من شعراء اليمن •

توفي سنة ٧٣١ وقيل سنة ٧٣٣ هـ •

شـــعره :

أشعاره كثيرة جمع أغلبها في حياته وبقيت مجاميع مه لاتمثل كل ماله من شعر •• فهو شاعر منتج مكثر في انتاجه • وقد اتسم بالسهولة والرشاقة والرقة شأنه في ذلك شأن شعراء المولدين في العصر العباسي •• ولاشك أنه قرأ نتاجهم بل وربما قرأ لبعض شعراء الاندلس كابن هاني وابن زيدون وابن عباد ووقفت له على قصيدة عارض فيها قصيدة الحصري القيرواني التي أولها :

ياليل الصب متى غده   أقيام الساعة موعده

فقال ابن فليته :

رشأ بالهجر تهدده   يسهرني الليل ويرقده
كالبدر تلوح محاسنه   ذهبي الخد مورده
أبكاني الحب وأضحكه   فبحكم الحب علت يده
كنظيم اللؤلؤ مبسمه   حلو صافيه مبدده
يحمي رشفات مراشفه   سيف في اللحظ يجرده
تدنيه الرأفة منه إليّ   وتيه الحسن يبعده
نصب الاشراك بمقتله   وقلوب الناس تصيده
سفكت ظلما عيناه دمي   والحسن علي يؤيده

وتضرجت الوجنات بـه بشهدن عليـه ويجحده
أتمنـى النـوم لبطرقني طيف والدمـع يتـرده
ما للحسـاد وما لشـج جمعت للمحنـة حسده
تجري الاشواق مدامعه ويذيـب القلـب تنهده
أمـر اللاحـي بتجـلده مسكين أيـن تجلـده
يدعو بالصبر فيخـذله وشـؤون المقـلة تنجده
محزون القلب نحيل الجسم قريـح الجفن مسهـده
يمسي والنجـم بسايـره حتى الاصباح وبشهده
حنت الزفرات أضالعـه وبكـى لبكاه معنـده
أترجى الوعـد فيسبقني من دون الوعد توعده
كيف السلوان وفي يده قلبي يغويـه ويرشـده

والقصيدة رائعة دلت على تذوق الشاعر ابن فلينه لعيون القصائد الشعرية في الادب العربي ومجاراته للانتاج الادبي في تلك البلاد العربية ..

وتتجلى نفحات الشعر العباسي واضحة في شعره عندما نلمس تحسس ذلك النفس النواسي وتقليده لأبى نواس حتى في توبته من المجون والاستهتار كقـوله :

ثم لا أظهر ما كان وقـد نظر الله الينـا وستـر
ان رأى النـاس قبيحـا فضحوا واذا ما استغفـروا الله غفـر
استقيل الله منـي عثـرة ياعظيـم العفو ان عبدا عثـر

ويشير جامع ديوانه الى هذه الناحية في شعره فيقول : « ذهب في الشعر كل مذهب فأبدع من نظمه وأعرب وسلك بعض من أشعاره طريق المجون والخلاعة وكان مع ذلك يكثر من استغفاره وصلاته ويصلح فيما بينه وبين الله سبحانه وتعالى» .

ويتجلى مجونه في قصائده الغزلية وربما اعترف بذلك ونهى لوامه عن لومه:

يلوموني على طول التصابي — وفتحي في الخلاعة كل باب
وإتباعي اصطحابي واغتباقي — بصرف الراح كالذهب المذاب

وله في الغزل قصائد جيدة منها قصدته التي أولها :

يا فاتر اللحظ فاتن الشنب — ما لجفاك المحب من سبب
ان كان كذبا من الوشاة فما — يحسن هجر المحب بالكذب
او كان منك الصدود من لعب — فمن أجل النفوس باللعب
الحب مني على الجفا عجب — والهجر لي منك أعجب العجب
يا نائما عن سهاد عاشقة — أتعبتني واسترحت من تعب
يا من له في مساءتي أرب — مالي سوى ما تريد من أرب

وله في المجون طريقة عجيبة كقوله :

بكن غضبا من قبلة نلته بها — فقلت له : إقتص مني بها عشرا
فأومى الى التقبيل لي وهو مغضب — يشد على الرأس ليأخذها قهرا
فظلت نهاري كله في التنامه — فيغضب بالاولى وأرضيه بالاخرى

ويصور مجالس لهوه فيقول :

كم ليلة قد زهت للروض بن بها — لفرصة اللهو واللذات منتهزا
ثاني الحبيب وكاس الراح ثالثه — والوعد بعد طويل المطل قد نجزا
والغيم يلبس مني الجو حليته — والبرق يحكم في أثنائها الطرزا
حتى تلألأ ضوء الصبح مبتسما — كأنه ملك في التاج قد برزا

ويحدثنا عن غزله وعشقه فيقول :

كفاك ان المنام محتبس — عن ناظري والفؤاد مختلس
ومهجة لا تزال والهة — كأنها بالغرام تفترس
لم يبق لي في الحياة من سبب — الا وميض اللحاظ والنفس
تجاوز الهجر منتهى جلدي — فهل لديك الوصال يلتمس

ومن أرق غزلياته هذه القصيدة التي مدح بها الملك المجاهد:

فوبنـر المقلـة حلـو المـزاح أتعبنـي في حبـه واستـراح
ظلويلـم يظلـم عشاقه ولا يرى في ظلمهـم من جنـاح
والله ما يسـلب ألبابنـا الا العيـون الفاتـرات المـلاح
أو القدود السمر مثـل القنـا أو الثغـور البيض مثل الاقـاح
قد ملكت قلبي أيدي الهـوى حتى استباحت منـه ما لا يبـاح

وأبدع ابن فليته في جانب آخر من الشعر قلما يجاريه شاعر يمني فيه وهو وصفه للخمر ومجالسه وسقاته وندمائه الى غير ذلك ، حتى أصبح بهذا خليفـة أبي نواس في الشعر اليمني بحق وحقيق .. انظر الى هذه الخمرية ليتضح لك صدق مانقول :

ساقٍ ألم بنا وقد هجم الدجـى فأطار عـن عيني لذاذة غمضـها
يسعى الي بكأسه مستهديا ان ظل في جنح الظـلام بومضها
وافى بها فغضضت عينـي هيبـة من لمعهـا لا رغبـة في غضهـا
تخفي زجاجتهـا فما يدري الذكي مصفرها في اللـون مـن مبيضها
في ليلـة لم أدر هـل لنجومهـا حكم الفضيلة أم لأسـحم أرضها
بالله لا عبثـت يـداك بمزجهـا فاذا فعلـت فبعضها من بعضهـا

ويعيب على لائمه في شربها وصده عنها فيحاوره حتى يغريه بشربها :

ولابادىء باللوم والكأس في يدي وقد كاد ضوء الصبح ان يتنفسـا
وقد نثـرت كاس الشمول مسرة علي ومتن الروض زهرا قد اكتسى
فقلت له لا تذمـم الراح انهـا دواء تخلصنـا به من يد المسـا
فأصغـى الى قولي وذم ملامـه ولم يسض حتى أن سقيناه أكؤسا

وكما أبدع شعراء العصر العباسي في وصف الرياض نجد ابن فليته يجاريهم في هذا المضمار وهو شاعر يعجب بالطبيعة الثائرة فكثيرا ما يصور تلك الرياض

وقد تلبد جوها بالغيوم وهطلت سماؤها بالامطار الغزيرة :

منية النفس وغايات الوطر ... مجلس في يوم غيم ومطر
وسماع من قيان جاوبت ... نغم الاصوات منهن الوتر
جمع اللهو ولذات الهوى ... يستلذ السمع فيها والبصر
وشراب من مدام عنقت ... ألفت ما بين أنثى وذكر
أشرفت منها نهود فهي كالـ ... غصن في أول إخراج الثمر
حلو الاخلاق والخلق لها ... كفل راب وخصر مختصر
قد تجزّا الحسن في أجزائها ... فهي (...) وقضيب وقمر
فتن النسيطان في مقلتها ... ما رآها ذو التقى الا فجر
أو نقي الخد مهصوم الحشا ... فاتر المقلة سحار النظر
سلب الشيطان مني عفني ... بملاهيه فغابت وحضر
ثم أمسيت مطيعا أمره ... لست أعصي ان نهاني أو أمر

فهذه المقطوعة التي جمعت بين الغناء والخمر والغزل نجده يستفتحها بأمنية واحدة هي مجلس في يوم غيم ومطر • ويعود الى هذه الامنية في روضية أخرى فيقول :

رداء الروض طرزه السحاب ... وجاد ضواحك روضه الزهر الرباب
ومالت في غلائلها غصون ... عليها من شقائقها ثياب
يميل بها النسيم كأنها من ... ترنحها يميل بها الشراب
فخذ من لذة الدنيا نصيب ... فآخر لذة الدنيا ذهاب
وداو الاكتئاب بكأس راح ... اذا ما خامر القلب اكتئاب
مروقة معتقة شمول ... لها في كأس شاربها التهاب
فخذها من يدي قمر منير ... كساه ثياب رونقه الشباب
كأن الراح في يده عقيق ... جرى في الكأس أو ذهب مذاب
فهذا العيش ليس هوى سليمى ... وتفنيد العواذل والعتاب

فهو يقحم دائما في روضياته ذكر الخمر وشرابها وكأنها جزء لاينجزأ من نزهاته المنعددة في الرياض والطبيعة الساحرة • ومع دلك فان حياة ابن فليته ليست كلها لهو ومجون • وفي شعره ينجلى لنا أنه شخص مارس الناس واختبرهم وربما صور بعضهم في هجاء مقذع فقال :

فكر لنفسك اني معك مفتكر ... فما وجدت لعجب فيك من سبب
فلا بأصل ولا فرع ولا كرم ... ولا بدين ولا علم ولا أدب
ولا عفاف ولا فضل يزان به ... ولا مقام غدا في أرفع الرتب
ولا بحلم ولا رأي ولا رشد ... ولا اتكال على فعل ولا نسب
ولا بفخر قديم يستدل به ... ولا حديث ولا عقل ولا حسب
ولا بنفس الى العلياء سامية ... ولا اذا ذكر الآباء قلت أبي
وكل فخرك هز المنكبين وما ... ترخيه من طرف العرض على العقب
فأنت كالديك نجس الرأس منتنه ... وفيه زهو بريشات على الذنب

ومن فلسفته في الحياة النهي عن الحلم :

ولا يحمدن الحلم في كل حالة ... ففي الحلم أقناد لمن لايعاقب
اذا كنت في كل الامور معولا ... على الحلم من يدري بأنك عايب
ولم تنتقى البيض الصوارم والقنا ... ولم يقتنى الخيل العتاق الشواذب
ومن لم يخف رقش الثعابين بطشه ... وجرأته دبت عليه العقارب
إذا المرء من أعداه لم يشف نفسه ... فما نفعه ان قام للثأر طالب

البرعي :

هذا الشاعر انتشر شعره بين أيدي الناس من الادباء وغيرهم حتى أصبح تداوله أقرب الى الابتذال منه الى الشهرة المعروفة عند الادباء ويكثر شعره خاصة بين أيدي العوام والصوفية ذوي المزاج الديني القوي وربما تنوقل بين قوافل الحجيج قبل ظهور السيارات والطائرات • ويقول الزبيدى إن ديوانه صغير الحجم مشهور بين أيدي الناس •

وهذا الشاعر بالرغم من شهرته الواسعة فان ترجمته تكاد تكون مجهولة وقد تخبط في تاريخ حياته كل من أرخ له فزعم صاحب معجم المطبوعات أنه من أهل القرن السادس وسار على هذا الخطأ جرجي زيدان وبروكلمان والنبهاني وخمن الخفاجي حياته في القرن الثامن أو العاشر . والخبر اليقين نجده عند المؤرخ البريهي الذي انفرد بترجمته من بين سائر المؤرخين في اليمن .. فقد ذكر أن اسمه عبد الرحمن بن علي المهاجري البرعي وبلده النيابتين وكان يسكنها الى أن توفي وقرأ الفقه والنحو على جماعة من علماء وقته فلما تأهل للتدريس والفتوى أتاه الطلبة من كل جانب فدرس وأفتى واشتهر بالعلم والعمل وله مدائح في النبي صلى الله عليه وسلم . توفي سنة ٨٠٣ . وهذه الترجمة نقلها عن البريهي المؤرخ زباره في ملحق البر الطالع . فأفادتنا ترجمة البريهي للبرعي مسائل مهمه عن حياته أهمها تحديد سنة وفاته وما ذكره قريب للواقع ، حيث أن البرعي مدح أشخاصا متأخرين من أهل القرن الثامن كالشيخ أحمد بن أبي بكر الرداد المتوفى سنة ٨٢١ والشيخ عمر بن محمد العرابي المتوفى سنة ٨٢٧ وغيرهما وهو الشاعر الوحيد في العصر الرسولي الذين لم يقصد الملوك والرؤساء لمدحهم ولم يتكسب بشعره في أغلب الاحيان على الرغم من أنه مدح جماعة من أعيان العلماء والصوفة .. وربما احتاج الى المال فمال بشعره الى بعض الاثرياء من غير المتصلين بالدولة، فأنت تجده في شعره يصرح بعائلته الكبيرة وفقره فيقول :

كهل كبير وأطفال وحاشية   لا يقدرون على التحويل والنقل

ويقول :

أما تراني لأطفال صغار   أبوهم من من محلتهم طريد
يسر العيد بالصبيان لهوا   ولبس لهم مع الصبيان عيد

ويعلن عن فقره وافلاسه بما هو أكثر صراحة من ذلك فيقول :

فقر وافلاس ودهر خائن   وهموم عائلة وضيق مكان

وعظيـم ديـن لا يقـوم بحمله رضوى ولا الصخرات من نهلان
وسمعت من أم العيـال تواعـدا وتهـددا ما كـان في حسباني
رجب وشعبان قطعـت مداهمـا صبرا وعز الصبـر في رمضـان
فبحـق حقـك بـرني وأمدنـي بعوارف وعواطف وحنـان

وبيدو أن البرعي أصبب بكثـر الاولاد في آخر عمره والا فهـو الذي يتحسر على فقد أولاده ويبكيهم بمرارة فهو الذي يقول عند وداع طفليه :

من لي بطفلين من خلفـي كأنهما زغب القطا إذ عَدِمْنَ الماء والشجرا
فارقت ريحانتي قلبي وما رضيت نفسي الفراق ولا اخترت النوى بطرا

ويقول عند مرض أحدهم :

أبنـيّ دونك عبـرتي وتنهّدي كمدا عليك فكم أعيد وابتدي

ولهذا السبب تكسب بشعره عند أعيان عصره من العلماء والتجار ودلت قصائده أنه كان يرحل اليهم من أماكن بعيدة ، وقد أشار في احداها الى غربته مخلفا بلده وأولاده فقال :

أيا سيدي شهر كريـم وغربـة ودين أقاسيـه ولست بـه جلدا
وغيبـة أطفـال وبعـد منـازل واخوان صدق ذبت من أجلهم فقدا
فقضٍ لباناتـي ونجّح مطالبـي وما اسطعت من بر فلا تألني جهدا

وقصد الشيخ عثمان بن أحمد الاهدل فقال يعرض عليه مطالبه :

يا سيدي يا عفيف الدين جئتك في حوائج أغفلـت والدهـر يقظان
فرش جناحي ببذل المكرمات وصل حبلي فإني الـى نعماك غرثان(١)
فاسمح بعـارفة بيضاء تنعشنـي فما يساميك بالاحسان انسـان
واكس الاديب من البز النفيس ولا تردد لبيـد القوافي وهو عريان

---

(١) جائـع .

وهو يصرح بعدم نجاحه عند مداحه فيقول إنه تاجر بالشعر فخسر :

يا أيها الوالد البر الشفيق أجب ... عن كل مـن زاده التذكير نسيانا
تاجرت بالشعر أبغي الربح فانعكست ... حالي علي فعـاد الربح خسـرانا

والمهم أن الشاعر البرعي رجل مارس الحياة فلم يكن من ذوي التزلـف والغرور وهو صاحب استقامة خلقية جعلته ينزل الى الفقر والافلاس على عكس من عاصرهم من الادباء الذين جعلوا من مسايرة الملوك والرؤساء وسيلة للتجارة الفكرية ، وفوق ذلك فان البرعي صاحب خصوم وأعداء فهو يشكو منهم كثيرا ويدعو عليهم أحيانا .

شـعره :

تميز شعره بجيشان العاطفة وقوة الاسلوب وان كانت معانيه في الشـعر قليلة جدا فهو صورة متكررة من صور العصر الرسولي حيث يكثر اغراقهم في التقليد والمحاكاة لشعراء العصر الذهبي في الاسلام ، وأنت تجد أثر المتنبي على البرعي في أغلب قصائده وربما قلده تقليدا سافرا في قوله :

الصالح البدل ابن الصالح البدل ابن الصالح البدل ابن الصالح البدل .

ومع ذلك ربما ادعى عدم انتمائه الى مدرسة معينة في الشعر فقال :

أنا في تأليـف قافيتـي ... غير مختار الى فئة

ولكن هذا بعيد عن الواقع ، فشعره كله محاكاة لمن تقدمه فهـو حتى في تركيب قصائده مقلد مغرق في التقليد ، وربما سار في مقدمات قصائده على طريقة الجاهليين من التشبيب بالنساء ووصفهن بالصور المعتادة في شعرهم . ففي غزله نجد مادة كبيرة من تلك التشبيهات المعتادة المتكررة حتى أنه يستعمل تلك المواضع والاسماء التي استعملوها في شعرهم كقوله مثلا :

وفي غزله نلمس تلك اللوعة والحرقة ، وهذا نابع أساسا من طبيعة في الشاعر

تميل به الى التأثر السريع :

أتأمرني بالصبـر والطبع أغلـب وتعجب من حالي وحالك أعجب
وتطلـب منـي سلوة عن ربائب وراهن أرواح المحبين تطلـب
فما قرّ لي دمع ولا كف مدمـع ولا طاب لي عيش ولا لذّ مشرب

وهو من الداعين الى التصبر في الحب واستعذابه :

لاقيت يا نفس حقا ماحكى الحاكي فامضي لشأنك اني لست ألحـاك
واستعذبي غصص التعذيب راضية وحكمي الحب عل الحـب يرعاك
واسـتنظري فـرص الايام عائدة واستعملي الصبر وارعي ترك شكواك
عساك ان مت في ذكراك مت على شهادة الحق حيث الحق يلقاك

وفي هذه القصيدة يبدع في تصوير الايام الخوالي التي مضت مع محبوبته:

أيام ليلى بوادي (السدر) نازلة مقيمة خـدرها المضـروب يمناك
والعيش أخضـر والايـام مشرقة وعين رب الهوى العذري ترعاك
ونظرة جلبت حتفي فليس لهـا شاك لأني أنا المتـكو والشاكي

تم يخاطب الحبيبة فيقـول :

ردي بقيـة روح فات من رمـق يا شمس حسن بدت من برج شباك
وارثي لقلبي بما في سحر عينك من حبائل مرصـدات لي وأشـراك
وبين سـفح جياد فالمسيل الـى دار الامير عروس نورها زاكـي
سحارة الطرف ترمي من لواحظها حب القلـوب بإحيـاء وإهـلاك
خذي بحقك من عينيك لي خفرا حتفـا فعائقتـي عينـاك عيناك
وساعديني على التقبيل مغتنما فما ألـذك تقبيـلا وأحـلاك
فكم وديعة شوق لي اليك مضت قد كنت يوم النوى أودعتها فاك

وبهذه السلاسة والمتانة يمضي شعر البرعي •

مديحه للرسول صلى الله عليه وآله وسلم :

ومع ذلك فان شهرة شعر البرعي لم تقم على غزله وتفننه في النظم وانما عرفه الناس كمادح للرسول صلى الله عليه وآله وسلم . وتميز شعره بهذه‌الناحية حتى كان بحق شاعر المديح في عصر بني رسول ، وان كان هذا العصر قد عرف جماعة من مداح الرسول صلى الله عليه‌وآله وسلم ، كالشاعر عبد الله بن جعفر والشاعر ابن هتيمل وابن المقري إلا أنهم من شعراء القصيدة الواحدة أو الاثنتين، ولم ينظموا أكثر من ذلك بخلاف البرعي الذي حصر شعره في مدح الرسول والتغني بمزاياه سالكا في ذلك نهج من سبقه من شعراء المديح النبوي وكان‌هذا الشعر قد لقي حظوة كبيرة في العصور التي سبقت زمن البرعي وخاصة في عصر المماليك في مصر والشام وكان أشهر من نبغ في ذلك الوقت البوصيري وعائشة الباعونية وغيرهما .

ويبدو لي أن سر تولع البرعي بمدح الرسول صلى الله عليه وسلم يعود في ذاته الى حادثة شخصية وقعت للبرعي حيث أنه عزم للحج مع جماعة من أصحابه وأتم مناسك الحج ، ثم لم يتأت له زيارة الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة لمشقة الرحلة في ذلك الوقت حيث لاتوجد طائرات أو سيارات وانما رواحل هزيلة فكان لعدم زيارته ضريح الرسول أثراً بالغاً في نفسه ، وهو مافتىء يردد هذا الحدث في أكثر شعره . يقول بعد أن يصف حجه وقضاءه المناسك :

حجوا فراحوا يزورون ابن آمنة ... وعدت في الفرقة الجافين منتظرا
عسى لطائف ربي أن تبلغني ... قبرا يقر بعيني زانه نظرا

ويقول :

يا سيدي أنا من علمت اذا بنى ... حمل الذنوب وجور دهر نابي
لو لم يكن لي اذ حججت ولم أزر ... إلا فناءك وحده لكفى بي

ويقول في موضع ثالث :

وجفاك اذ زار الرفاق ولم يزر ... ما يستطيع يرد أمرا مبرما

وفي موضع رابع :

حججت ولم أزرك لسوء حظي　　وعبد السوء يعتاد الاباقا

فأثار عدم تمكنه من زيارة الرسول صلى الله عليه وسلم شوقه الشديد اليه صلى الله عليه وسلم وأثار مكامن العاطفة الدينية فيه وخاصة وأن شاعرنا صاحب مزاج عاطفي شديد فكان أن قال الشعر الجيد في مدحه حتى أصبح علما عليه.

وهو يشير الى مدحه للرسول ويعتز بذلك مخالفا نهج شعراء عصره فيقول:

اذا مدح الشعراء أرباب عصرهم　　مدحت الذي من نوره الكون أبهج
وان ذكروا ليلى ولبنى فانني　　بذكر الحبيب الطيب الذكر ألهج

ويقول أنه لم يستفزه في مدح أحد من الناس مال أو منصب.

لا بعت شعرا نفيسا بالخسيس ولو　　هلكت جوعا فللاشعار أسعار
ولا تعاظمني في مدح منصبهم　　مال ودار ودينار وقنطار

فهو شاعر صاحب رسالة ومنهج . وقد أولع بمدح الرسول صلى الله عليه وسلم وكان أكثر استمداده في مدحه له صلى الله عليه وسلم من سيرته العاطرة فبجانب ما يصاحب قصائده في المديح من تغزل بجماله وتغنى بعظمته وأخلاقه نجده يشير الى وقائعه مع المشركين ومعجزاته ونبوته الى غير ذلك . فهو يشير الى معاندة قريش له صلى الله عليه وسلم فيقول :

كم عاندته قريش وهي عالمة　　بأنه خير من فوق الثرى بشرا
وكم رعى بالتعني حق حرمتهم　　منابعا فيهم التحذير والنذرا
يلقى المسيئين بالحسنى كعادته　　ويوسع المذنبين العفو مقتدرا
لما دعا واعظا صموا فخالطهم　　بالسيف بأساً فلبوا السيف إذ شهرا

ثم يشير الى جهاد الكفار :

وشن غارته في كل ناحية　　وقام لله والاسلام منتصرا

بفتيــة من قريش الابطحين ومن　　أبناء قيلة أهل الدار أسد شــرى

وبشير الى معجزاته :

لئن كان ابراهيم خــص بخــلة　　فهذا نبــي أوتي القــرب والحبا
وان كان فوق الطور موسى مكلما　　فأحمد جاز السبع واخترق الشهبا
وان فجر الينبوع موسى من الصفا　　فأحمد أروى مــن أنامله الركبا
وان كلم الاموات عيسى بن مريم　　فأحمد في يمناه سبحت الحصبــا

وبشير الى معراجه صلى الله عليه وسلم :

كفته كــرامة المعــراج فضــــلا　　بها في القــرب ســاد الانبيــاء
سرى مــن مكة ببــراق عـــز　　لأقصى مســجد وعــلا الســماء
مفتحــة لــه الابــواب منهــــا　　يجاوزها الى العرش ارتقــاء
فســـر بــه الملائكــة ابتهــاجا　　وصلى خلفــه الرســل اقتــداء
وكلم ربــه مــن قــاب قــوس　　وألهم في تحينــه الثنــاء

وشعره في مديح الرسول صلى الله عليه وسلم كله جيد فلا غرابة اذا اشتهر تلك الشهرة الواسعة لبس في اليمن وحسب بل في سائر أنحاء العالم الاسلامي.

ابن المقــري :

خاتمة الشعراء في عصر بني رسول هو الشاعر اسماعيل بن أبي بكر بن المقري شاعر الفقهاء وفقيه الشعراء بل وشاعر الشعراء قاطبة .

ولد الشاعر اسماعيل بن أبي بكر بن المقري بأبيات حسين سنة ٧٥٥ وتفقه بها على يد الفقيه حسين بن علي الهاملي ثم دخل زبيد فأكمل علومه على يد الفقيه جمال الدين الريمي وهو الذي رثاه عند موته بقصيدة أوردناها فيما سبق . ثم اتصل بالملك الاشرف ومدحه بقصائد جيدة فأثابه ووهب له بينا بكافة مرافقه والى ذلك يشير ابن المقري في قصبدة مخاطبا فبها حفيده الملك الظاهر يحبى :

بيت بناه لي الممهــد منعمــا　　وأطال فيــه بتبرتي وسروري

وعندما آل هذا البيت الى السقوط في عهد الظاهر شكى اليه ابن المقري حالته فقال :

ونزلت من أعلى لأسفل روعة ... يا وحشتاه لمنزلي المعمور

فقام بتجديده وعمارته فما كان من ابن المقري الا أن شكره بقصيدة يقول فيها :

لقد نال داري منك يا ملك الورى ... من الفضل شيئا لم أكن نلته منكا
لأنك يا يحيى أعدت شبابه ... وقد دكت الايام أركانه دكا
وأما شبابي لم يعد بل أعدت لي ... شبيبة نفسي فهي كالعهد بل أذكى

وفي عهد الاشراف تولى ابن المقري أمر بعض البلاد الشمالية «الشامية» وتولى أعمال مور ، وولي في عهد الناصر التدريس بالمدرسة الاشرفية بتعز وكان ابن المقري يطمح في تولي قضاء اليمن العام، فلم يتأت له ذلك ، بل إنه أخرسفارته الى مصر بعد ترشيحه لها بغية الحصول على هذا المنصب بعد وفاة متوليه مجد الدين الفيروزابادي .

ويبدو أن ابن المقري اشتغل بالتجارة قبل اتصاله بملوك الدولة الرسولية بدليل شعره الذي يقول فبه مخاطبا الملك الاشرف ويشرح قصته مع التجارة وخسارته فيها :

كلما رمت شرح حالي اليكم ... حرت بين الوقوف والاقدام
فرجاء يحثني من ورائي ... وجلال يقوم من قدامي
فاستمع شرح قصتي وأغثني ... يا غياث الورى وغوث الأنام
كنت بالربح والتجارة مغرى ... ترتمي بي الى بعيد المرام
فغشيت البلاد برا وبحرا ... أطلب الربح قد شددت حزامي
ثم لما جمعت ما يسر الله من المال بعد طول هيامي
ساقني الله نحو أرض زبيد ... ودعتني كواذب الاوهام

فأقامت تجارتي في كساد ... واستمرت غرامني في الغرام
ما انقضى لي هناك حولين الا ... وقد احترت في ارتباد الطعام
وقد ادّنْتُ فوق الفين نقدا ... واذا بالخصوم تبغي خصامي
جئتكم هاربا ففرجتم الكرب ... وذدتم حوادث الأيام
واستقامت حالتي وزادت نموا ... فلك الشكر يا شريف المقام

تلك قصته مع التجارة وفشله فيها ولم يعاود ابن المقري اشتغاله بها واكتفى بالاتصال بملوك الدولة الرسولية ونشر العلم والتدريس ، وكان له بالاتصال مع الرسوليين تجارة وأي تجارة ، فقد أغنوه بعد فقر مدقع ورفعوا اسمه بعد خمول مزر فكان الملك الظاهر يحيى بن إسماعيل يهب له على كل بيت قاله في قصيدة له في مدحه ألف دينار حتى إنه عجز عن تسديدها دفعة واحدة فتعهد في الباقي .

وابن المقري يعترف بفضل ملوك الدولة الرسولية عليه فيقول مخاطبا الاشرف ومتحدثا بفضله عليه :

خدمته فتولاني برحمته ... فكنت في بابه ابنا وكان أبا
وصير العلم لي شغلا وكلفني ... حلا لرمز وتسهيلا لما صعبا
وكان بحثي على مقدار همته ... حتى ملكت صفايا العلم والنخبا
وازددت فخرا على الاقران قاطبة ... اذ كان علمي من جدواه مكتسبا

فهو يعترف للملك الاشرف بفضل تفرغه للعلم وانصرافه عن أسباب التجارة حتى أصبح شهيرا بين أقرانه . وهكذا فان ابن المقري كان صنيع الدولةالرسولية وعالمها . وربما خرج عن سياسة بعض ملوكها كما رأينا ذلك واضحا في حادثته مع الناصر وانكاره عليه تأييد الصوفية إلا أن ذلك كان نادرا في حياة ابن المقري، بل ان ابن المقري أظهر لنا عدم تبعيته المطلقة لسياسة ملوك الدولة الرسولية في بعض الحالات فهو رجل حر الضمير يميل الى صفوف الشعب في حالة قسره وارغامه كما سنرى فيما بعد .

وقد مرت بابن المقري فترات عنيفة كان يتصارع خلالها مع أعدائه من دعاة التصوف وربما اتصلوا بالسلطان فآذاه بسبب ذلك وهو يشكو منهم في شعره ويعرض بهم . من ذلك قوله :

الى الله مـن باغ علـي كأنـه — تذكر ضغنا فهو بالثـأر طالبـي
يحاول منـي عورة كي يذيعهـا — ودون لقـاها ألف ستر وحاجـب

ويقـول :

ان أبصروا لي عورة طاروا بها — فرحا وان شهدوا الفضيلة ساتروا

ومما زاد في قسوة الايام عليه شقاؤه بولده فهو مافتـىء يدعو عليه في شـعره يقول :

ففـدت عليـا حيت كنت أوده — فأوجعني من قبـل موتي فقـده
لقد مات معناه وان بقي اسـمه — عسى باعـث الموتـى الينا يـرده

ويقول مخاطبا له :

وكنت ابنـي وكنت أبـا شفيقا — فأنسـاني بنوتـك العقوق
وجاهرت المهيمـن بالمعاصي — وما عاصـي المهيمـن لي رفيـق
غسلت يدي منـك وقلت ميـت — ولكـن ما عـلي له حقـوق

ونفهم من شعر ابن المقري أن أكثر مكـوثه كان بمدينة زبيد ففيها أهله وأهله وأولاده وله بنت يحبها حبا جما توفيت في حياته فرثاها بقصيدة أوردنا بعضا منها فيما مضى وتزوج من أسرة الوزراء آل معيبد . وتوفي بعد أن شارف على التسعين فتوفي يوم الاحد ٢٩ صفر سنة ٨٣٧ .

شـعره :

قبل أن يكون ابن المقري شاعرا هو فقيه، وبالفقه اشتهر بين الناس وله فيه المصنفات الكثيرة الشهيرة، ككتابه الإرشاد الذي شرحه نحو سبعة من العلماء في مصر والشام .

واشتهر كتابه روض الطالب في الفقه وكان يبحث فيه بتحريض مستمر من والده الذي لايسره أن يقول الشعر ويعرف به • ومع ذلك فان ابن المقري استمر في نظم الشعر ، ولم ينفع فيه تحريض والده وأصبح شاعرا بين الناس يقصد الملوك لالقاء قصائده فيلقى آذاناً صاغية • وربما ترك الفقه أثره الكبير على شعره ، فأنت تلمس آثار متون الفقه على نظمه في هذه الابيات وغيرها :

الحمد لله حمداً ليس يحصيه　　　هذا الزمان الذي كنا نرجيه

وقوله :

وان قتلتني أهدر الشرع مهجتي　　　لأني قد أقررت أني لها عبد

وقوله :

دماء العاشقين لهم (جبار)　　　بلا قود تطل ولا ديات

وربما استعمل عبارات الصوفية والمتكلمين فقال :

همم أتت « بخوارق العادات »　　　وبكل معجزة من الفتكات

وقوله :

لك في كل يوم في المكارم (بدعة)　　　لا تعتدي في فعلها الايام

الى غير ذلك • ومن أثر الفقه والتدين في شعره أنه لايذكر في شعره ماهو محرم في الشريعة فهو لايذكر الخمر ولا يسرف في المجون كالغزل بالغلمان والتشبيب المحرم حتى إنه ترك الغزل العادي في أواخر أيامه فانعدم أو كاد من القصائد التي مدح بها الملك المنصور عبد الله بن أحمد وما بعده بل دخل الفقه الى شعر المقري من زاوية فنية أخرى ، فأنت تحس طابع التقرير في كثير من قصائده التي يصف فيها الاحداث والوقائع والامثلة على ذلك كثيرة منها قوله يصف معركة:

جرد « سنجرا » أمس في أمر عنى　　　والله جرده لأمر ثان
وافى مغيرا ليس يعلم ما الذي　　　وافى له حتى التقى الجمعان

هجم العـدو موافقـا بقـدومه لتـقائه وسـعادة السلطان

ثم تمضي القصيدة تصف المعركة بين أمير السلطنة المسمى « سنجر » وبين أعدائه من رجال القبائل فلا تقف في هذه القصيدة وغيرها على أثر يذكر للابداع الادبي والفني وربما أفادتنا هذه الناحية حصيلة اجتماعية كبيره قلما نظفر بها في شعر شاعر آخر من شعراء العصر الرسولي وهو قد اهتم بتصوير حياة المجتمع ومشاكل الناس وربما أرسل قصائد الى الملك الناصر أحمد تعلن عن تذمر الرعية من ذلك الوالي أو هذا الحاكم وقد مر بنا شيء من ذلك فيما مضى • وهو يحرض الملك على العدل في الرعية فيقول :

وللعدل وجه يعجب الناس حسنه وبشناقه الاقصى ويدني المبعـدا
فيا أيها المنصور يا نجل أحمـد ويا ضيغما تحـت السرادق ملبدا
لقد شاع بين الناس بالامس أنكم سمعتم وقد شد « المشد » وشددا
فقلتم عليك الرفق فالرفق لم يكن مع الشيء الا زان منه وسـددا
وكان مشد فبه رفـق وقد أتـى على ما بكم لا حيف فيه ولا اعتدا
فخفف وامتـدت هنالك بالدعـا أبادى البرايا شـاكرين لها اليدا
يسـر الاعادي أن يـذم عدوهم وأنتم بمدح الخلق قد غظتم العدا
علمتم بأن الرفـق زيـن فرمتـه وان الجفا شـين فأبعدته مـدى
وهل يستوي في الفضل مال مبارك تأتّى بما يرضي من الرفق والهدى
ومال كثـير جاء من غـير وجهه بحيف وظلم شـب نارا فأوقـدا

الى آخر قصيدة ابن المقري وبعث قصيدة أخرى على لسان أهل زبيديشكر فيها الملك الاشرف الثاني بعد قيام عماله بعـدّ النخل بنزاهة وعدم تكليـف الاهالي بالضرائب الباهظة :

لو كنـت تعلم ما بأهل زبيـد وزبيد من شـوق اليك شـديد
لخصصـتها دون المدائـن كلهـا وخصصت أهليهـا بكـل مزيـد
بلـد أحبك سـاكنوه ومـا أرى خـيرا تجـازيهم بـه ببعيـد

هاموا بحبك بعدما أنقذتهم — من كل محذور وكل وعيد
أنقذتهم من محنة النخل التي — كادت تشيب رأس كل وليد
ومغارم أكلت على ملاكه — ثمرانه وأتت على الموجود
من بعدما انتشر البلاء وأشرفوا — فيه على التعريف والتطريد
لو دام عاما واحدا لتبددوا — في كل أرض أيما تبديد
فكشفت عنهم ما كشفت عن البلا — وعددت هذا النخل خير عديد
ومحوت عنه حوادثا قد قررت — كتب الشقاء بها على المولود
ما كان يعرف رب نخل راحة — في النخل من خوف ومن تشديد

الى آخر هذه القصيدة التي أبانت عن محن شديدة كان يقاسيها أهل زبيد من عمال الدولة الرسولية أثناء حصرهم النخل وأخذ الرسوم عليها ، وهكذا يمضي شعر ابن المقري الاجتماعي مصورا آلام الشعب ومشاكله •

وقد جره حديثه عن المجتمع الى التورط في مشاكل السياسة فعبر عنها شعره خير تعبير فهو ينكر على الدولة تعدد السلطة ويصف المتولين بالانتهازية والغنى على حساب الشعب يقول :

وأصبحت سلطان البرية واحدا — وقد كان أمر الملك في خمسة بلوى
وأمسوا بطانا أغنياء وغيرهم — يبيت خميصا قد طواه الطوى طيا
وكل يجر النار منهم لقرصه — فعاشوا وخلوا قرص غيرهم نيا

وتمتد صراحة ابن المقري الى أرباب الحكم فهم يعدون بالعدل في الشعب ولكن كلما وعدوا بذلك زاد ظلمهم :

وقد وعدوا بالعدل لكن بوعدهم — أرادوا ازدياد المال من غير مهلة
فزاد بهذا جورهم وتناقصت — عليهم به الاموال حتى اضمحلت
وكانوا كعمرو رام تكثير ربحه — فباع رؤوس المال بيع الغبينة
وأصبح يبغي الربح من غير ملكه — فسمي ظلوما ظالما في الفضية
وحيف فقر الناس عنه بمالهم — وفاتته أموال بموت الرعية

ولو أمهلوا الوعد الذي وعدوا به　　لضاعف أموالا بأقـــرب مـــدة
ومن لم يدبـــر ملكه حسن رأيه　　ولم يدفع السوءى بحسن الطريقة
رأى ضدمايرجوه من حيث يرتجي　　وأصبح مـــن أعداه أهـــل المودة

انظر الى هذه الصراحة في هذا الشعر فهو يفند مزاعم الحكام في دعواهم بالعدل في الرعبة ويقول كيف يكون هذا العدل وأنتم تنهبـــون أموال الناس وتحاولون سبل الاتجار بنهب أموال الناس صراحة .

ويتجه شعر ابن المقري الاجتماعي الى زاوية أخرى لاتتصل بالجانب السياسي يصور لنا فيها أفراح الناس وأعيادهم وقد برز شعر ابن المقري في هذه الناحية ورسم لنا صورة فريدة من احتفالات الدولة بالاعياد ففي عيد النحر يخرج الملك الى مصلى العيدين ويجتمع الناس لمشاهدة الاستعراض الفريد الذي يقوم به العسكر لهذا الصدد :

والخيـــل تقـــرع والاسنة تلتظي　　في النقع تحسبها نجـــوم ظـــلام
والجيش مثل البحر يضرب بعضه　　في بعضه ضرب الخضم الطامـــي
ومراكب وسلاهب وجنائـــب　　وكتائب مثـــل الاســـود حوامي
وخرجت فيه الى المصـــلى مخرجا　　ترضـــي الإلـــه بهيبـــة وقـــوام
تمشي الهوينا قد علتك ســـكينة　　تغشـــاك مـــن خلف ومن قـــدام
والنـــاس بـــين مهلـــل ومكبـــر　　لله ذي الاجلال والاعظـــام

الى آخرها . ومن اجتماعياته الفريدة وصفه لولائم الدولة وما يقام فيهـــا من مآكل فخمة تدل على البذخ والتفنن في الطعام .[١] انظر الى هذه المائدة التي أقيمت بهاشياه وأبعرة مسلوقة يحسبها الرائي حية :

سماط ما أراه أم منـــاخ　　لأبعـــرة تقـــام وتستناخ
تراها وهي مشـــوية قياما　　صحاحا ما بمفصـــلها انفتـــاخ
قياما في الســـماط وحولتيها　　طيور ما حواليها فـــراخ

تحاول أن تطير وأين منها مطار والاكف لها فخاخ
وضان فيه تأكل من كلاها وما ببطونها منه انتفاخ

الى آخرها • ويبدو أن ابن المقري بهذا النعر وغيره حرر الشعر اليمني من التكرار الممل في طرق المواضيع الادبية والجري وراء النعر التقليدي في الادب العربي •

مدائحه :

ولست أدري اذا كان ذلك الاتجاه في شعر ابن المقري متعمدا أم أنى عن طريق المصادفة ، اذ لم يكن قصده التجديد بل نمّ شعره من حيث المضامين عن تقليد مفرط في المتابعة • وكان قد جعل مدائحه لملوك الدولة قنطرة للتوصل الى مايهدفه من فنون شعرية أوردنا نماذج منها فيما سبق وقد مدح ابن المقري خمسة من ملوك الدولة الرسولية هم كل من عاصرهم في حياته •

وفي مديحه يسلك الاساليب المعتادة عند الشعراء في المدح من التشبيب والحرص على مكارم الأخلاق ، ثم الدخول في وصف ممدوحة • وهو مدح يميل الى الوصف وتعديد الشمائل كقوله في مدح الاشرف :

الاشرف الملك الذي قاد الورى قود الكماة الخيل بالأرسان
الناهب المهجات في يوم الوغى والضارب الفرسان بالفرسان
المرسل النفحات يتبعها الغنى والمردف الإحسان بالإحسان
الباسط السطوات من لا يتقي الا بغض الطرف والاضعان
ملك يرى في أريحية عمره رأي الكهول ونجدة الشجعان
ملك تحاذره الملوك وتتقي وتخر عند لقاه للاذقان (الخ)

فهو وصف عادي لايضيف الى بشرية الممدوح شيئا آخر ، ويصف ممدوحه بالحلم والصفح والجود والغيرة في حق الله :

مليك قريب حين يهتف باسمه الى الخير والحسنى بعيدمن الشر

صفوح عن الجاني بطيء عقابه ... عجول الى التقوى سريع الى البر
جواد يفوت الريح سبقا الى العلا ... ويزري على الانواء نائلة الغمر
يحامي عن الديـن الحنيف وأهله ... بهنديّة بيض وخطّيّة سمر

وربما ارتدت بعض قصائده في المديح الى ذكر حوادث وقعت للممدوح فأفاد بهذا ناحية تاريخية تهم المؤرخ من ذلك اشارته الى تنكيل الناصر بالعرب الثائرة :

وأوهى قوى العربان من أرض سردد ... وأرض سهام فهي ممدودة أكـل
وصبر قحـرا تم عنما وعافقا ... ترابا وطينا لا تشاك بها رجل
وصنعاء في ملـك الامام وماله ... بذاك يد تحميك عنها ولا رجل
فها هـو ان صالحتموه أخذتم ... مكانا وقلتـم ما تضمنه السجل
فيحسبه نقصا عليكـم بجهله ... فيعقـد صلحا ثانيا ولك الفضل

والامثلة من هذا كثيرة .

غـزله :

لابن المقري قصائد جميلة في الغزل وهو يسلك فيه عدة طرق وأساليب فهو يشكو من الهجر والبين كما يصف لقاءه بالحبيب ويبدع في ذكـر محاسنه ويلحي على اللاحين ويجيد في تصوير زورة الحبيب المختلسة الى غير دلك من طرق يستعملها الشعراء فمن شكواه لفقد الحبيب :

نأيتم فأغليتم رخيـص تجلدي ... وصبري وأرخصتم من الدمع مايغلو
الى الله أشكو فهو لو شاء جمعنا ... لعدنا الى العهد الذي كان من قبل
تغربت كي أنسى هواكم بغيركم ... وعند الفم الصادي سوى الماء لا يحلو
أأسلو حبيبا نصـب عيني خياله ... ومن أين لي من بعده كبد تسلو
ولي أسوة قبلي بمن مات في الهوى ... ومـن مات لا عار عليه ولا دل
مساكين أهل العشق حتى دماؤهم ... تطل فما فيها قصاص ولا قتـل

وهذا قاضي الحب قاض ظالم لايحكم بالحق ..

عصيت الناصحين عليك جهدي وأنت أطعت أقوال النهاة
قضى لك في الهوى قاضيه ظلما على ضعفي فويل للقضاة
بأن تمسي عيونك نائمات وأن تمسي عيوني ساهرات

وتهيج الذكرى بالشاعر على أثر تألق البرق :

ويا برقا تألق من زرود لقد أطلقت دمعي كالفرات
لقد ذكرتني عهد التصابي وأياماً بلعلع ماضيات
وليلات تقضت في زرود بها كان الحبيب لنا مواتي
فلت زماننا هذا تولى ويرجع لي لييلاتي اللواتي

ويبدع في وصف النظرة من الحبيب فيقول :

غزال عليها قلبي الصب طائر ألست تراها في علائلها غصنا
وما شك من هزت عليه قوامها بأن القنا منها تعلمت الطعنا
تفدالحشا باللحظ فاعجباذا رنت لسيف له قطع وما فارق الجفنا
فهذا دمي آثاره في بنانها وقد أوهمتكم أنه أثر الحنا

ويقول في نفس الموضوع :

رمتني بعينيها فلم تخط مقلتي ولا لذ لي شيء كما لذ لي قتلي
فلا ذقت ما قد ذقت ساعةفوقت سهام الهوى تلك اللواحظ من أجلي

ثم يصف لقاء الحبيب فيأتي بأساط جديدة من التعبير :

أتتنا كلطف الله جل جلاله بلا موعد منها ولا حيلة منا
فلا تسألوا عن ليلة ظفر الهوى بجيش النوى فيها فأفنى الذى أفنى
عكفنا على اللذات فيها بمعزل عن الناس لا عينا تخاف ولا أذنا
تنازعني كأس العتاب وتجتني يدي من ثمار الوصل أحسن مايجنى
وتودعني سرا وتخشى انتشاره فأفهم معناها وأحلف ما يثنى

وبصور لنا الحبيب فبرسسه فتاة جمبلة يبدع في تصوبرها :

موردة الوجنات ســاحرة الرنــا تداني وبعد النمس منقربها آدني
ترى ورد خديها وصارم لحظهــا طليقين ذا يجنى وذلك لا يجنــى
اذا شام من بالغور برق ابتسامها بنجد جرى دمعي فصدق ما ظنا
ويا مطبقــا جفنيــه يحسب أنــه نغشاه لمع البرق والليل قد جنــا
ألا انها فافتــح عيونك « زينب » نخلت عن الجلباب ضاحكة ســنا

فهذه صورة بديعة يرسم فيها الشاعر ملامح حبيبــه بالصورة والحــركة وأخبرا هاهم أهل الهوى فقدوا عقولهم وأصبحوا بين هجر وعتاب :

مساكين أهل الحب حتى عقــولهم يخاف عليها ضيعة وذهاب
محبتهم في كل بــوم جــديدة وأحبابهم طول الزمان غضاب

وقبل أن نفارق ابن المقري ونفارق غزله بل شعره كله نقف عند قصــائد له في الغزل :

ان لــه فــرط غــرام وأســىً حتى صبا وهو مشيب قد أســن
والنفــت الألمــى إلــيَّ لفتــة لو صادفته وهــو ميــت لافتتن
بطلعة زادت على الشمس ســنا تجري بكل في الهوى على سنن
ظبي ملا قلبــي هموما وشــجا وما قضــى لي أربا ولا شــجن
عن مثل عقد الدر يفتــر فمــا ان لم يهم في حبه مثلــي فمــن
أبدله وجــدا وبيــدي وحــرا وكلما استرضي تأبى وحرن
هاجرته فازداد هجري ولعا راسلته فسبَّ رسلي ولعــن
فكــم أقاســي في هــواه لغبــا وهــو مــريح ان هــذا لغبن
لــم يبق لي ولا لصــب ورعــا ملاقــة فيــه ولــين ورعــن
قبله فهــل اخــاف ما ثمــا وهــل لذاك الظلم وهــو ما ثمن
لولا فتــور في مقــاه وسجى ما اوثق القلب هــواه وسجن

الى آخر هذه القصيدة البديعة .

وله قصيدة أخرى يجيد فيها غاية الاجادة :

شهود الهوى عني عليك عـدول | سهاد ودمـع سـافح ونحـول
وجسم محـاه السقم لولا قميصه | بـدا شـبح كالظل كـاد يزول
كساني الهوى بعـد التعزز ذلـة | وكـل عـزيز للغـرام ذليـل
لقد كان لي قلب عزوف عن الهوى | وعن كلمـا فـه عليـه دليـل
فعنت له من جانب السجف نظرة | لشمس ضحاها في القلوب افول
يصول الهوى منها ببيض صقبله | يجـردها ظبـي أغـن كحيـل
فراح بها سكران من خمرة الهوى | تقومـه العـذال وهـو يميـل
وما ذاق طعـم العيش الا متيـم | ببيض ظبـا تلك الظبـاء قتيـل
احبتنا طال الفـراق فهـل لنـا | الى الوصل من بعد الفراق وصول

* * *

المحتوى

الصفحة	الموضوع
٨٤	العلــوم
٨٦	علم الفلك
٨٧	علم الحساب ــ علم الزراعة
٨٨	العلوم الاجتماعية والسياسية
٩٠	الحيــاة الثقافيــة
٩٧	علوم القرآن الكريم
١٠٢	علم الحــديث
١٠٨	علم الفقـــه
١١٢	النحــو واللغــة
١١٦	علم التاريخ
١٣٢	الأدب
١٥٥	أدب الفقهــاء
١٦٥	اتجاهات الشــعر
١٩٨	شعراء العصر الرسولي
٢١٧	النثر الأدبي
٢٢٥	أدب الصوفيــة
٢٣٦	أعلام الشعراء في عصر بني رسول

للمــؤلف

ا ـ كتـب ،

(١) مراجع تاريخ اليمن ـ دمشق سنة ١٩٧٢

(٢) فهرس المخطوطات اليمنية ـ عدن سنة ١٩٧٤

(٣) الصوفية والفقهاء في اليمن ـ مصر سنه ١٩٧٦

(٤) دراسات في التراث اليمني ـ بيروت سنه ١٩٧٧

(٥) مصادر الفكر الاسلامي في اليمن ـ بيروت سنة ١٩٧٧

(٦) حكام اليمن ـ المؤلفون المجتهدون ـ بيروت سنه ١٩٧٩

ب ـ تحقيقـات :

١ ـ أفراط الذهب في المفاخره بين الروضه ونثر العرب ـ سنة ١٩٧٩

٢ ـ تاريخ وصاب ـ سنه ١٩٧٩

٣ ـ بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد ـ سنة ١٩٧٩

٤ ـ أدب الطلب للشوكاني ـ سنة ١٩٧٩

٥ ـ النفس اليماني للاهدل ـ سنه ١٩٨٠

٦ ـ حولبات يمانيه ـ دمشق سنة ١٩٨٠

٧ ـ كشف القناع عن أحكام الزراع ـ دمشق سنة ١٩٨٠

ج ـ تحت الطبع :

١ ـ المقامة في الادب اليمني « دراسة ونصوص »

٢ ـ معجم المرأة اليمنية

٣ ـ ثوار ما قبل الثورة

٤ ـ مدرسه التاريخ اليمني

٥ ـ تاريخ الفكر الاسلامي في اليمن

٦ ـ المطرفية مذهب مجهول في اليمن ـ نشرت منه حلقات في مجلة اليمن الجديد سنة ١٩٧٦

٧ ـ محمد بن ابراهيم الوزير رائد التحرر في الفكر اليمني

٨ ـ بيوت العلم في تهامة ـ نشرت منه فصول في مجلة العرب واليمن الجديد

٩ ـ عبقرية المهدي

١٠ ـ ابن عبد الوهاب ودعوته في التراث اليمني

١١ ـ المدينة في الشعر اليمني

١٢ ـ الحيمي ومدرسة البديع في اليمن

١٣ ـ من حديث المكتبة اليمنية ـ دراسة لأمهات الكتب اليمنية ـ نشرت منه بعض الفصول في مجلتي العرب واليمن الجديد

١٤ ـ بحوث يمانية ـ مجموعة مقالاته ودراساته الثانية ٠ وله ابحاث أخرى لا تزال قيد الاستكمال ٠

* * *